المصطلحات العلمية العربية في بغداد

مصطفى الشهابي

المصطلحات في القديم :

اذا قال قائل : « بغداد مهد المصطلحات العربية القديمة في العلوم والفنون والفلسفة » لا يكون مشتطا في قوله هذا ولا يكون من المخطئين • فمن المعروف أن العربية المضرية لم تكن قبيل الاسلام من اللغات المنحطة ، بل كانت لغة هجائية فيها أدب وشعر وحكم وأمثال وأساطير ، وفيها ألفاظ عديدة تعبر عما كانت القبائل تعرفه في ذلك الزمن كنبات الجزيرة العربية وحيوانها وتضاريس أرضها ، وكخلق الخيل والانعام وأمراضها ، وكزراعة الحبوب والنخل والكرم وغيرها ، وكالاحوال الجوية والنجوم والحساب الخ • لكن هذه المعارف وأشباهها كانت بدائية لا يمكن عدها علوما ، وكان معظم ألفاظها عربي النجار ، ولكن قسما منها كان اقتبسه عرب الجاهلية من الفارسية كالجلاب والجنار والسندس والاسكرة والابريسق والدولاب والكمك والسميد والخشاف والديباج ، أو من السنسكريتية كالزنجبيل والجاموس والفلفل والصندل والكافور والقرنفل والمسك ، أو من اليونانية كالقسطاس والفردوس والقنطار والقبان والترياق ، أو من السريانية (ومعظمها ألفاظ دينية أو زراعية) كالكنيسة والبيعة والكهنوت والناقوس والمسيح والشماس والفدان والنورج والناطور والاكار والفجل والزعرور والبلوط ، أو من العبرية كالتوراة والشيطان وجهنم والاسباط ، أو من الحبشية كالنجاشي والمنبر والمصحف والتابوت والحواريين •

ومن المعروف أيضا ان القرآن الكريم هو كتاب دين ودنيا جميعا ، وأن المسلمين سارعوا في زمن الراشدين والامويين الى فهم آياته ، والى فهم حديث النبي العربي (صلعم) فهما صحيحا ، فنشأ في صدر الاسلام علماء أجلة ، ونشأت معهم نواة علوم وتشريعات هي من أجل ما وضعه العقل البشري في هذه الامور • واقتضت علوم الفقه والحديث والتفسير وغيرها وضع مصطلحات عديدة استنبطها العلماء من صلب اللغة العربية ، بوسائل الاشتقاق والمجاز والتضمين ، وتركوا لنا في مصنفاتهم النفيسة كنزا من

ذخائر المصطلحات اللغوية والشرعية تفيد كل باحث في علوم اللغة العربية وكل عامل في تأليف الكتب الحقوقية ، أو في ضبط لغة القوانين في أيامنا هـذه .

ويقال مثل ذلك فيما اوجده القدماء من المصطلحات الادارية والسياسية والمالية والعسكرية ، بعد أن امتدت الفتوحات الاسلامية واتسعت رقعة الدولة ، وذلك بتبديل المعاني الاصلية لبعض الكلم ، وتضمينها معاني جديدة ، أو بتعريب بعض الكلمات الاعجمية ، أو باشتقاق ألفاظ جديدة ، مما جعل لغتنا العربية في صدر الاسلام تنمو نموا كبيرا ، وتوفي بحاجسات كثيرة . ومن الامثلة على تلك الكلم : البريد والدينار والدرهم والديوان والخلافة والدولة والشرطة والجباية والمكس والراتب والسكة ... الخ

ومع هذا ليست هذه العلوم ومصطلحاتها هي التي نعنيها في هـذا البحث الموجز . فالعلوم التي يهمنا أن تشير فيه اليها والى مصطلحاتها هي علوم الامم القديمة كالطب والفلسفة والمنطق والرياضيات والفلك والطبيعة والكيمياء والزراعة والمواليد الثلاثة غيرها . وهي علوم اليونان والرومان والفرس والهنود والكلدان وغيرهم ، فقد بدأ نقل بعضها الى العربيـة في أواخر عهد الامويين ، ولكن الفضل في نقل معظمها يرجع الى زمن المنصور وهارون الرشيد ، ولا سيما الى زمن المأمون في بغداد . فعصر المأمون كان العصر الذهبي لتلك العلوم ، وبغداد كانت مهدها . ومن بغداد انطلقت غربا الى الاقطار الاسلامية ، حتى بلغت قسما من البلاد الاوربية فلبث سكانها مئات من السنين يستنيرون بها وبما أضافه علماؤنا القدماء اليها من نتائج قرائحهم الفياضة .

ولا يجهل أحد من المطلعين على تاريخ لساننا أسماء الناقلين القدماء للعلوم المذكورة ، وهم الذين كانت بغداد مركزا لنشاطهم في عصر النهضة العلمية الاولى ، ومنهم حنين بن اسحق العبادي ، وابنه اسحق بن حنين ، والحجاج بن مطر ، وثابت بن قره الحراني ، وقسطا بن لوقا البعلبكي ، ويوحنا بن ماسويه ، وجورجيس بن بختيشوع وآله ، وابن داعمة الحمصي ، ويحيى بن عدي وغيرهم . وكان فوق هؤلاء جميعا يعقوب بن اسحق الكندي فيلسوف العرب وصاحب الكتب العديدة المترجمة والمصنفة في معظم العلوم الدخيلة . ومن الواضح أن معظم الناقلين الاولين كانوا من السريان ، وأن النقل دام بعد أيام المأمون . وكان للسريان قبيل الاسلام مدارس كثيرة في ديار ربيعة (الجزيرة) خاصة ، اشتهرت منها مدرسة الرها ومدرسة نصيبين . وكان لهم أديار فيها علماء درسوا في مدرسة جنديسابور الشهيرة . وقد نقل التراجم الذين ذكرت أسماء بعضهم علوم الامم القديمة الى لسانهم ، ثم نقلوها الى العربية اما من السريانية ، واما من اليونانية . وكذلك نقل ابن وحشية اليها من النبطية ، ومنكه الهنـدي من السنسكريتية ، وآل نوبخت ، وابن المقفع ، من الفارسية .

ولم يكن نقل تلك العلوم الى لساننا أمرا سهلا ، فالذين وضعوا العلوم النقلية كالفقه والحديث والتفسير وما اليها كانوا عارفين بأسرار اللغة العربية فجاءت مصطلحاتهم فصيحة ومحكمة ومستنبطة من صلب اللغة • أما ناقلو العلوم الدخيلة فقد كان جلهم ، كما قلت من غير العرب ، وكان كثير من موضوعات العلوم التي نقلوها مجهولا ، ولذلك وجدناهم يعربون باديء ذي بدء الكثير من الالفاظ الاعجمية اما لضعفهم بالعربية ، واما لاستسهالهم التعريب ، واما للامرين جميعا • فمن ذلك تعريب ألفاظ ارتماطيقى (الحساب) وفيزيقي (الطبيعة) وقاطيغورياس (المقولات) ، وأسطقس (العنصر) ، وأشباهها من الكلم التي سرعان ما وجدوا لها بعدئذ كلمات عربية صالحة • ومع هذا لبث في العربية كلمات كثيرة عربت منذ ذلك الزمن كالفلسفة والاقليم والمغناطيس ، وكالترياق والقولنج والسرسام في الطب ، والخيار ، والباذنجان ، والمقدونس ، والنيلوفر ، والافسنتين ، النبات الخ •

أما المصطلحات العربية النجار التي وضعوها للدلالة على مسمياتها العلمية فهي ألوف من الكلم دخلت لغتنا العربية ، واندمجت في جملة ألفاظها ، وأدمج معظمها في معجماتنا الاصلية • ففي الطب مثلا قالوا : التشريح والجراحة والكحالة • وسموا بعض الامراض بمثل السلاق والخانوق والربو والذبحة وذات الجنب الى آخر ما وضعوه من الكلمات العديدة في الامراض وأعراضها وأدويتها ومداواتها مما لا تتسع هذه اللمحة الخاطفة لذكره •

وفي الفلسفة والمنطق قالوا : العلة والمعلول ، والصورة والجوهر ، والكلي والجزئي ، والعرض والموضوع والمحمول ، والقياس والاستنتاج والمقولات ، والازل والابد والقديم والحديث وأشباهها من الالفاظ التي جعلوا لها في الفلسفة والمنطق معاني اصطلاحية محددة •

ووضعوا اسماء عديدة لاعيان النبات والمفردات الطبية مما لم تعرفه العرب في جزيرتها ، فترجموا بعض الاسماء الاعجمية بمعانيها ، وعربوا بعضها كالتي ذكرتها • أما ما ترجموه من أسماء النبات فمثل كثير الارجل ، وآذان الفأر ، وآذان العنز ، ولسان الثور ، وأنف العجل وأشباهها من الاسماء •

واتسعت لغتنا الضادية لجميع مصطلحات العلوم الرياضية من حساب وهندسة وجبر ومثلثات فقالوا مثلا الدائرة والقطر والمربع والمثلث والمخروط الجيب والماس وغيرها • وكذلك اتسعت لمصطلحات علم الطبيعة (الفيزياء) • أما النجوم فقد عربوا أسماء بعضها من اليونانية ، ولكنهم وضعوا للكثير منها أسماء عربية نقلها الاوربيون من لغتنا الى لغاتهم • وفي المعجم الفلكي للدكتور امين المعلوف عدد كبير من الاسماء الاعجمية التي هي من أصل عربي •

ولم يكن عمل الذين جمعوا وضبطوا ألفاظ العلوم ومصطلحاتها ، أو وسعوا علوم الاقدمين وألفوا فيها أقل شأنا من عمل الناقلين الاولين · ولا يجهل أحد فضل الذين كانت بغداد مركزا لنشاطهم أو لبروز عبقريتهم كالاصمعي المتوفى سنة (٢١٦) وصاحب الكتب المشهورة في الابل ، والخيل ، والشاء ، والنبات والشجر ، والنخل والكرم وغيرها · وكأبي عبيدة (ـ٢١٠) له كتاب الزرع وكتاب الحيات وكتاب الخيل وكتاب الابل وغيرها كثير · وابن قتيبة (ـ٢٧٦) الذى ولد ببغداد ونشأ بها وألف كتابه النفيس (أدب الكاتب) ، وكتاب الاشربة ، وكتاب الانواء ، وكتاب الخيل · وكأبي حنيفة الدينوري (ـ٢٨٢) العالم الثقة وأعلم علماء زمانه بأسماء النبات ، أخذ عن الكوفيين والبصريين ، ودخل بغداد ، ولو لم يكن له الا « كتاب النبات » الذي نقل عنه أصحاب الامهات من معجماتنا لكفاه فخرا · وكالكندي فيلسوف العرب (ـ٢٦٠) الذى مر ذكره ، وهو من ملوك كندة ، لم يبلغ أحد مبلغه فيما نقله وألفه في علوم زمانه ، وكابن السكيت (ـ٢٤٥) له كتاب الالفاظ ألفه على المعاني والموضوعات ·

ويطول بنا نفس الكلام اذا ما رحنا نستقصي أسماء هؤلاء الرواد من جامعي الالفاظ العلمية ومصطلحاتها ، وكذلك أسماء الذين عاشوا زمنا في بغداد ، وألفوا كتبا علمية ، واستعملوا فيها مصطلحات عديدة مثل ابن ماسويه (ـ٢٢٣) ، والرازي (ـ٣٢٠) ، والفارابي (ـ٣٣٩) ، دع الذين وضعوا في اللغة كتبا مشهورة كابن دريد الازدي (ـ٣٢١) صاحب كتاب الجمهرة ، وأبي هلال العسكري (ـ٣٩٥) له كتب في اللغة ، والجوهري (ـ٣٩٣) صاحب معجم الصحاح ، وأبي منصور الجواليقي (ـ٥٣٩ أو ـ٥٤٠) كان يعد من مفاخر بغداد ، له كتاب المعرب من الكلام الاعجمي وغيره ·

مناهج القدماء في وضع المصطلحات :

ويفيد ، بعد هذه اللمحة ، أن نلقي نظرة على النهج الذى سار عليه هؤلاء العلماء في وضع المصطلحات العربية للعلوم التي ترجموها أو ألفوا فيها · فمما نجده في هذا الباب :

(أ) تحوير المعنى اللغوي القديم للكلمة العربية ، وتضمينها المعنى العلمي الجديد ·

(ب) اشتقاق كلمات جديدة من أصول عربية أو معربة للدلالة على المعنى الجديد ·

(ج) ترجمة كلمات أعجمية بمعانيها ·

(د) تعريب كلمات أعجمية وعدها صحيحة ·

فقد وجدناهم مثلا يحورون معاني الوف من الكلمات ويضمنوها معاني اصطلاحية علمية جديدة لم تكن معروفة قبل الاسلام كالتحجير واحياء الارض الموات وأرض الخراج وأرض العشر والمزارعة والمساقاة والدولة ودار

الضرب والسكة والجباية والمكس الخ ٠

ووجدناهم يشتقون من أسماء الاعيان كقولهم ذهب من الذهب ، وبنج من البنج ، وكبرت من الكبريت ، وعصفر من العصفر ، وفي القاموس المحيط مئات من أشباه هذه المشتقات ٠

ووجدناهم أيضا يزيدون ياء النسب والتاء على بعض الكلمات فيصنعون مصادر تعبر عن الهيئات أو الاحوال التى تكون عليها مدلولات تلك الكلمات ، كقولهم فروسية وخصوصية وطفولية وكمية وكيفية وماهية الخ ٠

ومما يلاحظ تركيبهم لا النافية مع الكلمة العربية في مثل قولهم اللاأدرية واللانهاية ، ومنها جمع الصفة التي تكون على وزن فعلاء ، بالالف والتاء ، عندما تنزل منزل الاسم ، وذلك في مثل الخضراوات والورقاوات والبطحاوات ٠

ومنها النسب الى الجموع اما استثناء أو على مذهب الكوفيين ، في قولهم شعوبي واخواني وصبياني وملوكي وملائكي وتعاويذي وقلانسي الخ ٠

ومنها ترجمة حرف غما اليوناني و (G) اللاتيني غينا لا جيما ، وذلك في مثل قولهم غاريقون وأناغورس وغرناطة وهكذا ٠ ومن المعروف أن تسعة أعشار البلاد العربية تلفظ الجيم مخففة لا كما يلفظها سكان القاهرة ٠

ومن ذلك ترجيحهم ، في ترجمة علوم القدماء ، الاشتقاق أو المجاز على تعريب الالفاظ ٠ ومع هذا الفيناهم يكثرون من تعريب أسماء أعيان النبات والحيوان ، وأسماء العقاقير والاطعمة والاشربة والالبسة الاعجمية ٠ أما النحت فقد كان عندهم نادرا ٠ وهو اليوم لا يصلح الا قليلا في وضع المصطلحات العلمية ٠ والتركيب المزجي ، عند الحاجة ، أصلح منه ٠

وكانوا يعملون بما أقره اللغويون والنحويون المشهورون من قواعد عدوها أو عدها قسم منهم قياسية ، منها اشتقاق كلمات على وزن (فُعال) و (فَعَل) للمرض ٠ ومنها اشتقاق أسماء للالات على وزن (مفعل ومفعلة ومفعال) ، واستعمال اسم الفاعل ومبالغته (فعال) لهذا الغرض ٠ وكذلك استعمال وزن (مفعلة) للمكان الذي يكثر فيه الشيء ، ووزن (فعالة) للحرفة ٠

وهذه القواعد واشباهها هى التى رجع اليها مجمع اللغة العربية بالقاهرة في وضع قرارات فتح بها الكثير من أبواب القياس ، وسهل بها عمل واضعي المصطلحات العلمية ومحققيها ٠ وقد ذكرت معظم هذه القرارات في كتاب « المصطلحات العلمية في اللغة العربية ، في القديم والحديث » ، وفي مقدمة الطبعة الثانية من « معجم الالفاظ الزراعية بالفرنسية والعربية » ، والمعت اليها أخيرا في « معجم المصطلحات الحراجية بالانكليزية والفرنسية والعربية » ٠

ويتضح من هذه الخلاصة ان علماءنا القدماء طوعوا أو طوروا لغتنا الضادية حتى استوعبت ما عرف من علوم الاقدمين وعلوم زمانهم ، وأوجدوا لنا في تلك العلوم ، ولا سيما في العلوم الشرعية والفلسفية ، ألوفا من المصطلحات يجب أن لا يجهلها علماء ايامنا هذه ٠

ويتضح أيضا أن بغداد ظلت في حقبة مديدة من الزمن أهم منطلق للعلوم القديمة ومصطلحاتها وأصلح بيئة لها ، الى أن افل نجم حضارتنا العربية الزاهرة باستيلاء برابرة الشرق على العراق ٠

اصطلاحات العلوم الحديثة في بغداد :

لم تنس بغداد ، في النهضة الحديثة ، المنزل السامي الذي كانت تتبوؤه في الزمن الماضي ، فبرز فيها علماء عالجوا الشؤون اللغوية ومنها مفردات العلوم والفنون الحديثة ومصطلحاتها ٠ فمن الذين عرفتهم وناقلتهم الحديث :

الاب أنستاس ماري الكرملي (ـ١٩٤٧) فقد كان ، على ما أعلم ، أول من عنى بهذه المباحث في مجلة « لغة العرب » التي أصدرها في بغداد سنة ١٩١١م ، وأوقفها سنة ١٩١٤ ، في بدء الحرب العالمية الاولى ، ثم عاد فاصدرها من سنة ١٩١٨ حتى سنة ١٩٣١ ٠ وللاب انستاس مقالات كثيرة في مفردات وتراكيب كان ينقدها ، وفي مصطلحات كان يضعها أو يحققها ٠ وكان ينشر تلك المقالات في مجلته المذكورة وفي « المقتطف » و « المشرق » ، ومجلة مجمع دمشق ، ومجلة مجمع القاهرة وغيرها ٠ وله كتاب مطبوع في القاهرة سنة ١٩٣٨ أسماه « نشوء اللغة العربية ونموها واكتهالها » ٠ ومما حرره وعلق عليه كتاب « نخب الذخائر في أحوال الجواهر » للاكفاني ، طبعه في القاهرة سنة ١٩٣٩ ، وذكر في أحد فهارسه عدة ألفاظ اعجمية امام الالفاظ العربية ٠ وكثيرا ما كان يذكر لي في حديثه أو في رسائله معجما كبيرا له سماه المعجم المساعد لم يتصل بي أنه طبع ٠ وله كتب لغوية أخرى لاتزال مخطوطة ٠

ومنهم الدكتور مصطفى جواد له في البحوث اللغوية وفي تصحيح أغلاط الكتاب جولات يعد فيها من المبرزين المشهورين ٠ وقد نشر الكثير من مقالاته في مجلة لغة العرب ومجلة مجمعنا الدمشقي ومجلة المجمع العلمي العراقي وغيرها ٠ وله محاضرة نفيسة في المصطلحات العلمية والفنية ألقاها في مؤتمر أدباء العرب المعقود سنة ١٩٥٤ في بيت مري من أعمال لبنان ٠ وله أيضا كتاب مطبوع سماه « المباحث اللغوية في العراق » وهو جملة محاضرات ألقاها سنة ١٩٥٤ـ١٩٥٥ على طلبة معهد الدراسات العربية العالية في القاهرة ٠ وفي هذا الكتاب آراء كثيرة في المصطلحات ٠ وذكر فيه مؤلفه الفاضل أسماء كتب ألفها في شؤون اللغة وهي لا تزال مخطوطة ، فياليته يطبعها ٠ وهو اليوم يعالج المصطلحات العلمية في المجمع العراقي مع

لفيف من الخبراء في علوم مختلفة ٠

ومنهم الدكتور داود الجلبي الموصلي (١٩٦٠) له في مجلة مجمعنا الدمشقي بحوث نفيسة في أسماء الجواهر وفي مصطلحات طبية ، وله معجم في اصطلاحات أمراض الجلد ، وآراء في مصطلحات طبية وضعها مجمع اللغة العربية في القاهرة ٠ وله أيضا كتاب في الكلمات الفارسية التي تستعملها العامة في شمالي العراق ، ومثله رسالة في الكلمات الارامية (السريانية والكلدانية) ، وفي كل منهما تحقيقات مفيدة ٠

ومنهم الاستاذ عبدالمسيح وزير كان مترجما في وزارة الدفاع العراقية ، فانتهت اليه مصطلحات عسكرية وضعها الدكتور أمين المعلوف ، وأخرى وضعتها لجنة كانت تألفت في دمشق عقب الحرب العالمية الاولى ، فأضاف الاستاذ عبدالمسيح اليها مصطلحات كثيرة حتى تألفت لجنة خاصة أفضى عملها الى وضع معجم عسكرى بالانكليزية والعربية ٠

وعندما انفصل العراق عن الدولة العثمانية ، بعد الحرب العالمية الاولى ، وأصبحت العربية لغته الرسمية في الحكومة وفي المدارس ، انتقل اليه علماء وأساتيذ شاميون ومصريون عرفت منهم اثنين كان لهما في بغداد نشاط يذكر في موضوع الاصطلاحات العلمية والفنية ، وهما الدكتور أمين المعلوف والاستاذ عزالدين التنوخي ٠

فالدكتور أمين المعلوف (١٩٤٣) حصل على الجنسية العراقية ، وعمل مديرا للامور الطبية في جيش العراق ، فوضع له مصطلحات عسكرية ٠ وكان له اطلاع واسع على أسماء الحيوان ، وأسماء النجوم واصطلاحات علم النبات ٠ وله في ذلك بحوث جليلة كان ينشرها في مجلة المقتطف ومجلة مجمع دمشق وغيرهما ٠ وهو صاحب « معجم الحيوان » و « المعجم الفلكي » طبعا في القاهرة ، وكلاهما بالانكليزية والعربية ٠ وهما من أوثق المراجع فيما اشتملا عليه من أسماء وتحقيقات ٠

أما رفيقنا الاستاذ عزالدين التنوخي فهو من علماء اللغة وأساتيذ الزراعة ومن اعضاء مجمع دمشق منذ انشائه سنة ١٩١٩ للميلاد ٠ انتقل الى بغداد سنة ١٩٢٤ ودرس بالعربية في دار المعلمين الابتدائية والعالية فكانت له يد تشكر في وضع أسماء ومصطلحات عربية للكتب المدرسية ولا سيما في الجيولوجية وعلم الطبيعة ٠ وقد ألف في بغداد كتابا مدرسيا سماه « مبادىء الفيزياء » يشتمل على مصطلحات عربية وضع بعضها وحقق بعضا ، يوم كانت الكتب العربية في هذا العلم وأشباهه مفقودة ، لان التركية وحدها كانت لغة التدريس في زمن الدولة العثمانية ٠

وفي سنة ١٩٢٦ حاولت الحكومة العراقية انشاء مجمع لغوى فلم يتحقق سعيها ٠ وفي سنة ١٩٤٧ أنشىء المجمع العلمي العراقي ، وهو الثالث من مجامع ثلاثة ما برحت تعمل في جد ونشاط ، أقدمها المجمع العلمي العربي بدمشق (١٩١٩م) وثانيها مجمع اللغة العربية بالقاهرة (١٩٣٢م) ٠

وقد عالج مجمع بغداد بضعة ألوف من المصطلحات العلمية الحديثة ، وأبدى رأيه فيها ، ونشرها في مجلته أو في مجموعات مستقلة ، منهـــا مصطلحات في صناعة النفط ، وفي علم التربية ، وفي علم الفضاء ، وفـــي التربية البدنية ، وفي هندسة السكك والري والاشغال ، وفي الصـــناعة والملاحة والطيران ، وفي الالكترون • وكانت وما زالت ترده من دوائـــر الحكومة والمؤسسات العامة استفسارات عن صحة ألفاظ تبعث بها اليه ، فيقوم المعوج منها ، ويبدل من الالفاظ السقيمة او المرجوحة ألفاظا صحيحة أو راجحة •

وبعد يتضح من هذه الالمامة أن دار السلام التي كانت في الماضي مهد المصطلحات العربية في العلوم القديمة ، تشارك اليوم غيرها مشاركة مفيدة في معالجة الاصطلاحات العربية في العلوم والمخترعات الحديثة •

وفق الله علماء العراق الشقيق في خدمة لغتنا الضادية ، وألهم مجامعنا العلمية واللغوية وجامعة الدول العربية اتخاذ وسائل مجديـة تفضي الى توحيد المصطلحات العلمية والفنية في شتى اقطارنا العربية •

كلمة شكر ••• وتحية

بمناسبة التحاق الاستاذة الشاعرة نازك الملائكة والاستاذ الدكتور عبدالهادي محبوبة عضوي هيئة تحرير مجلة الاقلام بعملهما الجديد بجامعة البصرة يسر هيئة التحرير أن تزجي لهما عاطر الثناء وجزيل الشكر لما قدماه للمجلة من خدمات ستبقى محل الاعتزاز والتقدير الكبير •

وهي اذ تتمنى لهما طيب الاقامة في الثغر الحبيب والتوفيق في عملهما الجامعي الجديد ترجو ان تستمر مساهمتها في مجلة الاقلام ومؤازرتهما لها على الدوام •

من حديث الصيد في أدب العرب

الدكتور جميل سعيد

أتحدث عن الصيد أو الطرد في الشعر العربي ، وسألم بالحديث عنه في بيئة الجاهليين البدوية ، وأفيض بعض الافاضة في الحديث عنه في البيئة الحضرية ، ولا سيما بيئة العراق ، وسيكون حديثي عنه في الشعر أيام بني العباس خاصة ، واني أسف أن أقول : ان هذا الفن في الشعر ، قد اختفى أو كاد في أدبنا الحديث ، وان الباحث فيه ، لا يجد ما يستحق الوقوف عنده • هذا كله والصيد ما زال رياضة محببة الى النفوس في أيامنا هذه •

ربما كان الصيد أول فن علمته الطبيعة للانسان ، تعلمه ليدفع شر الكواسر عنه ، يوم كان هائما على وجهه في الكهوف والغابات ، وتعلمه ليغذي نفسه ، وصغاره بلحم الحيوان • ومر الزمن •• وتحضر الانسان، وسكن المدن والبيوت ، وأمن غائلة المفترس من الحيوان ، وخزن لنفسه من القوت ما يكفيه لاشهر ، بل لسنين •• فعل كل هذا •• وظل – مع هذا – يحب الصيد ، ويتخذه ملهاة وتسلية • وبقي ، السوقة وعلية القوم – يحبونه ويجدون فيه التسلية والمتعة •

والعجب ان الشرائع – حتى التي أعارت الرحمة عنايتها – لم تحرم الصيد ، بل حبذته وحببته • لقد جعلته الوثنية في اسمى درجات العبادة ، فجعله اليونان تحت رعاية أرخميس(١) • وكان المصريون القدماء يرون في صيد الضواري زلفى دينية يتقربون بها الى الآلهة •

وفي سفر التكوين من التوراة(٢) ، ان نمرود – حفيد نوح – كان صيادا عظيما ، وفيها أن داود كان يطارد كواسر الوحش التي تسطو على مواشي أبيه ، ويقول كشاجم(٣) ، الكاتب الشاعر المعروف ، في كتابه « المصايد والمطارد » : « وكان اسماعيل مولعا بالقنص ، محبا له ، متعبا نفسه فيه ، مباشرا لعمل آلات الرمي بيده ! وقصده أبوه ابراهيم – عليهما السلام – زائرا ، فلم يجده لشغله بالقنص » •

نرى من هذا أن الامم عامة قد جعلت الصيد أمرا مستحبا ، وكذلك كان شأنه عند العرب ، ان صحراءهم ، كانت مرسحا للصيد ، وكان أهل

الصحراء يقتاتون بما تنتجه ماشيتهم ، وبما يصطادونه مما يضطرب في صحرائهم · يقول الالوسي في كتابه بلوغ الارب ، « وكان الاصطياد ديدنهم ، وسيرة فاشية فيهم ، حتى كان ذلك أحد المكاسب التي عليها معاشهم (٤) » ·

والشعر الجاهلي فيه الكثير مما يتحدث به الشعراء عن هؤلاء الصيادين المحترفين الذين يقتات عيالهم على الصيد · وفيه حديث كثير عن أوقات خروجهم اليه ، وهو الصباح الباكر غالبا ، وحديث عن عنايتهم بكلابهم ، ويقولون انها لمكانها من نفوسهم كانت تتزين بالقلائد الجميلة ، على النحو الذي تزين بها فتياتهم ، وتوصف هذه الكلاب بأنها نحيفة مضطمرة ، تندفع نحو الطريدة ، وكأنها النشاب خفة ، وصلابة وسرعة · وقد يوغلون في وصف المعارك التي تدور بين هذه الكلاب وبين الحمر والثيران الوحشية ، ونحن نقرأ هذا فنجد طربهم لوصف هذه المعارك ، يتحدثون عنها وكأنهم يستعيدون ساعة لهو وطرب ·

والاسلام لم يحرم الصيد ، بل أحل صيد البر والبحر ، وربما كان من الرفق بالحيوان أن جعله آمنا حين يحرم الناس ·

وقد عني سكان العراق منذ أقدم العصور بالصيد ـ كان البابليون شغوفين بهذه الرياضة ، وكانت لهم حدائق يحبسون بها الحيوان ، والفرس ، ربما كانوا أشد غراما بهذه الرياضة من البابليين ، لقد اتخذوها وسيلة يتدربون بها على الرماية والحروب · ويقولون عن ملكهم « كورش » انه كان أول صيادي زمانه · وقد تحدث الجاحظ(٥) عن مطاردة فيروز بن قباذ والحاحه ولجاجته في طلب حمار الوحش ، ونظم الخيام ، الشاعر الفارسي المشهور ، مطاردة (بهرام جور) لحمار الوحش في رباعية من رباعياته المشهورة ·

وخلفاء بني العباس لم يكونوا أقل شغفا بالصيد ممن سبقهم من الملوك والحكام · عني به السفاح(٦) ، الخليفة العباسي الاول ، على كثرة مشاغله في تمكين دعائم الدولة ، وعني به الرشيد والامين والمعتصم · وفي الخليفة المهدي يقول الشاعر :

يغدو الامام اذا غدا ... للصيد مأمون النقيبة
فتؤوب ظافرة جوا ... رحه وأكلبه الاديبة
بمخالب وبراثن ... بدماء ما اقتنصت خضيبة

وحين ضعف أمر الخلفاء من بني العباس ، ازداد شغفهم بالصيد ، وربما كان من أهم أسباب هذا ، أن غيرهم أخذ يدير الملك عنهم ، وتركوا ولا شغل لهم ، الا اللهو والعبث ·

يقولون عن الخليفة المعتضد(٧) ، انه أول من استسن حلقة الصيد ،

وانه كان يخرج لصيد الاسد • والخليفة المتقي ، كان يخرج الى الشماسية ، بجوار بغداد ، لصيد السباع • وفي « ديارات الشابشتي » ذكر(٨) الفضل أنه خرج ذات يوم مع المعتز للصيد ، قال : « فانقطعنا عن الموكب ، أنا وهو ، ويونس بن بقا ، فشكا المعتز العطش ، فقلت له : يا أمير المؤمنين ان في هذا الدير راهبا أعرفه •• فهل لامير المؤمنين أن نعدل اليه !؟ » وهكذا نرى الخليفة المعتز يذهب الى الصيد بموكب كبير ، وفي المعتز هذا وفي صيده يقول البحتري الشاعر :

تعجبت من فرعون اذ ظن أنه
اله لان النيل من تحته يجري
ولو بصرت عيناه بالزو لازدرى
حقير الذي نالت يداه من الامر
اذا لرأى قصرا على ظهر لجة
يروح ويغدو، فوق أمواجها يجري
تصاد الوحوش في حفافي طريقه
وتستنزل الطير العوالي على قسر
ولم أر كالمعتز اذا راح موفيا
عليه بوجه لاح في الرونق النضر

وشغف آل بويه بالصيد ، وربما كانت قصص صيد الاكاسرة ـ وقد كانت شائعة في عصر البويهيين ـ مما زادهم شغفا به • يقول الجاحظ(٩) : « وزعموا ـ وكذلك هو في كتبهم ـ ان ملوك الفرس كانت لهجة بالصيد • الا أن بهرام جور هو المشهور بذلك في العوام » • ويقص كشاجم قصصا طريفة عن صيد بهرام جور هذا ، يقول : « وكان لبهرام خطيبة ، فاقترحت عليه حضور الصيد معه . فأجابها الى ذلك . فبينما هما يتصيدان ، اذ عن له سرب ظباء ، وكان أرمى الناس ، فقال لها : كيف تحبين أن أرمي هذه الظباء ؟ قالت : أريد أن تجعل ذكورها اناثا ، واناثها ذكورا • ففهم ، وقدر أن تكون قد توهمت عليه العجز •• ورمى التيوس من الظباء فرمى قرونها ، فصارت كالاناث • وجعل يرمي الاناث فيثبت النشاب في موضع القرون ويقول : وقالوا : أنها طالبته بالجمع بين ظلف الظبي وقرنه ، فرماه ببندقه ، فأصاب أذنه ، فحكمها بظلفه ، فرماه بنشاب فشله » •

هذه القصص التي ـ على ما نراها الان ـ أقرب الى الخيال منها الى الحقيقة ـ جعلت آل بويه يتعلقون بالصيد ، لقد شهر بختيار الملقب بعز الدولة في الصيد ، وساعده على ذلك ان كان شجاعا ذا قوة تمكنه أن يمسك الثور العظيم بقرنيه فلا يتحرك(١٠) •

ويذكر ابن الاثير(١١) في حوادث سنة ٣٦١هـ ان جماعة من أهل ديار بكر ، وتصيبين استنصروا أهل بغداد ، لما فعله بهم الروم من القتل

والنهب ، قال ابن الاثير : « وكان بختيار حينئذ يتصيد بنواحي الكوفة ، فخرج اليه وجوه أهل بغداد مستغيثين ، منكرين عليه اشتغاله بالصيد .. » وهذا الامير نفسه انحدر لمحاصرة عمران بن شاهين ، فأقام بواسط يتصيد شهرا ، حتى ضجر عسكره ، وعاد خائبا ، وكان هذا الامير شغوفا بالخيل ، والخيل عدة الصيد الاولى ، وكذلك كان عضد الدولة شغوفا بها أيضا ، مات ورثاه ابن نباتة السعدي الشاعر ، فلم يجد أولى من الاشارة الى شغفه هذا ، يقول :

جيادك في الرياض معطلات
جفاها السير بعدك واللغوب
ولا مضغ الشكيم لها قضيم
ولا شم الجنوب لها ذنوب
تقاد الى الركاب مجنبات
وما لهوانه قيد الجنيب
وقد أكلت سنابكها المواصي
فلان المشي منها والدبيب

وكما شغفت علية القوم بالصيد ، شغفت به العامة . يقول الصابيء ، أبو اسحاق : « ان الخاصة تعده نزهة وملعبا ، والعامة تعده حرفة ومكتسبا» والجاحظ ، يتحدث ويفيض في الحديث عن المصائد التي ينصبها الناس للحمام .

وواضح أن بيئة العراق كانت مواتية للصيد كل المواتاة ، فتربته السهلة التي تخضر في الربيع تكون خير مصاد للظباء والارانب والثعالب ، وآجامه ورياضه تكون خير مصاد لكواسر الوحش من الاسد وغيرها ، وأنهاره الكثيرة خير مسرح لصيد السمك وطيور الماء . وقد شغف الشاعر السري الرفاء بصيد السمك ، وتحدث عن هذه المتعة بشعره . يقصد السري الرفاء دير متى ، ويصطاد بالجدول المار بالدير ، ويقول :

صب لفرات الصبا مكلف
هاج هواه الدير والمستشرف
له من الآس الجني رفرف
وجدول لجته لا تنزف
تصقل متنيه الرياح العصف
حيتانه دانية تلقف

واذا كان هذا مبلغ اهتمام الناس بالصيد ، وهذا مبلغ التعلق اليه ، فنحن لا نعجب أن تهيج بسببه العاطفة ، وأن يجري بسببه الشعر على

اللسان ٠ وربما كانت أشعار الصيد من أقدم ما يروى في شعر كل أمة ٠ فاليونان لهم في شعر هوميروس اسهاب يدل على مواقع الصيد في نفوسهم ٠

واذا أردنا أن نعرف مكانة الصيد من نفس العربي ، فليس لنا الا أن ننظر في شعر امرىء القيس ، وهو أقدم ما وصلنا من الشعر العربي ، وان نقرأ له :

كأني لـم أركب جـوادا للـذة
ولـم أتبطن كاعبسا ذات خلخال
ولم أسبأ الزق الروي ولم أقل
لخيلي كري كرة بعـد اجفـال

قالوا : « ان اللذة التي عناها في قول :

كأني لم أركب جوادا للذة ٠٠٠٠ انما هي لذة الصيد وقد قدمها ـ لشغفه بها ، ومكانتها من نفسه ـ على لذات النساء والخمر ، والحرب ٠ ويندر أن نجد شاعرا جاهليا ، لا تثير لذة الصيد هذه حديثه ، فيفيض في شعره ، في ذكرها ووصفها ٠



(١) انظر دائرة المعارف للبستاني ٠
(٢) التوراة : ص١٠ ، ٩ ٠
(٣) كتاب المصايد والمطارد ـ النسخة الخطية المحفوظة بالمكتبة الحسينية بالموصل ـ بالعراق ٠
(٤) جـ١/٤٢٣ ٠
(٥) كتاب الحيوان ـ طبعة الحلبي /جـ١ ص١٤٠ ٠
(٦) المصايد والمطارد لكشاجم ٠
(٧) النويري ـ طبعة دار الكتب ٩/٤٢٨ ٠
(٨) المنتظم لابن الجوزي ٠ ص٧١ ٠
(٩) الحيوان ٦/١٤٠ ٠
(١٠) انظر ابن تغري برد طبعة كاليفورنيا ص٢٩ ٠
(١١) الكامل ٨/١٣٣ ٠

القومية العربية والخليج العربي

الدكتور محمود علي الداود

شاهد الوطن العربي خلال السنوات الاخيرة تطورات سياسية واقتصادية وثقافية واجتماعية لم تشهدها اية منطقة اخرى في العالم ٠ ويرجع الفضل في هذا التطور السريع المدهش الى الحركة القومية العربية التى أستطاعت في وقت قصير جدا الى تحقيق الكثير من الانجازات في جميع الحقول والتي سجلت العديد من الانتصارات على أعدائها في الداخل والخارج ٠ ولاول مرة في التاريخ بعد سقوط الامبراطورية العربية قبل ألف عام ينهض العرب ليتبوؤا مركزهم الذي يليق بهم في ميدان القوة والحضارة ٠ ولم يكن الطريق الذي سلكته القومية العربية سهلا ومعبدا بل كان في كثير من الاحيان شاقا ووعرا وقد شقت الامة العربية طريقها نحو المجد والحضارة بقوة وعزم بالرغم من العراقيل الداخلية والخارجية ٠ فمن المعلوم ان الحكومات التي تولت مقاليد الامور في البلاد العربية بعد الحرب العالمية الاولى كانت واقعة تحت النفوذ الاجنبى بشكل او بآخر وكانت تلك الحكومات تتصف بعدم التقدير وعدم المسؤولية ، عدم التقدير لاهمية الحركة القومية العربية التى كانت قد بدأت في معارك حامية مع الاستعمار الاجنبي لاجل الحصول على الحرية والاستقلال ، وعدم المسؤولية في تفضيل المصلحة القومية العليا على المصالح الشخصية والاقليمية ٠ وكان الساسة العرب الذين تولوا مقاليد السلطة في الفترة بين الحربين العالميتين والى نهاية النصف الاول من هذا القرن يؤمنون بضرورة ابقاء الاوضاع على حالتها ويفاخرون بأن تلك الاوضاع هى منة من سلطات الاحتلال الاجنبة ويؤكدون على ضرورة استمرار تلك الاوضاع والظروف في ظل ثقتهم « الغالية » بالسياسة الفرنسية والبريطانية في المنطقة ٠ وقد تخلى الكثير من هؤلاء الساسة عن المبادىء السامية التي قامت الثورات العربية ضد الاستعمار على أساسها وخاصة ثورة مصر سنة ١٩١٩ وثورة العراق سنة ١٩٢٠ والثورات الفلسطينية العديدة المستمرة من سنة ١٩١٨ والى سنة ١٩٤٨ وهى سنة النكبة ، وكذلك ثورة سوريا

عام ١٩٣٦ وثورات ليبيا والجزائر وتونس والمغرب . واعتبر هؤلاء مجرد اعتراف القوى الاستعمارية بالحكومات الشكلية في البلاد العربية ومجرد وصولهم الى الوزارات تغييرا نهائيا لحقيقة الاوضاع السياسية والاقتصادية للوطن العربي . وقد استغل هؤلاء الحكام مراكزهم افظع استغلال وكان حكمهم اتعس بكثير من الحكم الاجنبي المباشر ولم ينسوا الاخفاء على انظمة حكمهم بكثير من الاسانيد الدينية والمذهبية لاهداف لم تكن خافية على احد .

ونتيجة لسياسة للامبالاة وعدم التقدير التي اتبعتها الحكومات العربية التي كانت تخضع لدار الاعتماد او السفارة او الوكالة السياسية الاجنبية وفي ظل انظمة الحكومات الرجعية الضعيفة الذليلة احاقت بالامة العربية سلسلة من الاهانات والانتكاسات هزت النفوس العربية هزة عميقة . وكان اول تلك الضربات التي حاقت بالامة العربية انسلاخ سنجق الاسكندرونة بأكثريته العربية الساحقة عن سوريا العربية واغتصابه بالقوة بمساعدة فرنسا طبعا وامام سمع وبصر عصبة الامم التي راقبت خروج القوات الفرنسية ودخول القوات التركية في ليلة واحدة دون أن تحرك ساكنا وكأن الامر لا يعنيها لا من قريب ولا من بعيد . ثم كانت نكبة فلسطين التي مهد لها الانتداب الانكليزي بكل قواه العسكرية والاقتصادية والمالية ثم ساهم فيها الاستعمار الامريكي . وكانت مأساة فلسطين أشد وقعا على الامة العربية من انتكاسة الاسكندرونة وان كان اللوم يقع على عاتق الحكومات العربية التي استسلمت لمشيئة الاجنبي في الحالتين . ومن الجدير بالذكر ان الامراء والملوك العرب ، الذين وثقوا بالسياسة البريطانية الى أبعد الحدود ، كانوا وراء وقف اطلاق النار وانتهاء الثورة الفلسطينية الواسعة النطاق سنة ١٩٣٦ وقد أكد الملوك والامراء في بيانهم الذى أذاعوه على الشعب العربي والذى ناشدوا فيه الفلسطينيين الى ايقاف الثورة ، على عدالة بريطانيا ووعودها وتناسوا وعودها السابقة اثناء الحرب العالمية الاولى .

وكانت جميع الحكومات العربية مرتبطة بمعاهدات صداقة مع بريطانيا وفرنسا واعترفت باستقلالها اسميا الا انها تضمنت الكثير من القيود التي جعلت من الصعب اعتبارها دول مستقلة ذات سيادة . وقد اعترفت تلك المعاهدات بمركز انكلترا (أو فرنسا) وبأحقيتهما في الاحتفاظ بقواعد عسكرية وباحتكار جميع الامتيازات الاقتصادية وخصوصا النفط . كما كانت الدول الاجنبية تشرف بواسطة مستشاريها العديدين على جميع الشؤون العامة وكان هؤلاء من عسكريين ومدنيين يتدخلون في كل صغيرة وكبيرة وخاصة في قضايا الدفاع والسياسة الخارجية والتعليم . وكان الاستعمار يخشى الثقافة القومية ولذلك عمد على أبعاد الشباب العربي عن دراسة تاريخ أمته ونقاط القوة والمجد والمفخرة والعلم فيه والغرض من ذلك تنشئة جيل عربى واقع تحت تأثير الثقافة الغربية وليست له ثقافة

قومية واضحة ٠

وبالاضافة الى هذه الارتباطات التى اقامتها الدول الاجنبية مع الاقطار العربية فأن هذه الدول اعادت خلال الحرب العالمية الثانية احتلال الوطن العربى بأسره وخاصة الاجزاء التي سبق ان حصلت على أستقلالها الاسمى وقد جابهت في بعض الاحيان مقاومة وطنية كما حصل بالنسبة لحركة مايس ١٩٤١ في العراق عندما رفضت الحكومة الوطنية يومئذ السماح للحكومة البريطانية بابقاء قوات بريطانية اكثر مما خولته معاهدة سنة ١٩٣٠ ، وقد دخل الجيش العراقي في معركة ضارية مع الحامية البريطانية في الحبانية وسقط الكثير من افراد الجيش العراقى الباسل في ساحة الشرف دفاعا عن كرامة العراق وانتصارا للقومية العربية ٠

وقد الحقت الحرب العالمية الثانية وما صاحبها من نكبات الاضرار البليغة بالوطن العربي فقد تحولت عددا من البلاد العربية مثل ليبيا وتونس والجزائر والمغرب وسوريا ولبنان الى ساحات قتال بين المحور والحلفاء ونالها الخراب والدمار على يد الجانبين المتحاربين ٠ وقد وضعت جميع المطارات والموانيء والقواعد الجوية والعسكرية وجميع الموارد الاقتصادية تحت تصرف الحلفاء ٠ وكانت الحكومات العربية تؤمل أن الحلفاء سيقدرون المساعدات العربية لهم خلال الحرب العالمية الثانية واستبعدوا كثيرا ما حصل بعد الحرب العالمية الاولى من نكث للعهود والمواثيق ٠ الا انه ظهر واضحا لدى الشعب العربي ان الحرية تؤخذ ولا تعطى وانه لابد من الدخول في معارك طاحنة لتصفية الاستعمار في الوطن العربي وفعلا بدأ الشعب العربي في سوريا والعراق ومصر وفلسطين وبلدان شمال افريقيا يتهيأ لمعركة طويلة المدى الا أنه كان يؤمن بأن النصر سيحالفه ٠ ولاجل القضاء على وحدة الصف العربي ولاجل ابعاد العرب عن قضيتهم الاولى قضية فلسطين وتقوية جوانب النفوذ البريطانى المختلفة شجع الاستعمار الحكومات العربية على اتباع سياسة الاحلاف العسكرية وقد نجح في اقناع الحكومة العراقية بأهمية التعاون مع تركيا وايران في هذا المضمار ٠

وكانت نكبة العرب في فلسطين واطلاع الشعب العربي على الضعف الظاهر في انظمة الحكم القائمة وتسابقها للحصول على مصالح آنية ضيقة ضاربة عرض الحائط بالمصلحة القومية العربية ، بداية فرز الشعب العربي خلالها عزمه على تصفية تلك الحكومات التى تهاونت في الاستعداد للمعركة المقدسة والتي كان تصرفها طعنة عميقة فى قلب الامة العربية الجريح ٠

وحدثت ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ التى طوحت بعهد فاروق والباشوات واعادت للشعب العربي في مصر كرامته ومكانته وقد شملت آثار هذه الثورة جميع اجزاء الوطن العربي من الخليج الى المحيط ٠

ودخلت الامة العربية في عهد الرئيس جمال عبدالناصر فترة ذهبية سارت خلالها الحركة القومية العربية بسرعة فائقة واعادت للامة العربية مجدها الغابر • وقد صاحب استقرار الحكم وتبلوره في مصر ثورة اجتماعية وثقافية واقتصادية وعسكرية وصناعية رفعت اسم العرب عاليا بين الامم التى كانت قبل سنوات قليلة تستعبدهم وتسيمهم سوء العذاب •

وقد انتبه الاستعمار الغربي الى أهمية الحكم القومي الجديد في مصر وخاصة بعد ان تركز بعد سنة ١٩٥٤ فقرر الضغط على العراق للدخول في حلف عسكرى هو حلف بغداد الذى اصبح غرضه فى السنوات الاخيرة موجها لاضعاف الجمهورية العربية المتحدة التى ولدت عام ١٩٥٨ • وكان من الواضح ان هذا الحلف العسكرى كان اداة لتفرقة الصف العربي ومحاولة من قبل الانكليز والامريكان لضرب بغداد بالقاهرة وخلق سياسة المحاور في البلاد العربية • وكان الضغط الذى مارسه الانكليز على العراق من أهم العوامل التى دفعت الجيش العراقى للقيام بثورة ١٤ تموز سنة ١٩٥٨ والاطاحة بالحكم الملكى الواقع تحت تأثير النفوذ البريطانى •

وقد زادت المقاومة الاجنبية للحركة القومية العربية بعد التقاء ثورة ١٤ تموز بثورة ٢٣ يوليو وقامت القوات الامريكية بعمليات انزال في لبنان ووقف الغرب موقفا معاديا من ثورة ١٤ تموز من يومها الاول الا انه سرعان ما غير موقفه بعد انحراف تلك الثورة عن الاهداف القومية العربية • وليس هناك شك ان الاوساط الغربية كانت تشعر بالارتياح البالغ ابان حكم قاسم الشعوبي الذي كانت اهم اهدافه القضاء على عروبة العراق ومن ثم الدخول في مشاحنات على مختلف المستويات مع الجمهورية العربية المتحدة باعتبارها القاعدة القومية الكبرى • وقد شجع قاسم الانفصال في سوريا واستند الى مدرسة شعوبية كرست معظم جهودها في حملات من القذف والشتم بالجمهورية العربية المتحدة وامتاز عهده بالارهاب والمذابح التي اجتاحت مدن الموصل وكركوك وغيرها من المدن العراقية التي اظهرت مقاومة للحكم الشعوبى •

الا أن الجمهورية العربية المتحدة بقيت قوية الجانب رغم انتكاسة الوحدة مع سوريا وخرج السيد الرئيس جمال عبدالناصر بعد خطابه الخطير الذى القاه فى ٢٨ أيلول ١٩٦١ بطلا قوميا ارتفع الى مستوى الاحداث ودفع المصلحة القومية العربية فوق كل اعتبار •

ولقد شعرت الجماهير العربية بعد نكسة الانفصال بالاخطار المحدقة بها وقدرت تقديرا صحيحا نقاط القوة والضعف فيها واندفعت اكثر حماسا في سبيل القومية والوحدة وكانت ثورة ١٤ رمضان في العراق انتصارا آخر للقومية العربية وقد صاحب هذه الثورة حماس عظيم لا للتخلص من الحكم الشعوبى فحسب بل الشروع فى بناء الداخل على

أسس قويمة • ألا ان تطرف الحزبية ادخل العراق فى دوامة جديـــدة وابعدته مرة اخرى عن ميدان العمل والبناء فــي الحقلين الداخلي والقومي ، دفع الجيش العراقي في ١٨ تشرين ١٩٦٣ لاتخاذ التدابير لاعادة الامن ونشر الاستقرار في ربوع العراق وشعر الشعب العراقي بأهمية هذا الاستقرار لتطوره الاقتصادي والاجتماعي والثقافي • وتسود اليوم علاقات اخوية قوية بين العراق والجمهورية العربية المتحدة ويجرى التعاون بين الشقيقتين فى مختلف المستويات والمجالات •

وكان الشعب العربي قد حقق اعظم انتصاراته فى الجزائر المجاهدة التي فقدت منذ اعلانها الثورة على الاستعمار الفرنسي عام ١٩٥٤ أكثر من مليون ونصف مليون شهيد في سبيل الحصول على أهدافها القومية •

وقد ساندت الثورة الجزائرية الحركة القومية في ليبيا وتونس كما كانت مسؤولة عن استقلال عدد كبير من الاقطار الافريقية • وقد رافق استقلال الجزائر سنة ١٩٦٢ وضع خطة قومية للنهوض باللغة والثقافة والحضارة العربية واصبحت الجزائر مركزا هاما من مراكز الحركــــة القومية العربية •

ان هذا العرض لتطور الحركة القومية العربية امر ضروري جــدا لتفهم مركز الخليج العربي وتطوره السياسي والدور الذى سيلعبه فــي مستقبل الامة العربية • وهناك صلة مباشرة بين الاحداث التى قامــت في البلاد العربية وبين هذه المنطقة البالغة الخطورة والتي تتعرض الان لنفس التجارب التى مرت بها الدول العربية قبل عدت سنوات مع بعض الفوارق المحلية التي ترجع الى تكوينها القبلي •

ان الدول العربية مدعوة الى دراسة اوضاع امارات الخليج العربـي وجنوب الجزيرة العربية لتجديد مستقبلها السياسي والدور العظيم الذي ستلعبه في البناء السياسي والاقتصادي للوحدة العربية المقبلة • ان الامة العربية ستجابه عما قريب مشاكل معقدة قد تتحول الى صراع طويل مــع الاستعمار البريطاني الذي لا يبـدو عــلى استعداد لتقبــل سياسة الامـر الواقع والانسحاب من هذه المناطق الشاسعة التى تبلغ مساحتها اكثر من مساحة العراق وسوريا ولبنان والاردن وفلسطين مجتمعة والتي تعتبـر من اغنى مناطق العالم على الاطلاق •

لقد اصبح من الواضح ان وجود اكثر من ثلاثين مشيخة وامــارة وسلطنة في الخليج العربي وجنوب الجزيرة العربية امر جدير بالدراسة والتمحيص على ضوء تطور الحركة القومية العربية وعلى ضــوء الجهــود التي تبذلها الدول العربيــة متعاونــة مــع الــدول الاسيوية والافريقية في ميدان تصفية الاستعمار • وعلى الدول العربية تقع تبعة ضمان عــدم التجاء هذه الكيانات السياسية الى الدول الاجنبية وجذبهــا بمختلــف الوسائل الى التعاون مع الجامعة العربية وتأسيس علاقات ثقافيةواقتصادية

واجتماعية معها . فمن المعلوم ان الاستعمار قد نجح في عزل هذه المناطق عن الدول العربية وخاصة المتطورة منها ومنع أى تقارب ثقافي او اقتصادى او سياسي مع هذه الدول وقد اشاع الاستعمار ان الدول العربية تملك اطماعا خاصة بها في الخليج العربي وجنوب الجزيرة العربية ولذلك من الافضل لحكام هذه المناطق المحافظة على علاقاتهم القديمة مع الحكومة البريطانية .

ان الخليج العربي منطقة بالغة الخطورة بالنسبة لحاضر الامة العربية ومستقبله وموقعه الجغرافي قد جعله في مختلف العصور يؤلف الجسر الذى يربط العراق وشرق الجزيرة العربية بالهند والباكستان وجنوب اسيا والشرق الاقصى واوربا .

وقد برهن مضيق هرمز على الاهمية الستراتيجية للخليج بالنسبة للدفاع او الهجوم على العراق . كما اثبتت مختلف العصور على الدور الذي يلعبه الخليج وموانيه العديدة وخاصة البحرين ودبي والكويت والبصرة في ازدهار المنطقة الاقتصادى وفي تجارة الترانسيت بالنسبة لجميع بلدان الشرق الاوسط . ويعتبر ميناء البحرين الجوي من أهم الموانىء الجوية في العالم وملتقى الخطوط الجوية بين اسيا واوروبا وافريقيا .

وقد لعب موقع الخليج العربي الستراتيجي دورا رئيسيا في مختلف الاحداث التي مرت بالبلاد العربية فقد هاجم الانكليز العراق من الخليج في الحربين العالميتين الاولى والثانية وقامت الطائرات الانكليزية بضرب القواعد العربية أبان حملة السويس من مطارات الشارقة والبحرين . ولا شك ان وجود القواعد البريطانية والامريكية في الخليج العربي تهديد مباشر للحركة القومية العربية وسلامة الوطن العربي وخاصة في حالة وقوع حرب بين العرب واسرائيل . وهذا ينطبق بطبيعة الحال على القاعدة البريطانية في عدن التي تعتبر تهديدا مباشرا لسلامة الحكم الجمهوري في اليمن وسلامة التجارة العربية ومناهضة الحركة الوطنية في حضرموت وجنوب اليمن .

ويلعب النفط دورا رئيسيا في موضوع العلاقات العربية ـ البريطانية في الخليج العربي وتحتكر الشركات الانكليزية امتيازات التنقيب عنه واستخراجه وتوزيعه في جميع انحاء الخليج وتساهم الشركات الامريكية مع الشركات الانكليزية في بعض الاحيان . وليس هنالك شك أن صناعة النفط قد جذبت عددا كبيرا من العمال والفنيين والمثقفيين العرب الذين ساهموا خلال اعمالهم في حقول النفط في تطوير الحركة القومية في المنطقة كما ساهمت صناعة النفط في تطوير هذه المنطقة من الناحية الاقتصادية . الا أن النفط قد خلق مشاكل معقدة نجمت عن التنافس الشديد بين الحكام لاجل تحديد حدودهم وقد نشأت

مشاكل حدود معقدة بين قطر وابو ظبي وبين ابو ظبي والمملكة العربية السعودية وبين الاخيرة والكويت . وفي هذا الاطار العام ظهرت قضية البريمي وكذلك قضية عمان .

وتتلخص الثورة العمانية بأنها محاولة الشعب العماني الذي عاش في عمان منذ زمن طويل المحافظة على استقلاله الذي سبق أن اعترف به الانكليز وسعيد بن تيمور وسلطان مسقط في معاهدة سيب سنة ١٩٢٠ . وكانت حملة انكليزية ـ مسقطية مشتركة قد هاجمت عمان سنة ١٩٥٥ وقضت على نوع الاستقلال الذي كانت تتمتع به وقامت الطائرات البريطانية بابادة المئات من أبناء هذا الشعب الأعزل مما اضطر عشرات الالوف من أبنائه الى مغادرة بلادهم الى امارات الساحل والى السعودية والعراق والكويت حيث يعيشون الان لاجئين وتطاردهم وتضطهدهم السلطات البريطانية وخاصة في قطر والبحرين وعلى العموم يعيشون عيشة الفاقة والحرمان .

ان مأساة عمان قد تمت دون الكثير من الاهتمام وذلك لان بريطانيا قد منعت أي صحفي أو مراقب من السفر الى تلك المنطقة وخاصة اذا كان عربيا وتحت ستار كثيف من الكتمان دمرت الطائرات البريطانية سنة ١٩٥٥ العشرات من القرى الآمنة في الجبل الأخضر وعمان الداخلية وأجبرت عشرات الالوف من العمانيين الى الهجرة من أوطانهم . وفي نفس الوقت شجعت السلطات البريطانية في الخليج العناصر غير العربية من ايرانية وهندية الى الهجرة الى امارات الخليج العربي حتى أصبح وضع بعض هذه الامارات من الخطورة بحيث يتحتم على الجامعة العربية معالجة الأوضاع التي نتجت عن ذلك والتي قد تتطور الى ما لايحمد عقباه .

لقد سبق لعمان أن لعبت دورا عظيما في بناء الحضارة العربية وخاصة في ميادين التجارة والصناعة وقد بقيت مدنها عدة قرون بعدسقوط بغداد بيد هولاكو مركزا تجاريا دوليا وقد وصل تجارها الى كانتون والملايو وسنغافورا وشرق افريقيا والدنمرك وفنلندا . ولا شك أن تطور الفكرة القومية العربية يجعل من الضروري الأخذ بيد الشعب العماني ليمثل مرة اخرى المركز الذي سبق أن لعبه بقدرة وجدارة في نفس الفترة التي كان معظم أجزاء الوطن العربي تعيش في فترة العصور الوسطى المظلمة .

ان واجب جميع الحكومات والجامعات والمعاهد الثقافية العربية الاهتمام بدراسة وتدريس قضايا هذه المنطقة وابراز أهميتها في حاضر ومستقبل الوطن العربي . ومن واجب الجامعة العربية أن تبذل المزيد من الجهود لأجل وضع برنامج عربي شامل وموحد للتعاون الاقتصادي والثقافي والاجتماعي مع امارات هذه المنطقة . وبطبيعة الحال فان الشعب العربي يتوقع تعاون الجمهورية العراقية والجمهورية العربية المتحدة في

تقوية الصلات القومية مع أبناء الشعب العربي وتستطيع الكويت المساهمة كما بدأت تفعل الآن في بناء المناطق الفقيرة وكذلك الحال بالنسبة الى قطر وأبو ظبي ويجب شمول أي برنامج للاعمار لعمان بما في ذلك مدن وقرى سهل الباطنة التي تؤلف سلطنة مسقط نظرا لفقرها المدقع وتأخرها الثقافي والاقتصادي ٠

وقد اهتم مؤتمر القمة العربي الاول بموضوع عروبة الخليج والدفاع عنها ٠

كما ان حكومة الجمهورية العراقية تبدي اهتماما بالغا بمنطقة الخليج العربي وتحرص أشد الحرص على تطوير علاقاتها الثقافية والاقتصادية والاجتماعية والصحية مع هذه الامارات ٠ وقد أعلنت حكومة الجمهورية العراقية بأنها تعتبر نفسها الحارس اليقظ للمحافظة على عروبة الخليج العربي والدفاع عنها مهما كلف الثمن ٠

ويتجه الشعب العربي في الخليج العربي الى العراق والجمهورية العربية المتحدة بصورة خاصة لأجل تحقيق الآمال التي يرغبون في تحقيقها والخاصة بالتحرر من الاستعمار ومن التخلف الاقتصادي ٠ وتقوم حكومة الجمهورية العراقية في الوقت الحاضر بتقديم كافة المساعدات التي طلبتها امارات الخليج العربي لأجل رفع مستواها الاقتصادي والثقافي والاجتماعي والصحي ٠ وقد استقبل العراق في الآونة الاخيرة الكثير من الوفود الرسمية والشعبية الذين اطلعوا على ما يكنه العراق للشعب العربي في الخليج من حب وتقدير ٠

وتشجع حكومة الجمهورية العراقية الحركة الثقافية في الخليج العربي وتمنح الكثير من المقاعد الدراسية في جامعات بغداد والبصرة ويسعدنا أن نجد بين ظهرانينا هذه السنة عددا كبيرا من طلاب وطالبات البحرين في مختلف كليات ومعاهد جامعة بغداد ٠

ان الحكومة العراقية التي تسعى بكل طاقاتها لتطوير منطقة الخليج العربي والتي أكدت في عدة مناسبات بأنها تعتبر الخليج العربي جزء لا يتجزأ من الوطن العربي وانها على استعداد للمحافظة على الوجود العربي والدفاع عن عروبة الخليج ، أكدت كذلك على أهمية تصفية الاستعمار البريطاني تصفية كاملة في الخليج العربي والجنوب المحتل لكي تصبح الامة العربية امة متحررة وموحدة ٠

ومن الضروري جدا التأكيد على استعمال « الخليج العربي » في كل أوجه الحياة العربية العامة ولا نسمح مطلقاً باطلاق أية تسمية اخرى ٠ واننا عندما نؤكد على هذه التسمية لايدفعنا بذلك التطرف القومي بل لأن عروبة الخليج من الامور البديهية والواضحة أما التسميات الاخرى فقد أدخلها الاستعمار الحديث ٠ كما أن التأكيد على استعمال تعبير الخليج العربي يؤلف تأكيدا على عروبة الخليج أمام التحديات الاجنبية والغزو الاجنبي ٠

في معرض الرأي

في التراث العربي

جريا على خطة الاقلام في طرح قضايا الفكر ومواضيع الساعة على بساط البحث والنقاش فقد وجهت للسادة ، الاستاذ كوركيس عواد والدكتور حسين علي محفوظ والدكتور احمد شاكر شلال والاستاذ خالد الشواف ، سؤالا هذا نصه :

ـ لا شك ان على الجيل العربي المعاصر مهمة رئيسة في نشر تراثنا العربي القديم وجعله في متناول ايدي القراء .

ما هو رأيكم في الوسائل المجدية لتحقيق هذه المهمة والتخطيط العلمي الذي يحقق الاهداف الثقافية المرتجاة من نشر التراث ؟

ولقد أجاب الاستاذ كوركيس عواد قائلا :

يتألف التراث العربي ، من عشرات الألوف من الكتب والرسائل التي الفت في مختلف العصور الاسلامية ، وفي شتى الموضوعات .

وما نشر من هذا التراث الحافل ، منذ فجر الطباعة العربية في القرن السادس عشر للميلاد حتى يومنا هذا ، لا يتجاوز بضع مئات من تلك الآلاف المؤلفة من الكتب والرسائل .

أما سائر هذا التراث ، وهو الاغلبية الساحقة ، فانه مازال مخطوطا متواريا عن الانظار ، راقدا في غياهب المكتبات ، بعيدا عن متناول أيدي معظم القراء .

ولا شك في أن بين هذا التراث الخافي على كثير من الادباء والباحثين ، كل نادر ونفيس ومفيد .

ترى ، كيف السبيل الى تقريب هذه الثروة الادبية الطائلة ، من قراء اللغة العربية ، وتقريب انتفاعهم منها ؟

لا شك في ان الجواب ، يمكن ان يلخص بلفظ واحد ، وهو «النشر » .
ولكن هذا النشر لا يتأتى تحقيقه ، الا بعد اجتياز مراحل صعبة من العمل المتواصل .

واولى تلك المراحل ، هي التعرف الى مواطن تلك المخطوطات في المكتبات العامة والخاصة في سائر انحاء المعمورة .

وهذه المخطوطات العربية المبثوثة في تلك المكتبات ، منها ما هو مفهرس ، ومنها ما لا يزال مكتوما عن الباحثين لكونه لم يفهرس حتى اليوم .

ففهارس المخطوطات ، هي المفاتيح الاولى التي تفتح لنا مغالق تلك المخطوطات ، وتعرفنا اين توجد مخطوطة الكتاب الفلاني ؟ وما صفتها ؟

ولا مندوحة للباحثين عن أن يرجعوا الى ما طبع من « فهارس » تلك المخطوطات العربية .

على أن الصعوبة تجابهنا ازاء المخطوطات التي لم تفهرس . ومن هذه المخطوطات ما كان موجودا في دور الكتب العامة ، ومنها ما كان مختزنا في الخزائن الخاصة .

ان كثيرا من اقطار العالم : الدول العربية ، ايران ، الهند ، باكستان ، تركية ، انكلترة ، فرنسة ، هولندة ، المانية ، النمسة ، ايطالية ، الفاتيكان ، اسبانية ، الاتحاد السوفيتي ، السويد ، الدانمرك ، الولايات المتحدة ، قد اهتمت لهذا الموضوع الثقافي الجليل الشأن ، فاولته المزيد من عنايتها . وكان من ثمار تلك العناية ، نشر مئات المجلدات من الفهارس التى تصف مجاميع شتى من تلك المخطوطات .

غير ان هنالك ، اضعاف تلك المجاميع الخطية التي لم تسجلها الفهرسة ، وما زالت مخطوطاتها تنتظر من يعنى بفهرستها اسوة بما نالته نظيراتها .

ولنحدد الموضوع ، في الوقت الحاضر ، بالدول العربية ، في آسيا وافريقية . وكل منها يحرز مجاميع من المخطوطات ، ما زال شيء كثير منها لم يفهرس . وفهرسته ضرورية تتيح للعلماء والباحثين ان يقفوا على ما هنالك من كنوز عربية دفينة .

ثم لا بد من ان يقوم تعاون وثيق بين « معهد المخطوطات العربية » التابع لجامعة الدول العربية ، وبين المجامع العلمية والمؤسسات والمعاهد والجامعات والكليات والمكتبات في سائر الاقطار العربية ، على « تصوير » نوادر المخطوطات العربية ونفائسها .

ان كلا من « الفهرسة » و « التصوير » ، عمل يتطلب بذل المال الوافي وتوفر الأيدي الماهرة التي تعمل على انجازه . فان لم يتيسر هذان الأمران ، لا يؤمن النجاح .

فاذا امكن الحصول على الكتاب ، مخطوطا كان أم مصورا ، تبدأ « المرحلة الثانية » ، وهي مرحلة تحقيق المخطوط .

وينبغي ان يراعى ، لدى تحقيق المخطوط ، الأمور الأساسية الآتية :

١ ـ تقديم نص الكتاب بوجه سليم صحيح ، ما أمكن ذلك .
٢ ـ تعريف نسخ الكتاب الخطية التي تهيأت للمحقق مراجعتها أثناء التحقيق .
٣ ـ التعريف بمؤلف الكتاب .
٤ ـ التعليق على « متن » الكتاب ، حيثما استوجب ذلك ، دون أي توسع أو تزيد في الهوامش .
٥ ـ الحاق « فهارس هجائية » دقيقة بآخر الكتاب ، تيسر الرجوع اليه ، والانتفاع به . وتتناول هذه الفهارس مختلف الاغراض : أسماء الاشخاص ، الأمكنة ، الكتب والمراجع ، الموضوعات ، وغير ذلك مما تقتضيه طبيعة الكتاب .

فاذا تم تحقيق المخطوط العربي ، تبدأ « المرحلة الثالثة » ، وهي « نشر المخطوط » .

ولا بد من القول ، بوجه عام ، انه لدى نشر المخطوطات ، ينبغي العمل على :

١ ـ انتقاء أمهات التآليف العربية التي لم يسبق طبعها ، ونشرها نشرا علميا محققا .
٢ ـ اعادة نشر ما قد طبع سابقا طبعا حسنا ، ونفدت طبعاتها .
٣ ـ اعادة النظر في تحقيق ونشر الكتب التي طبعت سابقا طبعات تجارية رديئة لم تتوفر فيها شروط التحقيق العلمي .

وخلاصة القول : ان من الوسائل المجدية لنشر تراثنا العربي القديم ، وجعله في متناول أيدي القراء ، هو أن تساهم جميع الاقطار العربية ، حكومات وافرادا ، مساهمة مالية فعالة ، في احياء التراث العربي وتقريبه في سائر انحاء المعمورة .

ولا بد من أن يساهم في « تحقيق » المخطوطات ، جماعة من العلماء المتمكنين من الموضوعات التي تدور عليها تلك المخطوطات . ويحسن كثيرا ان يكونوا من مختلف الاقطار العربية ، على حسب الكفايات والقابليات المتوفرة في ابناء كل قطر .

وأن تطبع تلك الكتب طبعا حسنا ، خاليا من الاغلاط المطبعية ، على ورق جيد ، على ان لا يؤدي هذا الامر الى التمادي في رفع اسعار الكتب المطبوعة .

وقال الدكتور حسين علي محفوظ :

تعتز خزائن الكتب في المشرق والمغرب بالوف الالوف من آثارنا الخطية ، في مختلف المعارف من مختلف الازمنة . وليس هذا المجموع الضخم

غير جزء صغير تقدر له أن ينجو من الحرق والغرق والنز والفار والجرذان والارض عد عن الحرب والحوادث والمصائب والفتن والمهلكات ، والجهالة التى أودت بأضعاف ذلك من الفخائر • ولو تهيأ لهذاك الميراث العظيم أن يصل الينا كله لضاقت عليه الارض بما رحبت ، وأغنانا عن كثير من التجارب المعادة المكورورة التى لم يغادرها أسلافنا المتقدمون ولكن كتب علينا نحن أن نعانيها مجددا اليوم •

ولا أدري ؛ ربما نسبت الى الغلو اذا قلت أن وراء كل كلمة من سطور هذه الآثار الباقية كنز من العلوم والفنون والآداب ؛ ما زال يغري الغربيين بالاستشراق ويطمعهم في التشريق •

ومن خصائص تراث جدودنا القيم ؛ انه يعد رسالة الانسان الجامعة ، وذخيرة فلسفة السلف كله • فقد جمعت أوراقه الموجودة نتائج جهاد أجناس البشر جمعاء في سبيل المعرفة والحضارة والعلم • فمن احياه فقد أحيا « الفكر » الانساني المطلق ، ومن خدمه فكأنما خدم الناس جميعا • ورعايته اخلاد لعلوم الروم واليونانيين والفرس والترك والهند •

أما (الاقتراح الجديد) الذى أراه مقدمة لنشر التراث العربي ؛ فهو تأليف فهرس جامع ـ مرتب على حروف المعجم ـ لاسامى مفرداته مع ذكر أوصافها ، وتعيين أمكنتها في الخزائن العامة والخاصة ؛ تلحق به فهارس تفصل أنواعه ، وتبين أقسامه وتوضح فنونه •

وهذا الفهرس الصعب المستصعب ، الذى يعد ـ اذا تم ـ « فهرس الفهارس » هو ملجأ كل من ينصب نفسه لخدمة مواريث اللغة العربية من بعد •

وتحقيق هذا التراث ـ عندى ـ هو اخراج متونه كما كتبها أهلها ان أمكن ، أو أقرب الى صورتها الاولى ؛ اذا استحال الامر الاول •

ولا أريد أن اعدد ـ ههنا ـ ما اتفق عليه من قواعد التحقيق ، واصول النشر ؛ فقد ألفت في بيان مفصلها كتب ، وظهرت في تبيين مجملها رسائل ، ونشرت في التنبيه على أسسها مقالات ربما أحاط بعضها بطرف مما يحتاج اليه من أدوات وآلات ومعلومات • لكني أدعو الى تعظيم ما وصل الينا من آثار آبائنا التي لا أدري ربما خفي على الجيل الذي نحن فيه ان أطراسها الخلقان الصفر هي تمثال ماضينا المجيد ، وبنيان حياتنا القائمة ، وأساس حضارتنا القابلة •

واذا خيل الى بعض الناس أن ينكر على تراثنا ـ معاذ الله ـ جدواه وفائدته ومنفعته فمن ذا الذى يستطيع ان يستغني عما يحفل به من مواضعات واصطلاحات لعلنا احوج الناس اليها ـ الان ـ ان اردنا لحاق الركاب ، وادراك الركب • ولا سيما مصطلح الفلسفة ، والمنطق ، والطب ، والتشريح ، والعدد ، والحساب ، والادوية ، والهندسة ، والنجوم ، والهيئة ، والكيمياء ، والطبيعة ، والنبات ، والحيوان ، والمعادن ، والصناعة ، والميكانيك ،

والموسيقى ، واللحون · ثم هو جزء من تاريخ تطور عقل الانسان تـؤدى المعرفة به الى اكمال سلسلة تأريخ النمو والارتقاء البشرى العام ·

وأجاب الدكتور احمد شاكر شلال يقول :

نحن نشعر شعورا أكيدا بأن العرب قد أسهموا بنصيب وافر جدا في الحضارة الانسانية ، وفي صنوف المعرفة المقومة لتلك الحضارة ·

اذ أننا لا يمكن بحال من الاحوال أن نتجاهل الدور الذي قام به العرب فى تاريخهم بحكم الموقع الجغرافي وبحكم الصلات التي كانت لهم مع الامم الاخرى التي ساهمت في الحضارة البشرية · لقد كان من نتيجة التفاعل الذي حدث بين الحضـارات العربيـة الاسـلامية والرومانيـة والفارسية واليونانية وغيرها أن حمل العرب لواء الحضارة الانسانية فترة غير قصيرة من الزمن ظهرت خلالها في العـالم العربي اثار التقـدم في الحضـارة العربيـة والاسلامية وبدت اصالتها واضحة جلية ·

ان التراث العربي تأثر بشكل واضح بالاسلام من حيث أنه خلق المادة والموضوع لذلك التراث ، ويأتي بعد ذلك دور الاصالة العربية · ولنضرب مثلا لذلك في فن العمارة فالمساجد التي بنيت في بلاد الفرس قدم الاسلام موضوعها ولكن الاثر الفارسي كان واضحا فيها · كما أن الاثر العربي واضح في المساجد التي بنيت في المنطقة العربية وقام عليها فنيون عرب ·

أسهم العرب بصورة أكيدة في أبواب المعرفة الاخرى فألفوا الكتب ونقلوا المصنفات من اللغات المختلفة · ومعروف لدى الناس أن علم الفلك مثلا ألف فيه العرب والمسلمون كتبا كانت هي الاساس لعلم الفلك الحديث وكذلك مؤلفاتهم في الجغرافية وعلوم الطبيعة وعلم الكيمياء ·

هناك ثروة عظيمة من كنوز التراث العربي القديم من واجب هـذه الامة في حاضرها أن تقوم على احيائه والعناية به ، ليس لانه يستحق العناية والرعاية فحسب بل لان هذا التراث يصل حاضر الامة بماضيها ويجعل من هذا الماضي حافزا لان ينطلق الحاضر بخطى أسرع للحاق بركب الحضارة فان هذه الامة ــ كما هو واضح من تراثها ــ كان لها شأن عظيم ، ولكنها تخلفت عن سواها ممن اتخذوا من تراثها ركيزة للسير في طريق الحضارة والتقدم ·

وطريقنا الى احياء هذا التراث يتطلب جهدا كبيرا تتعاون عليه الامة بمجموع أفرادها وعلى مختلف مناحي الاختصاص وذلك بالرجوع :

١ ــ الى فهارس المخطوطات والقيام بعملية المسح المعتادة في مثل هـذا العمل الكبير وتعيين المهم منها لاعطائها الاسبقية في العناية والتعريف والاحياء ولا ننسى أن الكتب العربية سبق لها أن نشر بعضها ولكن النشر لم يكن يدل على العناية والاهتمام فظهرت بحالة تستدعي اعادة النظر فيها ليمكن تجديدها بحيث تظهر كتبا مشوقة أنيقة بلباس حديث جديد ·

٢ ـ والشيء الآخر أن تعاد كتابتها بحيث تحتمل تطور العصر وتطور اللغة وهو أمر فيه تجوز على أمانة النقل الا أن ذلك لا يمنع من جعلها في باب التفسير والتوضيح بحيث تكتب صفحة منها كما وردت وبالاسلوب القديم في مقابل صفحة أخرى باسلوب حديث مهضوم ٠

ان تبسيط التراث والتعريف به ولفت النظر الى مواطن الجمال والروعة فيه أمور كلها في صميم الواجب المترتب على عاتق أبناء هذه الامة وعلى المثقفين منهم بوجه خاص ٠

وقال الاستاذ خالد الشواف :

ـ كنت أتمنى أن يحور السؤال الى الشكل التالي (ما هي ـ في رأيكم ـ الوسائل المجدية لتحقيق هذه المهمة ٠٠ الخ ٠٠) ليتسنى لي تحديد ما أعتقد انه كفيل بتحقيق هذه المهمة من الوسائل المجدية ، وفي مقدمتها ايمان المسؤولين عن وزارتي الثقافة والارشاد والتربية والمهيمنين على المجامع العلمية والجامعة ـ بكلياتها المتفرقة ـ بضرورة العمل على نفض ركام التراب عن المخطوطات العربية المتوارية في زوايا المساجد والتكايا والمكتبات العامة والخاصة ، ودفعها الى أيدي المحققين واغرائهم بالمساعدات المادية والادبية للقيام بتحقيقها تحقيقا علميا أمينا ، ومن ثم دفعها الى المطابع لاخراجها بشكل أنيق يجتذب نظر القارىء وييسر له الحصول عليها بأثمان زهيدة . ولا يتحقق ذلك بالطبع ما لم ترصد الجهات المسؤولة مبالغ كافية لتغطية نفقات هذا المشروع الكبير ، وفيما يتعلق بالتخطيط العلمي الذي يحقق الغاية من نشرها ، ينبغي قيام نوع من الاتصال بين الجهات المعنية باحياء التراث في البلاد العربية ، ضمانا لقيام كل جهة بتحقيق عدد من الكتب المتوفرة لديها وعدم بعثرة الجهد في تحقيق بعض الكتب تحقيقات متكررة وصرف الجهود الى ما لم ينصرف اليه التحقيق بعد بتنسيق فعاليات الجهات المتوفرة على هذا العمل تنسيقا متكاملا ٠ وأعتقد ان وزارة الثقافة والارشاد في العراق ـ بتأليفها لجنة لاحياء كتب التراث العربي ـ تضم نخبة من أفاضل المحققين والادباء ، وباتصالها بالجهات المسؤولة لرصد المبالغ الكافية للقيام بهذه المشاريع ، وبالتفاتها الى عدد من الكتب واعلانها عن رغبتها في تحقيقها ودعوتها لكل من يود المساهمة في هذا العمل ، قد خطت خطوة اولى في هذا المجال ٠

فن السيرة

الدكتور ماهر حسن فهمي

ترجع جذور الترجمة الى فكرة البحث عن الخلود ، ومنذ خمسة آلاف سنة ، ترك المصريون القدماء في مقابرهم تذكار شهرتهم مع رموز ثروتهم ، ليضمنوا مرورهم الآمن الى الخلود • وليس ذلك بالترجمة حسب المفهوم الحديث ، لأنهم لم يحاولوا وصف شخصياتهم وحياتهم الجارية ، ولكن هدفهم كان يدور في دائرة السيرة ، لأنهم أرادوا أن يصونوا في الأرض وفي السماء مجد أفراد معينين •

ما الفارق اذن بين الترجمة وبين التاريخ ؟ الواقع أن هناك نوعاً من المزاوجة بين السيرة أو الترجمة وبين التاريخ ، فالفرد يصنع التاريخ وكذلك القوى الاجتماعية ، ولنقص حياة انسان ، ينبغي أن نقول شيئا عن المسرح الذي مثل عليه قصة حياته • وعمل كاتب الترجمة كما يقول (Muzzey) هو أن يحصى ناتج القوى التي تتكون من الشخصية ومشاكل العصر ، بمعنى أنه لايعالج حقائق الحياة وحدها ، بل يصف الرجل نفسه أيضا ، شخصيته وأخلاقه وتفرده ، لأن الناس مغرمة بالناس وذلك هو ما يجعل كتابة السيرة منهجا مستقلا عن التاريخ •

وأحسن كتاب الرواية قد تفوقوا في أكثر الاحيان على كل كتاب التراجم السيرة في الك كبيرة ، لأن في يديه أن يحيل الميت الى حي وأن يهبه على من يعالج حياة الناس من كتاب السير • ولذلك فمن الطبيعي أن يكون للرواية تأثير عظيم على السيرة • والسر في نجاح الروائي يكمن في خياله غير المقيد ،فربما يخلق ما يبدو له من شخصيات معقدة ولكن تعقيد هذه الشخصيات لا يتجاوز الحدود التي يرغب فيها مبدعها ، ولكن كاتب السيرة مقيد بما لديه من البينات التي يستخرج منها جوهر موضوعه ، ولديه أيضا أفضلية الحقيقة ، وغالبا ما يفتقر الى العناصر الحية لما يحاول أن يعيد بناءه من تاريخ الحياة • والروائي يستطيع أن يستخدم الخيال كما يشاء ، ولكن خيال كاتب السيرة ممسوك الزمام ، لأن السيرة هي اعادة تقديم صورة

لحياة انسانية ، وتحليل صدماتها من خلال أعمالها ومن خلال العالم الذي عاشت فيه ، وكل كتاب السير ينبغي أن يكونوا علميين فيما ينشدونه من الحقيقة وما يعتمدون عليه من تحقيق للأدلة والشواهد ، وفي نفس الوقت ينبغي أن يكونوا فنانين لأن عرض الملامح أمر جوهري ومسئولية كاتب السيرة في ذلك كبيرة ، لان في يديه أن يحيل الميت الى حي وأن يهبه الخلود ٠

استفاد فن التراجم من هذه الصلة القوية بينه وبين الفن الروائي كما قلنا ، خاصة في أيامنا هذه فأكثر التراجم الغربية تستخدم ذلك المنهج الروائي لأنه يسمح بملء الثغرات التي يقابلها كاتب السيرة بعنصر الخيال القصصي ، والفرق بين هذه التراجم والقصص كما تقول (Mrs. Stern) « أن القصاص يكتب الأفكار والحوار الذي كان يحدث لو أنه بطل القصة ، أما كاتب السيرة الروائي فيكتب الأفكار والحوار الذي يعرف أن البطل أداره من خلال الاثباتات التي جمعها » ، وقد علم المسرح كتاب السير قيمة الحوار في تصدير الشخصيات والتمثيل الحي والتفاصيل الشخصية في عرض الحقيقة عن طريق تجميع كثير من الدقائق الصغيرة في وحدات منطقية ، كما حاولوا الاستفادة من علم النفس في تشريح داخلية الانسان الذي يترجمون له ومن هنا ظهرت «النجوى» في السير المعاصرة ، خاصة بعد أن طبق « فرويد » نظرياته على التراجم مع بعض مريديه ، حتى لقد قال (H. Ellis) « ان الترجمة هي فرع من علم النفس التطبيقي ٠ » ولكن الحقيقة أن القصاصين والفرويديين قد نسوا أن الترجمة ينبغي أن تقام على التسجيلات الموثوق بها ، والتي تكاد تنحصر في التراجم الشخصية والمذكرات والخطابات الخاصة والانتاج الفني على وجه الخصوص ثم المخلفات الشخصية ٠

ومن المؤكد أن البطل اذا كان قد حكى قصة الشخصية فقد قدم خدمة كبيرة للكتاب ، ولكن من المؤكد أيضا أنه يستحيل أن يقول انسان كل الحقيقة عن نفسه ، وقد كان أحمد أمين صريحا مع نفسه ومع قرائه حين اعترف ان كتابه « حياتي » لا يصور كل الحقيقة وان كان كل ما فيه حقيقة ٠ ومن الواجب أن نتساءل لماذا كتبت هذه الترجمة الشخصية ؟ وكيف كتبت؟ لأن التذكر للماضي لايمكن أن يكون عملية سلبية ، فالذاكرة تحتاج الى أن تنشط وتتطبع بحالة الكاتب وقت تسجيله لماضيه ٠ ومن الممكن أن يقول الانسان كل ذكرياته عن طفولته ولكن عندما يدخل في سن الرجولة فسان الاحساس بالمسئولية يفرض قيوده ، ومن هنا كان من المهم جدا أن يقابل كاتب السير بين مادة الترجمة الشخصية وبين غيرها من المصادر خاصة اذا حاول كاتب الترجمة الشخصية أن ينصف نفسه أكثر مما حاول أن يكون أمينا ودقيقا ٠

وقد تكون اليوميات والمفكرات أكثر ثقة من التراجم الشخصية ،

فهي تكتب دائما في أوقات ألصق بالأحداث التي تصفها ، ولذلك فهي أقل عرضة لآفة التذكر الناقص • وكتاب التراجم الشخصية نادرا ما يكونون أمناء في تدوين أفكارهم الحمقاء ومخاطراتهم الفاشلة ، ولكن اليوميات تسلم أقلامهم للورق قبل أن يدركوا اخطاءهم • وبالرغم من أن اليوميات ينقصها عادة التكامل الموجود في التراجم الشخصية، وبالرغم من أنها كثيرا ماتحتوي على أشياء سطحية في الحياة ومضجرة ومكررة ، فانها دائما تكشف الكثير عن كتابها • والتفصيلات الصغيرة التي قد تضجر السامع ، والمساحات الكبيرة المخصصة للأمور التافهة ، والأشياء التي ليست لها أهمية تاريخية هي أشياء حيوية عند كاتب الترجمة • فاليوميات في الواقع تسجل تطور الشخصية في بعض جوانبها •

واذا كان الكثيرون لايكتبون تاريخهم في شكل تراجم شخصية ولا في صورة يوميات ، فان كل الناس يكتبون الخطابات وهي تحكي كثيرا عن الحياة بطريقة مباشرة أو غير مباشرة • وكاتب الخطابات مرتبط بالحاضر ربما أكثر من كاتب اليوميات ، فهي تظهر المرء في شكل من التفاعل مع معاصريه ، ولذلك فهي تقدم داخليات الشخصية أكثر من أية وثيقة شخصية أخرى • ومن الطبيعي أن خطابا من رجل الى زوجته يختلف عن خطاب خاص بالعمل ، وكلما كان الخطاب مرسلا من الكاتب الى شخص وثيق الصلة به ، كلما كان أكثر فائدة •

يقول الناقد الانجليزي (R. Rait) : « عندما يكتب المرء لصديق شديد الصلة به فانه يقول أشياء لا يقولها للمطبعة ، ولكنها ليست بالضرورة آراءه الحقيقية ، فانها غالبا ما تكون تخيلات موقوتة » • وينبغي أن يقف كاتب الترجمة ليسأل نفسه : ما هي بالضبط الصلة بين صاحب الترجمة والشخص الذي يكتب له الخطاب ؟ والاجابة عن هذا السؤال لها فائدتان : الاولى أنها تساعد كاتب الترجمة على أن يدرك أهمية الخطاب نفسه وتلك قيمة تاريخية ، والثانية أنها تزيد ادراكه لشخصية الكاتب ، وتلك قيمة نفسية • ولكن الخطابات مثل الوثائق الشخصية الاخرى ، يمكن أن تكون مضللة ، وهي خطيرة على وجه الخصوص اذا استخدمت فردية وحاول كاتب السيرة أن يبني عليها أمورا هامة •

وقد أدخلت الآلة الكاتبة شخصا ثالثا بين الكاتب والقارىء — ربما كان سكرتيرا — وأصبح الوضع شديد الاختلاف عنه حين كان الكاتب يمسك بقلمه ليبوح بأفكاره واثقاً أن قارئها هو المقصود وحده ، فالخطاب المكتوب على الآلة الكاتبة نادرا ما يكون شخصيا في الحقيقة وان كتب على غلافه «شخصي» • والى جانب ذلك فالخطابات على الآلة الكاتبة عرضة للمراجعة بين الوقت الذي يملى فيه والوقت الذي يوقع فيه ، وما كتب باندفاع يمكن أن يقوم • ثم ان الآلة الكاتبة قد زادت من حجم البريد ، وعندما تكثر الخطابات التي تحتاج الى ردود من رجل مشهور فان سكرتيره

يقوم بالمهمة ، وهو لايصنع أكثر من القاء نظرة خاطفة عليه عند التوقيع . وقد قرب «التليفون» موت الترجمة السياسية الحية بخلاف ما يرى - احسان عباس - لأن السياسي لم يعد يكثر من خطاباته فهو يستخدم المسرة ، ثم يستخدم الطائرة في السفر للمحادثات بعد أن قربت المسافات ، ولذلك فالموضوعات التي يعبر عنها عن طريق الخطابات محدودة على ما فيهما من نقص في التعبير الصريح لتدخل السكرتيرين . ولكن الخطابات مع هذا تبقى لها أهمية حيوية ، وتستطيع أن تجيب عن كثير من الاسئلة الخاصة بفهم الشخصية .

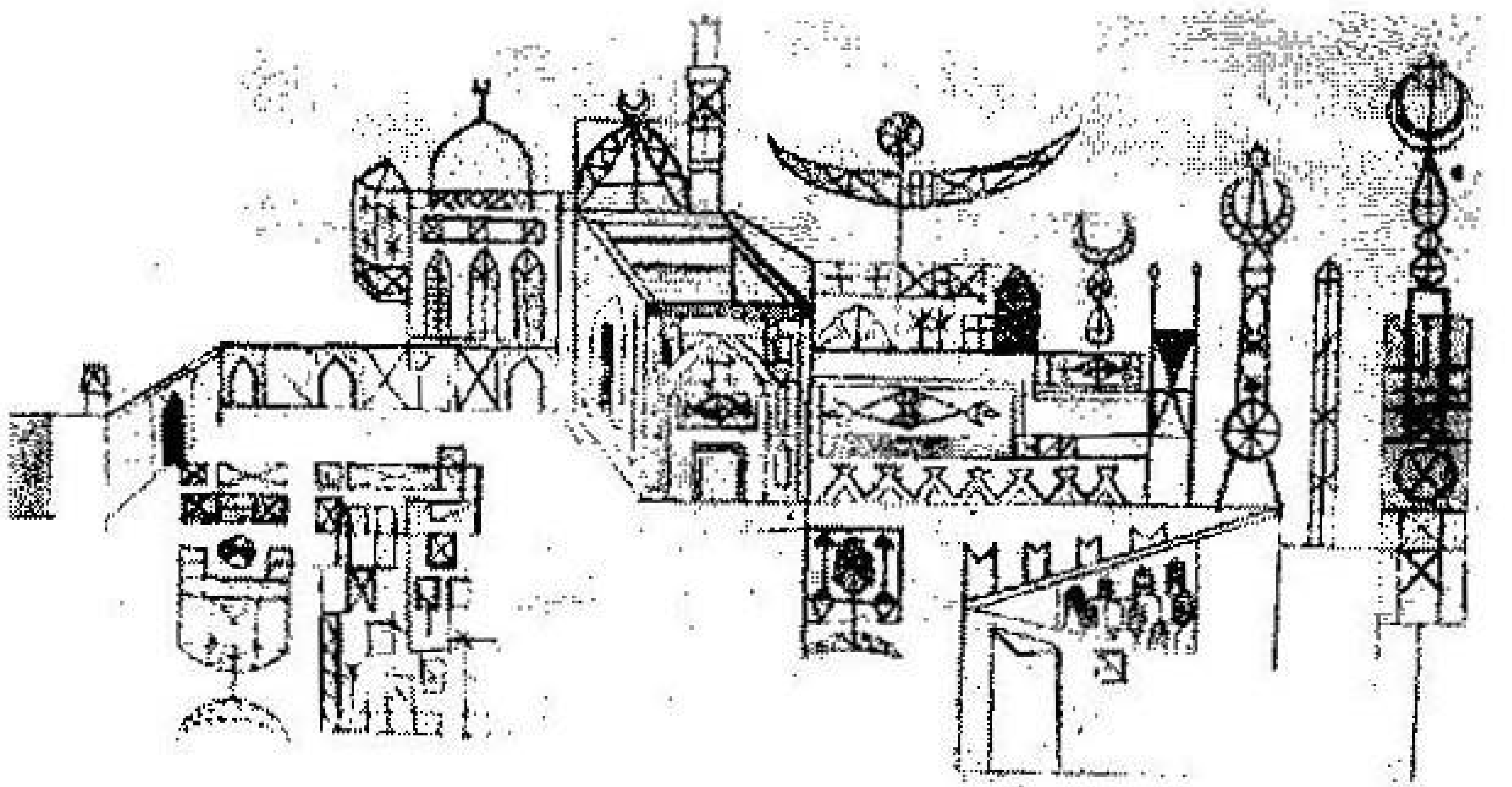
والانتاج المطبوع يعطي كاتب الترجمة كثيرا عن المترجم له ، خاصة الكتب الأدبية . ورجال السياسة ان لم يتركوا كتبا ، فقد تركوا خطبا ، وحتى غير الادباء في كثير من الاحيان ، قد اتصلوا بالصحف بوسيلة أو أخرى . ومن الطبيعي أن كاتب الترجمة ينبغي أن يقرأ انتاج صاحب الترجمة ، واذا كان (Maurois) لم يلتفت الى شعر شللي كثيرا ، فان كاتب السيرة لايمكن أن يعتبره قد وصل الى الحقيقة كاملة . وقد كان «شاتوبريان» دقيقا حين قال « ان الكتاب الكبار يضعون تاريخهم في أعمالهم، ولا يصورون شيئا تصويرا جيدا كما يصورون قلوبهم .» فنوع الأمثلةالتي يستخدمها ليصدر آراءه ربما ساعدت على فهم ماضيه ، وأسلوبه وانتقاءه لموضوعاته كلها تعين على ادراك بعض جوانب الشخصية . ومن المؤكد أن انتاج طه حسين يختلف عن انتاج العقاد وأسلوبهما أشد اختلافا ، وأسلوب العقاد المتجهم صورة من شخصيته كما أن أسلوب طه حسين الفني الشديد الالحاح صورة من شخصيته أيضا .

ومخلفات الفرد الاخرى مع مظهره الفيزيقي يمكن ان تعين على فهم الشخصية . ذوقه في ملابسه ، أثاثه ، كتبه كلها لها دلالاتها . وتعليقات أعضاء أسرته في غاية الأهمية لكاتب السيرة مثل المذكرات المكتوبة ، ومن ناحية أخرى فان تعليقات أعدائه لها قيمتها في ابراز بعض الجوانب الخفية وحفظ التوازن في كتابة السيرة .

ومن المؤكد بعد هذا أن الدراسة الطويلة وحدها لا تقود الى فهم الشخصية ، فان شخصية الفرد شديدة التعقيد والتنوع دائما ، ولا تفهم الا بمجهود كبير ، وكم كان دقيقا (D. Malone) حين قال : « ينبغي أن تعيش مع الشخصية في الخيال مدة كافية ، حتى تفهم منها انطباعاتها وتدرك مكوناتها . »

والسؤال الذي يبقى بعد ذلك يدور حول منزلة السيرة في المجتمع الحديث وأهدافها . ومن الحق أن التراجم قد كثرت كثرة كبيرة بعد ظهور الرومانتيكية في أوربا ، فقد منحت الفرد أهمية خاصة بل بلورت الحياة حول الفرد - ولكنا رأينا أن ظهور المذاهب المادية التيجعلت الاقتصاد محور التطور لم تنقص كثيراً من قيمة الفرد باعتباره حركة ديناميكية في

عملية التطور أيضا • واذا كان المجتمع الآن قد أصبح اشتراكيا ، ولم يعد الفرد هو صانع التاريخ ، بل أصبح المجموع هو الموجه ، فان الاشتراكية نفسها لم تحاول أن تلغي قيمة الفرد في المجتمع • كل ما حدث أن فن التراجم انفصل عن التاريخ وأصبح مستقلا بذاته تماما كالقصة أو المسرحية وله دوره الفعال في تشريح النفس الانسانية وفي بناء الانسان • ومن هنا لم تعد نقبل تقديم المثل باعتبارها الهدف الأول في السيرة ، واذا كانت السيرة العربية قد ارتبطت بهذا المعنى زمنا ، منذ أن كتبت سيرة الرسول ، فلم نعد في عصرنا هذا نقصد الى ذلك المعنى أول ما نقصد ، وانما نقصد الى الحقيقة في ذاتها أولا والى التفسير والتشريح أو التحليل ثانيا ، وان كان وراء كل هذا ما يغرس الثقة في النفس الانسانية حين ندرك أن دور كل منا يجب ألا يمر يائسا خاملا ،على الرغم من النهاية المحتومة في قصة الحياة •



نشيد إسلامي

خالد الشواف

نحن جند الهدى واليقين   وحمـــاة التراث الثمين

قد حملنا الـكتاب المبـــين
وطلعنـــا على العـــالمين
نعمر الأرض دنيـــا ودين
مثـــل آبائنـــا الأولين

نحن جند الهدى واليقين   وحمـــاة التراث الثمين

نحن للخـــير في كل واد
نحن للعـــدل بين العبـــاد
لبنـــاء رفيـــع العماد
فوق علم وخلق متـــين

نحن جند الهدى واليقين   وحمـــاة التراث الثمين

خانت الأرض عهد السماء
وارتمت في دياجي الشـــقاء
سوف نسعى لهـــا بالضياء
من سنى ســـيد المرسلين

نحن جند الهدى واليقين   وحمـــاة التراث الثمين

ديننا العبقري الأغـــر
منقـــذ العـــالم المنتظر
سوف نأسو جراح البشر
يوم تدعو به مخلصـــين

نحن جند الهدى واليقين   وحمـــاة التراث الثمين

ديننا فجر هذا الظـــلام
فجرنا مشـــرق بالســـلام
غـــدنا حلم هـــذا الأنام
سوف يزهو بنا بعـــد حين

نحن جند الهدى واليقين   وحمـــاة التراث الثمين

التراث الخلقي في أيام العرب

هاشم طه شلاش

نقصد بأيام العرب تلك الوقائع والحروب التي وقعت بين العرب انفسهم وبينهم وبين الامم الاخرى والتي كانت مظهرا من مظاهر الكرامة والخلق العربي لما ظهر خلالها من تقاليد ومثل كانت صفة لازمة للعربي على مر العصور من وفاء بالعهد وانتصار للمظلوم وحماية للجار وصبر في القتال ودفاع عن الحرمات واجارة للمستجير .

ولقد افتخر العرب بأيامهم هذه في اوقات جدهم ولهوهم حتى أنها كانت تدور على ألسن الناس في مجالس السمر فهي خير ما يلائم روح العربي الذي يفرح اذا ما تحدث الناس عن مجد آبائه وأجداده . روى النويري : « قيل لبعض الصحابة (رض) بما كنتم تتحدثون به اذا خلوتم في مجالسكم ؟ فقال نتناشد الشعر ونتحدث بأخبار جاهليتنا(١)

ولقد كان لتلك الايام الاثر الكبير في حياة العرب فهي صورة رائعة لمجد الآباء والاجداد ومثال بديع للتراث الاخلاقي العربي الذي خلفه الآباء لابنائهم ليفخروا به امام غيرهم من الامم ، لذلك احتفظوا باخبارها يعلمها الكبير للصغير لتكون سبيلا تتبعه الاجيال لتسير بهديه على مر الأزمان .

ولقد كان الثار سببا هاما في اشعال تلك الحروب اذ بلغ من كلفهم به انهم كانوا يتجافون النساء والخمر والطيب لانها ضرب من التنعم والبهجة لا يليق بحزين موتور أو لأنها قد تلهي وتشغل عن الجد في الثار(٢) فقد قال المهلهل بن ربيعة في حرب البسوس بعد مقتل أخيه كليب :

خذ العهد الاكيد علي عمري ... بتركي كل ما حوت الديار
وهجري الغانيات وشرب كاس ... ولبسي جبة لا تستعار
ولست بخالع درعي وسيفي ... الى ان يخلع الليل النهار
والا أن تبيد سراة بكر ... فلا يبقى لها أبدا اثار

وقد جاء في الأيام ان المهلهل جز شعره وقصر ثوبه وآلى على نفسه الا يهتم بلهو ولا يشتم طيبا ولا يشرب خمراً ولا يدهن بدهن حتى يقتل بكل عضو من كليب رجلا من بني بكر بن وائل (٣) .

وحث بني تغلب على الأخذ بالثأر فاشار اليه أكابر قومه أن لا يعجل بالحرب لما في ذلك من نتائج وخيمة تجر الويلات فأجابهم المهلهل « والله لا تحدثت نساء تغلب اني أكلت لكليب ثمنا ولا أخذت له ديه »(٤) .

وقد ذكرت الاخبار عنه انه كان « لا يهم بصلح ولا يشرب خمرا ولا يحل لأمته ولا يغتسل بماء حتى كان جليسه يتأذى من رائحة صدأ الحديد»(٥) وكان يخاطب البواكي من نساء تغلب ان يستبقين عيونا تبكي الى آخر الابد(٦) .

وليست الحادثة التي ذكرناها فريدة في تاريخ العرب ففي الايام صور عديدة في التزام الثأر وعدم التفريط به ، وليست قصة حجر الكندي بغريبة على الاذهان فكتب تاريخ الادب تضع أمامنا صورة جلية وصريحة تجسم لنا مدى تمسك امرىء القيس في الثأر لدم أبيه ومدى تحمله المصاعب بعد ان انفض عنه قومه ومعارفه .

تروي كتب الادب ان امرأ القيس قال بعد ان سمع بمقتل أبيه « ضيعني أبي صغيرا وحملني دمه كبيرا لاصحو اليوم ولاسكر غدا اليوم خمر وغدا أمر » ثم شرب سبعا فلما صحا آلى على نفسه الا يأكل لحما ولا يشرب خمرا ولا يدهن بدهن ولا يصيب امرأة ولا يغسل رأسه من جنابة حتى يدرك ثأره »(٧) وقد قال بعد ان خيروه في ان يختار أشرف بيت « لقد علمت العرب ان لا كفء لحجر في دم واني لن اعتاض به جملا أو ناقة فاكتسب بذلك مسبة الابد وفت العضد»(٨) .

وكان من اسباب تلك الحروب ذلك النظام القبلي الذي جعل العصبية القبلية تتأصل في نفوس العرب فترى العربي يثور اذا ما ألم به الضيم أو بأحد ممن ينتمي الى قبيلته . وكان من اسبابها ما تأصل في النفوس العربية من الاسراع الى النجدة اذا ما دعا الداعي الى ذلك وكان شعارهم انصر اخاك ظالما أو مظلوما ، ومن يتخلى منهم عن نصرة قريبه أو المستجير به يعير ويعاب وربما عير الشاعر قبيلته كلها من جراء تخليها عن نصرته(٩) .

ولقد كانت اجارتهم للمستجير والمحافظة عليه وعلى عياله أمرا لا يمكن التساهل فيه ، وكانت نفوسهم جاهزة للفداء في هذا السبيل فشرف الغير شرفهم وبنات الغير بناتهم والتفريط بهذا الشرف تفريط بشرفهم انفسهم . ولا شك ان جواب هاني بن مسعود الشيباني ــ حين أجار النعمان وبناته ــ جواب رائع يعلق بالأذهان حين قال له « هن في ذمتي لا يخلص اليهن حتى يخلص الى بناتي »(١٠) وأروع منه جوابه لكسرى حين طلب منه تسليم

ما يذمته من مال ونساء حيث قال « أنا رجل استودع أمانة فهو حقيق أن يردها على من أودعها اياها ولن يسلم الحر الامانة »(١١) .

ولقد فضل هاني بن مسعود الحرب على ان يسلم أمانة مقدسة متعلقة في عنقه تعلق الروح بالجسد لذا فضل الموت في الحرب على ان يتحمل الهوان والذل ولذلك قال « ان كل أمر يجمل بالرجل انيكون عليه الا انيكون بعد الملك سوقة والموت نازل بكل احد ولان تموت كريما خير من ان تتجرع الذل »(١٢) وقوله من خطبة يشجع فيها قومه على مجابهة الاعداء « يا قوم مهلك مقدور خير من نجاء معرور وان الحذر لا يدفع القدر وان الصبر من أسباب الظفر المنية ولا الدنية »(١٣) .

وكان من اسبابها دفاعهم عن الحريم اذ ان العربي غيور بطبيعته على بناته وأخواته ونسائه ونساء قبيلته ، وغيرة العربي هذه لا تزال مجسمة في تقاليدنا وعاداتنا في الوقت الحاضر وما غسل العار الذي نسمع عنه دائما الا نتيجة حتمية لهذه الغيرة ، لذا رأينا العربي يثور لاقل سبب يسيء الى نساء القبيلة ، فكان لزاما عليه المحافظة عليهن والتضحية بكل غال ونفيس في سبيل ابعاد ما يسيء اليهن . جاء في الايام ان بني عقيل بن كعب وبني الحارث بن كعب كانوا حالين بصيهد (موضع بين اليمن وحضرموت) وفي عشية جاء فتيانهم يلعبون وبرزت لهم فتيات ينظرن اليهن فبصر رجل من بني الحارث برجل من بني عقيل يومض بامرأة من قومه فأخذ رمحا وطعن به العقيلي في فيه فوق نابه وشق لثته »(١٤) .

ومما يروى ان عمر بن هند قتل تسعة وتسعين رجلا من بني دارم ورماهم في النار ثم تحلل بامرأة منهم لاكمال المائة فسألها عن زوجها ومكانه فأجابته « هذه كلمة أحمق لو كنت أعرف مكانه حال بينك وبيني »(١٥) .

وتذكر الايام كذلك ان عمليقا كان ملكا على طسم وجديس وكان قد أمر الا تزوج بكر حتى يراها هو قبل زوجها حتى زوجت الشموس فحملت الى الملك ثم خرجت الى قومها شاقة درعها وهي في أقبح منظر وهي تقول :

أهكـــذا يفعـل بالعـــروس	لا أحـــد أذل مـن جديس

وقالت تحرض قومها :

أيجمـــل ما يؤتى الى فتياتكـم	وانتم رجال فيكم عـدد النمـل
ولو اننا كنـــا رجـالا وانتـم	نساء لكنـــا لا نقـر بـذا الذل
فموتوا كراما أو أميتو عدوكـم	ودبوا لنار الحرب بالحطب الجزل
وان انتم لم تغضبوا بعـد هـذه	فكونوا نساء لا تعاب من الكحـل
ودونكم طيب العـروس فانمــا	خلقتم لاثواب العروس وللنسل
فبعدا وسحقا للذي ليس دافعـا	ويختال يمشي بيننا مشية الفحل

فلما سمع الاسود أخوها .. عمل لعمليق دسيسة فقتله(١٦) .

والشواهد على هذه القيم والمثل والاخلاق العربية تطفح بها الايام وايرادها كلها يملأ كتابا لذا آثرنا الاكتفاء بهذا المقدار الذي اعطانا صورة لا بأس بها للتراث الاخلاقي العربي الذي تمثل ببعض الجوانب من الشخصية العربية ، ذكرناها على سبيل التمثيل لا الحصر ، ولا بأس ان نشير الى ان هناك جوانب أخرى تتعلق بالوفاء بالعهد والصدق والانتصار للعشيرة وحماية الجار والصبر في القتال ولا غرابة في ذلك اذا ما علمنا ان الايام مرآة صادقة لاحوال العرب وعاداتهم وأسلوب حياتهم تظهر من خلالها فضائلهم وشيمهم واخلاقهم .



(١) نهاية الارب للنويري ج ١٥ ص ٣٣٨ .
(٢) الحياة العربية من الشعر الجاهلي الحوفي ص ١٧٠ .
(٣) ايام العرب في الجاهلية جمع محمد احمد جاد المولى وجماعة من الاساتذة ص ١٥٢ .
(٤) المصدر السابق ص ١٥٣ .
(٥) المصدر السابق ص ١٦٦ .
(٦) المصدر السابق ص ١٥٠ .
(٧) المصدر السابق ص ١١٦ .
(٨) المصدر السابق ص ١١٨ .
(٩) الحياة العربية من الشعر الجاهلي ص ١٧٠ .
(١٠) أيام العرب في الجاهلية ص ٢٣ .
(١١) المصدر السابق ص ٢٥ .
(١٢) المصدر السابق ص ٢٣ .
(١٣) المصدر السابق ص ٢٥ .
(١٤) المصدر السابق ص ٨٩ .
(١٥) المصدر السابق ص ١٠٤ .
(١٦) المصدر السابق ص ٣٩٦ .

الهمسة الخرساء

نعمان ماهر الكنعاني

يا أهيل الوداد في الزوراء … أيّ شوق به يحار النائي

أيّ وجد يغالب الصبر طاغ … حملته مشبوبة الأحشاء

طال عهد النوى وطيف الأماني … كفّ حتى عن خاطف الايماء

يا أهيل الوداد لو تسألون الـ … ورق عما تخفيه من برحاء

ألفت سهدها العيون وباتت … لا تريد الصباح للاضواء

وتناجي الأطياف مضطربات … للذي كان من طويل التنائي

حجج أربع وما للاماني … غير آه وهمسة خرساء

كم دعونا فيها الديار فصمّت … مسمعيها عن مستثير النداء

وشربنا من مرّها واحتملنا … ما لقينا في أمرها من عناء

وكتمنا التي بها يندم الساري … على عزمة السرى والمضاء

واحتسبنا وللعقيدة صوت ... هاتف بالاباء والكبرياء

وارتضينا ما لم نرد وجنحنا ... لاعتزال حتى من الاصفياء

وسكتنا على الجفاء وما كان ... به من ملالة الخلصاء

ذاك لما طال المسير ولما ... نستبن لامعا من اللئلاء

يا اهيل الوداد لست اناجيكم ... حنيننا الى الليالي الوضاء

فلقد أنست النوى ما نعمناه ... ليالي الاضواء والاشذاء

وطوينا ما كان من ذكريات ... عامرات بالزهو والخيلاء

انها للديار نجوى قصي ... انها للملاعب الخضراء

للنخيل المياد في جنبات الـ ... شط يروي شعر الهوى للمساء

للنسيم الخفاق تحمله الشمأل ... نحو الرصافة الزهراء

للهجير الغضبان يقسو على الكر ... خ ويستل وقدة الرمضاء

لليالي كانون قد جمّدتها ... خافقات الرياح والانواء

للظهيرات لافحات بتموز ... وجوه الظلال والافياء

انها لا سلوتم حرقة النائي ... وهمس الاشواق للاحشاء

حملتها اليكم خاطرات الريح ... نجوى ، نجوى ليوم اللقاء

في كانون اول ١٩٦٢

التفعيلة في الشعر العربي

الدكتور حسين نصار

لست أريد بهذا الحديث دفاعا عن الشعر الحر أو هجوما عليه أو مشاركة في خصومة ، وان كان بعض الناس قد يجد فيه هذا أو ذاك ، ولكنني أريد أن ألقي الضوء على قضية واحدة من قضاياه ، ربما كانت أهم قضاياه ، ولكنني تهمني في ذاتها : تلك هي قضية الوزن في الشعر الحر أو التفعيلة ، وما اتصل بها من آراء .

ويرى رواد الشعر الحر انه « ظاهرة عروضية قبل كل شيء ، ذلك أنه يتناول الشكل الموسيقي للقصيدة ، ويتعلق بعدد التفعيلات في الشطر ، ويعني بترتيب الاشطر والقوافي ، واسلوب استعمال التدوير والزحاف والوتد وغير ذلك مما هو قضايا عروضية بحتة »(١)

ويحاولون أن يفرقوا بين الشعر الحر وما سبقه من شعر عربي ، فيذكرون أن الشعراء العرب تقيدوا بنظام البيت منذ أقدم العصور ، ويعتمد البيت على الشطرين المتساويين في عدد التفعيلات ، فقوام الشطر الواحد فيه أما تفعيلتان كما في الهزج والمضارع ، أو ثلاث تفعيلات كما في الكامل والسريع ، أو ربع تفعيلات كما في المتقارب والبسيط .

ويطلقون القول بأن الشعر العربي كله التزم التسوية بين أطوال الاشطار ، ولم يعدل عنها البتة .

وينتقلون الى الشعر الحر فيصرحون أنه يعتمد على التفعيلة ، ولا يقسم البيت الى شطرين بل كل سطر منه بيت ، ولا يلتزم التسوية في الطول بين بيت وبيت بل يشتمل كل منها على عدد مختلف من التفعيلات بشرط أن تكون التفعيلات واحدة ويصرحون ان تلك ميزة ينفرد بها الشعر الحر عن الشعر العربي السابق كله .

ولما أطلقوا القول هذا الاطلاق ، اضطروا الى شيء من الاستثناء فيه ، غير أنهم ضعفوه وحقروا من شأنه . فذكروا أن الشاعر العربي عرف نظام

البيت القائم على الشطر الواحد في الاراجيز المقفاة أشطارها كلها • وذكروا أن الموشحات لم تلتزم التسوية بين الاشطار بل جعلت الشطر الاول يطول أحيانا • ويقصر الشطر الثاني ، مع المحافظة على عدد التفعيلات في عامة البيت •

ووقف بعض رواد الشعر الحديث(٢) عند البند من الشعر العراقي الشعبي ، وجعلوه شعرا حرا تتنوع أطوال أشطاره ، ويرتكز الى دائرة المجتلب ،مستعملا منها الرمل والهزج ، وهما يتداخلان تداخلا فنيا مستندا الى قواعد العروض العربي • ورأوا البند الفن الشعري الوحيد الذي يقرب من الشعر الحر ويقوم على أسس شبيهة بأسسه •

ولكن هذا القول يقوم على تجاهل من قائليه لكثير من الفنون الشعرية الشعبية والفصيحة قامت على الاسس نفسها ، وازدهرت في المجتمع العربي مدة ، ثم تراكم عليها غبار السنين فأخفاها عن بعض العيون • ولكنها — على خفائها — جديرة بالدراسة والابراز •

فقد ابتدع أهل بغداد في العصور العباسية فنا شعريا شعبيا خاصا للحكايات والخرافات والمراجعات ، سموه « الكان وكان » • فانتشر انتشارا واسعا ، كسب له اعجاب الشعراء باللغة الفصيحة • فالتقطه جمال الدين بن الجوزي ، وشمس الدين محمد الواعظ ، وشمس الدين ابن الكوفي ، وكلهم من الوعاظ المشهورين ، ونظموا فيه المواعظ والزهديات والامثال والحكم ، فتداولها الناس وصارت سمر السامرين •

والكان كان من الفنون التي تلتزم الوزن ، والتشطير ، ولكنها خرجت على قانون التسوية بين الاشطار ، اذ كان الشطر الاول فيها أطول من الشطر الثاني دائما •

ومن أمثال الكان وكان ما قاله صفي الدين الحلي في الغزل :

شمرت طيرا في ايدي وقمت حتى انصب شبك
ما كل طيرا يحصل يفرح الصياد

طيري الذي كان الفي لو ردت مثلو ما حصل
وهو على معود وأنا عليه معتاد

قد كان شرطي وخلقي ابرج غيري ما عرف
كأننا في الصحبة جينا على ميعاد

من قبل ما ابصبص لو يجي ويدخل مصوري
وأنا أرصدو في مطارو وأخاف لا ينصاد

وأخذت لو طوراني نفور ما يدخل قفص
وما يطير لجهلو الا مع الاضداد

اذا قلـع مـن عنـدي فمـا تزال عينـي معـو
وأعرف مطـارو واقعـد في البرج بالمرصـاد

يحـط فـي بـرج غـيري ومـا يـلم بسـاحتي
وكـم بهـا من هويدي ومن طيـور شـداد

واعـرف جميـع رفـاقو ومـن يرجـل عنـدهم
وأسـامحو وأتغـابى وأكـابر الحسـاد

ويوم اذا جا عنـدي أرضـي وأنسـى خصـائلو
وأقول ان المـاضي في الخـلق مـا ينعـاد

ومثاله ما قاله أحد الشعراء في الوعظ :

يا قاسي القـلب مالك تسـمع ومـا عنـدك خبر
ومن حـرارة وعظي قـد لانت الاحجـار

أفنيت مالـك وحالـك في كـل مـا لا ينفعـك
ليتـك عـلى ذي الحالة تقـلع عن الاصرار

تحضـر ولـكن قلبـك غـايب وذهنـك مشـتغل
فكيـف يا متخلف تحسب من الحضـار

ويحـك ! تنبـه ـ فتى ـ وافهـم مقـالي واستمع
ففي المجالس محـاسن تحجب عن الابصار

يحصـي دقائق فعـلك وغمـز لحظـك يعلمـه
وكيـف تعـزب عنـه غوامض الاسـرار

تلـوت قـولي ونصـحي لمـن تدبـر واستمـع
ما في النصيحـة فضيحـة ، كـلا ولا انكـار

وابتدع أهـل بغداد أيضا في عهد العباسيين فنا شعريا اخر ، تغنى به المسحرون لايقاظ النائمين من الصائمين ليتناولوا سحورهم ، ومدحوهم فيه ، ليستحقوا مكافآتهم في صباح العيد • أعني به فن القوما ، الذي اختلف العلماء في تعليل اسمه ، ولكن اتفقوا على أنه كان ينقسم الى مقاطع شبيهة بما يسميه الغربيون Stanza ، وسموا كل مقطع منها بالبيت • وذكر صفي الدين الحلي نوعين من القوما •

النوع الاول يتألف البيت منه من أربعة أشطار (كانوا يسمون كل شطر منها بالقفل) ، فالبيت اذن مؤلف من أربعة أقفال • تتفق الاقفـال الاول والثاني والرابع منها في الوزن والقافية ، وتهمل تقفية القفل الثالث الذي يكون أطول منها •

ومثال هذا النوع ما قاله صفي الدين الحلي في الغزل :

من كان يهوى البدور
ووصل بيض الخدور
بالبيض والصفر يسخو
وقد جلس في الصدور

★

من حب بيض الخدور
ورام كنز الصدور
يسمح وإلا فيبقى
من بينهم مهدور

★

كم بين سجف الخدور
من عاشق مصدور
يرعى الكواكب لعلو
يرى جمال البدور

★

بين الكلل والخدور
وجوه مثل البدور
اشراقها في المعاجر
وغربها في الصدور

★

قد كنت فوق الصدور
بين الظبا والبدور
قد صرت أحد من أبصر
خيامهم والخدور

★

نوائب المقدور
مثل الدويلب تدور
من بعد طيب الخواطر
تقضي بضيق الصدور

★

غيري يلز الصدور
وأنا عليكم أدور
واصلتم الضد وأنا
من بينكم مهدوز

ويتألف البيت في النوع الثاني من ثلاثة أقفال ، تتفق في القافية ، وتختلف في الطول ، فالاول أقصر من الثاني ، والثاني أقصر من الثالث، ومثاله ما قاله الحلي في الغزل :

أي قلب دعهم
ايش ترى أوقعك معهم
انكف عنهم قبل ما تظهر بدعهم

★

لولا طمعهم
بان قلبي ما يدعهم
ما خالفوني وأظهروا في بدعهم

★

ما عدت معهم
تا يزول مني طمعهم
مالي فؤادا يحتمل كثرة ولعهم

★

كثرة طمعهم
من بقي قلبي تبعهم
وما دروا أنو متى خانوا يدعهم

★

من ملت معهم
أظهروا في بدعهم
وألبسوا جسمي الضنا هذي خلعهم

★

كثرة ولعهم
هو الذي عندي وضعهم
من بعد ما كان الوفا عندي رفعهم

★

دعنـــي أدعهــــم
مـــا بقـــى قلبـي يســعهم
فكثـرة التقبيـــح من قلبي قلعهـــم

★

لـــــا قلعهــــم
مـن بقـلبي قـد زرعهـم
مسالوا معي ، لـكن أنا ما ملت معهـم

★

ضـــدي خدعهــــم
وقـــت مـــا عني ردعهــــم
وظنني عمري من ايـــدي ما أدعهـم

★

ايش قـــد نفعهـــم
نصـــح مـن عنـــي دفعهـــم
تركتهـــم ما قادهـــم مـن فزعهـم

★

وعثر المستشرق فلهم هنرباخ على نوع ثالث من القوما ، ذكر أن البيت فيه يتألف من خمسة أقفال ، تتحد الاقفال الاول والثاني والثالث في قافية تتغير من بيت الى اخر ، ويتحد القفل الخامس من كل بيت في قافية تكون هي قافية القصيدة كلها ، وتهمل تقفية القفل الرابع • ولم يذكر هنرباخ شيئا عن أوزان هذه الاقفال ولا أورد نماذج منها لنستطيع الحكم عليها •

وقد التفت الشعراء الى هذه الانواع من القوما ، والتقطوها من أفواه المسحرين ، وحاكوها في أغراضهم الفنية من غزل ووصف للازهار والبساتين والعتاب ، وما اليها • فأثروا الشعر العربي أشكالا ومضامين ، ولكن العصور تغيرت ، وتوارت الكتب ، فنسي الابناء ما أبتكر الاباء ، وظنوا بهم عقما •

(١) نازك الملائكة : كتاب قضايا الشعر المعاصر •

(٢) السيدة نازك الملائكة ، وهي أول من نبه الى هذا •

نظرات في سيادة القانون

بقلم : هانس كليكاتسكي (١)
ترجمة : فؤاد عبد المجيد الأعظمي

(ان من أسوأ المصائب على الانسان هي ان يحاكم بدون قانون) .

البرت كاموس في كتابه (الانحطاط)

لقد ظهرت فكرة سيادة القانون بأشكال متعددة في النظم القانونية المختلفة ، ولكن كل هذه الاشكال المتباينة كانت تهدف الى غرض واحد مشترك هو تحقيق الحرية الشخصية للافراد والحفاظ عليها من تعسف السلطة العامة وسوء تصرفها تجاه الافراد . ومما لا ريب فيه أن الحرية الشخصية لا يمكن أن توجد الا اذا كان الفرد يعيش في مجتمع أو وسط تتوفر فيه الضمانات القانونية لحريته في العمل والنشاط وحيث يكون قادرا على الدفاع عن هذه الحرية في حدود القانون .

ان القانون والمؤسسات القانونية التي أوجدت للحفاظ على الحرية الشخصية قد جاءت للتعويض عن الفرق الشاسع وعدم التوازن بين ضعف الفرد وقوة السلطة العامة ، وذلك بخلق مجال يقف فيه الفرد والسلطة العامة على قدم المساواة .

وبالنسبة للفرد يوجد هناك باب واحد يمر منها الى هذا المجال ليحقق فيه كامل ذاتيته لصالح نفسه وصالح المجتمع وصالح شيء أسمى من ذلك . وهذه الباب هي الشخص نفسه . كما عبر عن ذلك ببراعة الدكتور س . جونسون حيث قال : « ان الشركات لا تملك الروح التي تتطلب الحفاظ عليها ولا العجز الذي يمكن رفسه » فالمجتمع الذي يتألف من أشخاص لا يستطيعون أن يكونوا أو يقرروا أنفسهم كأشخاص ينحدر شيئا فشيئا

---

(١) عن مجلة اللجنة الدولية لرجال القانون في جنيف .

وبسرعة نحو جحيم الاوهام والتصورات (الايديولوجية) • كما أن سيادة القانون في حالة تحققها ، ليست شيئا مضمونا ومحققا في كل الاوقات ، فقبل تسعين سنة كتب رجل سيادة القانون المشهور (رودولف فون كنايست : « ان سيادة القانون بمعناها التاريخي والفلسفي قد نشأت وتكونت ببطيء وجهد وكانت في صراع مستمر مع الاتجاهات الاساسية للمجتمع ، وبواسطة هذا الصراع فقط يمكنها أن تتقدم وتدعم وتتطور في عالم اليوم » والفكرة المقصودة في هذا القول صحيحة بصورة دائمة • وكما قال رودولف فون ايرينك : « ان النضال في سبيل القانون ومن أجله هو نضال دائماستمر لا يزول ، لان السلطة العامة سواء كانت في يدي شخص أو في ايدي جماعة لا تريد ان تعترف في أى وقت وفي اى مكان بالحدود » •

ان سيادة القانون كباقي التركات الثقافية الانسانية معرضة دائما الى التهديد والمخاطر • ويمكن تشبيهها بالمدن المحصنة في العصور الوسطى التي كانتمشارفها وخنادقها المملوءة بالماء المحيطة بها ومراصدهاوجسورها المتحركة التي يمكن سحبها وغلقها هي الضمان الاكيد للشعب الذييعيش وراء جدرانها في الامن والاستقرار اللازمين للحفاظ على كرامة النظام الاجتماعي وعزته • وكما أن وضع هذه المدن المحصنة وطبيعة الاخطار التي تستهدف لها وتحدق بها باستمرار تضطرها لاتخاذ الاجراءات الدفاعية المختلفة ، فلذلك نجد ان فكرة سيادة القانون قد صيغت وعبر عنها بطرق مختلفة بالنظر للمتطلبات والتقاليد الوطنية •

ولكن الشيء العام الذي يعرفه الجميع هو أن كثيرا من هذه المدن المحصنة والتي لم يعتر تحصينها ضرر ما قد سقطت ضحية الخيانة من الداخل أو بواسطة هجوم مباغت للعدو على بعض نقاطها التي لم يعرف عنها أنها ضعيفة • وهذه التجربة التي حصلت لهذه المدن يجب أن تكون درسا بليغا ودائما لنا بأن المحافظة على سيادة القانون تتطلب اتحاد واخلاص وأمانة الحراس القانونيين • وثانيا أن الدفاع عن سيادة القانون غير قابل للتجزءة وأن الضعف في الدفاع مهما يبدو طفيفا لاول وهلة يمكن ان يقرر نهاية تلك الدولة ومصيرها • وعلى ضوء هذا الدرس فان مناطق الدفاع لا يمكن وضعها وتجميعها حسب نظام الافضلية الذي يصلح لكل وقت • أن أهم جزء من سيادة القانون في أى وقت من الاوقات هو ذلك الجزء المعرض باستمرار الى التهديد • كما أن سيادة القانون تقاس قوتها بأضعف جوانبها • وهناك مبادىء رئيسية معينة لابد منها لوجود سيادة القانون والتي ظهرت نتيجة لتجارب الاجيال العديدة من رجال القانون في الامم والشعوب المختلفة ويمكن اجمال هذه المبادىء بما يلي :

١ ـ مبدأ الفصل بين السلطات الذي يطبق ليس فقط فيما يتعلق بالسلطة

التشريعية والسلطة التنفيذية والسلطة القضائية وانما يطبق على جميع النواحي والمجالات التي تتركز فيها السلطة العامة في موضع واحد ٠

٢ ـ مبدأ استقلال رجال القضاء عن السلطة التنفيذية وعن جميع المؤثرات والعوامل الخارجة عن القانون ٠

٣ ـ مبدأ توافق السلطة العامة وخاصة التشريعية والادارية مع الحقوق الاساسية والحريات التي تحمي الفرد المواطن وتصونه من التعسف ٠

٤ ـ مبدأ شرعية العمل الاداري ٠

٥ ـ مبدأ المراجعة القضائية للتشريع والادارة عن طريق القضاة المستقلين ٠

٦ ـ ايجاد هيئة من رجال القانون المستقلين عن السلطات العامة لغرض الدفاع عن فكرة سيادة القانون ٠

ولا يمكن لاي واحد من هذه المبادىء الاساسية أن يوجد منفصلا عن غيره لانها متحدة ومتصلة مع بعضها اتصالا وثيقا وهذه الحقيقة تعني انها أما أن تقف سوية او تسقط جميعا مرة واحدة لانها تشكل وحدة بنائية واحدة ٠

ان تبادل الخبرات والتجارب شيء مفيد ، وبهذه الطريقة وحدها يمكن أن يتحقق بناء نظام عالمي يستند على أساس من القانون والسلام ٠

ان النمسا بلد متحرر ديمقراطي وجمهورية اتحادية تقوم على مبدأ فصل السلطات ومرتبطة بالحياد الدائم ٠ والحريات الاساسية فيها مصانة بالدستور الاتحادي وبصورة خاصة بالقانون الاساسي الصادر بتأريخ ٢١ كانون أول سنة ١٨٦٧ في الجريدة الرسمية المرقمة ١٤٢ والذي يتناول الحقوق العامة للمواطن ٠ كما أن النمسا من الدول الموقعة على المعاهدة الاوربية لصيانة حقوق الانسان والحريات الاساسية ٠ كما أن المحاكم فيها مستقلة ٠ وليس الغرض من هذا المقال على أي حال هو تركيز الاهتمام حول هذه الناحية ولكن الذي يعنينا هنا هو مناقشة ذلك التعبير الوارد في النظام القانوني النمساوي عن مبدأ شرعية العمل الاداري ، أولا لان السلطة التنفيذية هي أوسع وأعقد من أي من السلطات الحكومية الاخرى ٠ وثانيا هناك ما يبعث على الاعتقاد بأن هناك في النمسا عملية تتطور بدرجة كبيرة ويمكن أن تعتبر مثالا متطرفا تخضع فيه السلطة التنفيذية الى القوانين بصورة تامة ٠ وقد يكون اخضاع السلطة التنفيذية بالقوانين اجراء نظري بحت اذا لم يكن هناك هيئة من القضاة المستقلين تراقب بعين ساهرة مراعاة القوانين واتباعها من قبل اعضاء السلطة التنفيذية ٠ واذا فان تأريخ تطور هذا المبدأ (مبدأ شرعية العمل الاداري) كان منذ بدايته قد ارتبط بصورة معقدة بالمحكمة الادارية ثم أخيرا بالمحكمة الدستورية وكلتاهما في فينا ٠

وقد كان لممارسة العدل عن طريق المحكمة الادارية أعظم الاثر والتأييد لمبدأ شرعية العمل الاداري • وان هذا التأييد الضخم هو الذي يبعث الامل بأن هذا المبدأ للمشروعية المدعمة بالمحاكم الادارية يمكن أن يحل المشاكل التي توجدها الدولة الحديثة لرجل القانون • ان التاريخ يعلمنا بأن ليس هناك مشكلة جديدة بصورة مطلقة • فقد شاهد القرن الثامن عشر ظهور الدولة البوليسية • فكل ما كان في طريق السلطة التنفيذية قبل ذلك كان خاضعا للمحاكم التي اهتمت بمراقبة تطبيق القوانين وصيانة حقوق الافراد • وكان العمل الاداري لا يباشر الا في حدود القانون ونطاقه • ثم ظهر ما يسمى بالقانون السياسي (يوس بوليتيه) المأخوذ عن فكرة « البوليس » في فرنسا • والذي اعتبر أن من حق السيادة للحاكم أن يتدخل في كل ناحية لصالح الرفاه العام • وأصبح للدولة الحق في التدخل في جميع القضايا التي تؤثر في المجتمع لغرض الصالح العام• كما شاهد النصف الاول من القرن التاسع عشر انقسام النظام القانوني الى قسمين :

القسم الاول ـ القانون الخاص والمحكوم بالنظم القانونية الدقيقة •
القسم الثاني ـ القانون العام ويكون خاضعا لمبدأ حرية العمل للسلطة التنفيذية • أما فكرة سيادة القانون فكانت تهدف وتسعى لتأمين خضوع السلطة التنفيذية بكاملها الى سلطة القانون وهو المبدأ الذي لم يلتفت اليه ولم يلاق اهتماما في الدولة البوليسية •

ان الدولة « الابوية » في القرن الثامن عشر مهدت الطريق لسيادة القانون التي ظهرت في القرن التاسع عشر • وقد عبر فريدريش جوليوس فون شتال عن الحاجة الى سيادة القانون بالعبارات التالية : « ان الدولة ينبغي أن تكون دولة سيادة القانون ، لان هذا هو الحل بل هو في الواقع اتجاه التطور في الازمان المتأخرة ، وينبغي عليها ، عن طريق قوانينها ، أن تحدد بدقة وتحافظ على حدودها في نشاطها كما تفعل ذلك بالنسبة في مجال العمل والنشاط للمواطنين • وأن الدولة كدولة يجب عليها أن لا تفرض بالقوة الافكار الادبية والاخلاقية ، باستثناء أن يكون مثل هذا العمل متعلقا بالمجال القانوني لتصرفاتها » ان القانون الاداري المتين الثابت أصبح مصدرا « للحقوق العامة الشخصية تجاه الدولة » وأصبحت اجراءاته قرارات وأحكام قانونية معتبرة • وأصبح الرجوع الى دولة القرون الوسطى التي قصرت نفسها على دفع وتفادي الهجمات على الحقوق الشخصية ، غير ممكن • لان الرجوع الى الماضي لا يمكن من الناحية التأريخية وغدا نشاط الدولة يهدف من ناحية الى الحفاظ على الحقوق الشخصية للفرد ومن الناحية الاخرى تنفيذ الامور والاعمال التي تتعلق بالصالح العام • ان البناء التركيبي الثنائي للنظام القانوني ـ الذي تتعلق بعض أقسامه بالقانون الخاص والبعض الاخر بالقانون العام بالنسبة الى ما يتعلق بكل منهما قد أدى

الى انشاء المحكمة الادارية المركزية على النمط النمساوي . وفي ٢٦ تشرين الاول سنة ١٨٧٦ أصدرت المحكمة الادارية أولى أحكامها . وقد بنيت سيادة القانون العام عن طريق ممارسة القضاء الاداري . ونشأت بذلك ليس فقط الحاجة الى شرعية العمل الاداري بل حق الطرف المتنازع الى الاجراء الاداري القانوني . وأدى ذلك الى تطور القانون الاداري والى تطور المرافعات والاجراءات الادارية وذلك أولا عن طريق الاحكام الصادرة عن المحكمة الادارية ثم عن طريق التشريع الذي شجعت عليه ودفعت اليه هذه الاحكام. والمثل البارز على ذلك قوانين المرافعات والاجراءات الادارية لسنة ١٩٢٥ التي وضعت ، بجانب التنظيم القانوني لمرافعات المحكمة ، نظاما محكما للاجراءات ، على نفس الاسس ، للسلطات التنفيذية .

والقانون ، الذي هو معيار معنوي مجرد ، يحوي مبادىء عامة وتظم تضمن الحرية الفردية والمساواة والضمان والامن القانوني .

ومما لا ريب فيه أن نشاط أجهزة الدولة المقيد بالقواعد العامة المجردة والمتمتع بقدر معين من الثبات والرسوخ مما يقلل حدوث الهجمات التعسفية على الفرد . ولهذا فان الاجراءات الحكومية التي يمكن التنبأ بها مقدما لحد ما تمكن من التوفيق بينها وبين الخطط والمشاريع التي يتخذها الفرد والتي تمتاز بالثبات والاستمرار نوعما . والموازنة التي يمكن استخلاصها من ذلك هي كما يلي : ان حرية الفرد تعتمد على مدى تمسك الادارة بالقانون وتقييدها به . ومن الواضح أن القواعد القانونية ذات الصفة المجردة العامة التي تصدرها السلطة التنفيذية ـ تحت عنوان ـ (قواعد وأنظمة) ـ لا يمكن أن تغني عن القانون أو تقوم مقامه ، ذلك لان السلطة التنفيذية قد لا تتقيد بالقانون اذا ما وضعت هي نفسها القواعد لتصرفها وسلوكها . ان فصل السلطة في البرلمانات الديمقراطية لوجود الاحزاب البرلمانية ليس له دور في اصدار القواعد والانظمة التي يمكن أن تصدر بصورة أسرع وبدون عائق من قبل السلطة التنفيذية تلك القواعد والانظمة التي هي أقل ثباتا وبقاء .

وقد نص الدستور الاتحادي النمساوي في المادة ١٨ على :

١ ـ السيادة المطلقة للسلطة التشريعية على السلطة التنفيذية ، حيث جاء فيها : « ان الادارة العامة جميعها لا تقوم الا على أساس من القانون» وتشمل السلطة التنفيذية الرئيس الاتحادي والحكومة الاتحادية وحكومات الاقاليم ؛ وفي ضوء هذه القاعدة الاساسية يمكن فهم المادة (١٨) من الدستور التي تنص على : « كل سلطة ادارية يمكنها أن تصدر القواعد والانظمة المستندة على القوانين وفي ضمن صلاحياتها » .

ومما لا ريب فيه أن طبيعة الاحكام التي أصدرتها المحكمة الدستورية

النمساوية والتى امتازت بالصلابة وعدم اللين قد جعلت هذه القواعد والانظمة التى تصدرها السلطة التنفيذية مجرد وسيلة خاضعة تماما للقانون • وأن القواعد والانظمة بطبيعة تكوينها المجردة العامه تشبه القانون •

والمفهوم من كلمات القواعد والانظمة ، بصرف النظر عن كيفية وضعها، انها أية أنظمة قانونية عامة تصدرها السلطة الادارية أو بعبارة أخرى هى أوامر ادارية موجهة الى الجمهور بصورة عامة أو الى فئات خاصة من السكان معينة بصورة مجموعات وليست بصورة فردية أو لها صفات جماعية • ولهذا فقد استبعد بذلك سوء استعمال الانظمة العامة عن طريق سن الشرائع المتنكرة ضد الافراد • ومنذ سنة ١٩٢٣ راحت المحكمة الدستورية تتمسك بالرأى بأن المادة ١٨ الفقرة (٢) تقصد فقط الانظمة الادارية ولا تسمح للانظمة والاوامر بأن تعدل أو تكمل أو تحل محل القانون • ولغرض أن يكون القانون منفذا عن طريق النظام فان محتوياته يجب أن تكون محددة بصورة واضحة وضوحا تاما أى أن تكون جميع الاوجه والمعالم المهمة للنظام الموضوع متوفرة وملموسة فى القانون نفسه ، وعلى هذا الاساس رفضت المحكمة الدستورية مبدأ صلاحية التشريع للسلطة التنفيذية من أجل المبدأ القائل بأن القانون يحدد مسبقا محتويات النظام •

ان الانظمة قد تصدر ليس فقط من قبل السلطات الاتحادية والاقليمية بل من قبل أجهزة الحكومة المحلية أو من قبل الهيئات المستقلة الاخرى • ولهذا فان المحكمة الدستورية تراجع أيضا هذه الانظمة لتتحقق من شرعيتها كما أنها فى الواقع تراجع الاوامر والتعليمات العامة التى يصدرها موظفوا السلطة التنفيذية (كشروط التوظيف أو التعليمات الاخرى) •

ان سلطة الرئيس الاتحادى فى اصدار انظمة الطوارىء محدودة جدا ، وفى الواقع لم يكن لها أهمية حتى الان • وبجانب ذلك نجد أن بوليس الامن والسلطات المحلية المستقلة ذاتيا فقط لها الصلاحية فى اصدار الانظمة المستقلة وهى صلاحية محدودة جدا ايضا • كما أن الاوامر التى تصدر خلال ممارسة السلطة لتنفيذ الانظمة يجب كذلك أن لا تتعارض أو تسىء الى القوانين المعمول بها • ولهذا فان التطرف والتجاوزات غير ممكنة ما دامت هذه الاوامر تخضع ايضا للمراجعة من قبل المحكمة الدستورية • ان هذا الوضع القانونى الذى يغاير مغايرة تامة للاتجاهات فى الاقطار الاخرى نحو دمج السلطات ليس له سوى أهمية نظرية فقط للفرد النمساوى • وليس من الصدف أن الدكتاتوريات التى عرفها هذا الفرد قد دمرت الديمقراطية وسيادة القانون وذلك بمنح حق التشريع للسلطة التنفيذية • ومن الطبيعى أن الاعمال الادارية ذات الصفة الفردية المعينة واعنى بها « القرارات » تخضع بصورة كاملة ومطلقة للقانون • وهذا

ايضا من نتائج المادة ١٨ـفقرة (١) من الدستور ٠

ان النظام القانوني النمساوي وكذلك القضاء النمساوي يرى باجماع الرأي بأن كل عمل اداري يحتاج الى الحماية من قبل القانون وليس فقط تلك الاعمال التي تدخل الى المجال القانوني من قبل الفرد ٠

ويبدو ذلك من وظيفة القانون في الحماية وتعبيره عن سيادة الشعب التي أشرنا اليها فيما تقدم ٠ وتظهر كذلك بالفكرة التي تعود الى هانس كلسن وأدولف جوليوس سركل القائلة بأن أعمال الاشخاص الذين يمثلون الدولة يمكن فقط أن تنسب الى الدولة اذا كان هناك انظمة تسمح لهم بالقيام بهذه الاعمال ٠ واذا أريد للسلطة التنفيذية بأن لا تصطدم مع القانون ولا تعتدي عليه فيجب أن تقيد بالقواعد القانونية وتحكم بها ٠ ومعنى ذلك هو أن تباشر السلطة التشريعية رقابتها الفعالة على أفعال السلطة التنفيذية في نواحي ثلاثة هي :

١ ــ يجب على السلطة التشريعية أن تنشيء الاجهزة التي يناط بها القيام بواجبات السلطة التنفيذية ٠

٢ ــ يجب تنظيم الاجراءات التي تعمل ضمن نطاقها الاجهزة الادارية بموجب القانون ٠

٣ ــ وأخيرا ، يجب على السلطة التشريعية أن تحددأعمالالاجهزة التنفيذية ونشاطها كل على حدة وبقدر ما يتعلق به الامر ٠ ويجب أن تعطى ملخصا بعبارات عامة مجردة بالحقائق اللازمةالمقصودة وتحدد النتائج القانونية المترتبة عليها والناشئة منها ٠

وقد نصت المحكمة الدستورية ، مثلا على الانواع الجديدة من السلطات والدوائر الادارية التي تختص بميادين محددة من الاعمال الادارية لا يمكن ان تنشيء الا بقانون ٠

أما التنظيم الداخلي للسلطات التنفيذية وتقسيمها الى شعب ودوائر فانه من عمل السلطة التنفيذية والتي يمكن أن تدير شوءونها وتنظماعمالها بموجب الاجراءات الادارية الداخلية فقط ٠

وثم تأتي مسألة منفصلة عن ذلك وهي كيف يقرر ويعين مكان مركز الادارة لسلطة معينة وبالاصح أين تعمل ٠ وما دام أن مركز الادارة ومنطقة العمل لكل سلطة قد حدد بموجب قانون لذا فان كل تغيير في أي نص موضوع يحتاج الى قانون ٠

واذا لم يضع القانون مثل هذه النصوص أو الشروط وتركت السلطة التشريعية هذه القضية لتنظم بمراسيم أو أوامر ادارية فيمكن في هذه الحالة فقط تعيين وتغيير مركز الادارة ومناطق العمل وخاصة للسلطات الادارية الثانوية بأوامر ادارية ٠

وبالاضافة الى ذلك فقد أعلنت المحكمة الدستورية أن مبدأ المسوءولية

القانونية للسلطة التنفيذية يتطلب أن تكون الاختصاصات الممنوحة للسلطة ضمن نطاق صلاحيتها والمعينة بالقانون معينة بالتفصيل بموجب القانون وكذلك الوسائل التي تباشر بواسطتها تلك السلطات أعمالها ٠ ان هذه الاختصاصات والوسائل التي تساعد على انجازها لا يمكن بأية حال أن تستمد من مجرد الحقيقة والواقع بأن السلطة التنفيذية لها صلاحية العمل والتنفيذ ٠

ان تحديد الصلاحية بموجب القانون والاجراءات التي يجب اتخاذها ومضمون العمل الاداري الواجب القيام به على أساس هذه الصلاحية وبموجب الاجراءات الصحيحة هي من صميم أعمال القانون الدستوري ٠

وقد نشأ لاول مرة في زمن ما قبل العهد الدستوري مبدأ أطلق عليه مبدأ « حرية التصرف » للسلطة التنفيذية وفي القضايا التي تدخل ضمن مبدأ « حرية التصرف » لا يكون للمحكمة الادارية أي اختصاص ٠ وهذا المبدأ الذي اتخذ بحيث تستطيع السلطة التنفيذية القيام بأعمال لا تخضع فيها لرقابة أو محاسبة المحكمة الادارية ٠ وهذا المبدأ الذي نشأ في الوقت الذي كان فيه تطبيق فكرة شرعية العمل الاداري في بدايته ٠ وكانت السلطة التنفيذية تعتبر نفسها في ظل هذا المبدأ حرة التصرف ولها الحق في ممارسة سلطاتها ٠ وكان العامل الحاسم والدافع الاول الذي يقرر تصرف السلطة الادارية هو الرغبة والارادة وليس القانون ٠

ولعل التطور الذي أصاب هذا المبدأ يمثل لنا الدافع القوي الذي يكمن وراء فكرة سيادة دولة القانون ٠ وبصورة خاصة وراء المبدأ القائل بوجوب خضوع السلطة التنفيذية لحكم القانون والخضوع لاوامره وقيوده٠ وقد كان رجال القانون في كفاحهم من أجل سيادة القانون يخططون لهذا الكفاح ويرسمون التصاميم والاهداف والوسائل لهذا النضال المرير ٠ وقد استحدثوا خطة التطويق والتضييق ٠ ذلك لان الدولة ذات الحكم الفردي المطلق لا يمكن اسقاطها بالهجوم الجبهوي المباشر ، ولهذا فان القادة الدستوريين أخذوا يتقدمون على عدة جبهات وقطاعات مختلفة ٠ فكانوا يدعمون الدولة المطلقة حيث يمكن دعمها وفي النواحي التي لا يخشى منها ويحاصرون المواضع التي لابد من أخذها والاستيلاء عليها ٠ وعن طريق عمليات التطويق والمحاصرة هذه نشأت منطقة « حرية التصرف » أو مبدأ « حرية التصرف » غير أن النضال بقي مستمرا ٠ وأصاب محاولات السلطة التنفيذية غير المقيدة بالقيود القانونية ، للخلاص من هذا الحصار وفك نطاقه عن منطقة « حرية التصرف » الفشل والخذلان ٠ وذلك بسلاح فكرة التجاوز وسوء استعمال سلطة « حرية التصرف » وكان رجال القانون يضعون العوائق والعراقيل في منطقة « حرية التصرف » المطوقة وذلك على شكل مطاليب للمراجعة القانونية للاعمال الناتجة من ممارسة « حرية التصرف » سواء كان ذلك فيما يتعلق بالاغراض التي تهدف اليها أو

الوسائل التي تتخذ من أجل تحقيقها • وراحت المحكمة الادارية تعتبر نفسها من البداية مدعوة لتضييق منطقة « حرية التصرف » والتي تمارس فيها السلطة التنفيذية سلطاتها غير المقيدة بالقانون • وهكذا أخذت هذه المحكمة توسع سيطرتها شيئا فشيئا وخطوة فخطوة • ووجهت انتباهها في بادىء الامر الى الناحية الاجرائية من استعمال « حرية التصرف » ثم قيدت ممارسة « حرية التصرف » بما يسمى روح القانون ثم أزالت في النهاية ما يدعى بالاتجاهات القانونية غير المحددة من نطاق الاعمال المتعلقة بحرية التصرف • وقد أعلنت المحكمة الادارية بأن الاحكام التي تتعلق « بحرية التصرف » يجب أن تستند على الحقائق والوقائع المقررة بموجب الاجراءات القانونية الصحيحة • وحتى لو كان الطرف المخاصم ليس له الحق في القضية موضوع الخصومة ، فان هذا الطرف مع ذلك له الحق في ان تكون الوقائع مستندة على قواعد الاجراءات الصحيحة المتبعة ، فوضع حد لاستعمال « حرية التصرف » عندما تتعارض هذه الحرية في التصرف مع روح القانون ومعناه أي مع قصد القانون المصرح به أو المدرك •

وقد اخذت المحكمة الدستورية بهذا الرأي • فهي ترى بأن استعمال « حرية التصرف » لا ينبغي ان يعني التعسف وسوء الاستعمال للسلطة التنفيذية وحتى لو أن القانون يجيز للادارة العامة ممارسة « حرية التصرف » فان هذه الحرية لا يجوز استعمالها الا في ضمن القانون وفي اطار معناه • واذا مارست الادارة العامة حرية التصرف فيما يتنافى وروح القانون او اذا ارتكبت التجاوز في استعمالها لسلطة حرية التصرف فيمكن القول بانها ارتكبت جريمة ضد القانون • ويمكن اعتبار ذلك ايضا جريمة ضد الدستور وذلك اذا أمكن أثبات أن الحكم الصادر عن « حرية التصرف » يعزى الى دوافع تهدف الى التعدي على حق من الحقوق التي ضمنها القانون الدستوري • وأخيرا وبقدر ما يتعلق الامر بالافكار والاتجاهات القانونية غير المحددة فان هناك تصورات غامضة قد فهمت من عبارات مثل : « المنفعة العامة » و « المصلحة العامة » و « تنظيم الحياة الاقتصادية » وهي افكار وتصورات أعطت السلطة الادارية مجالا واسعا والذي لم يعتمد على « التخويل باتخاذ القرارات بحرية » بل أعتمد على الحدود التي لم يحسن تحديدها للنص الذي اختاره المشرع • والسلطة التي تقوم بالرقابة هي المحكمة الادارية • ولم يقف التطور عند هذا الحد • فان المادة ١٣٠ من الدستور النمساوي تنص على ما يلي :

١ ــ تحكم المحكمة الادارية في الشكاوي التي تؤكد بأن أوامر السلطات الادارية هي غير قانونية او ان السلطات الادارية عجزت عن اداء واجبها في اصدار أي قرار •

٢ ــ ان العمل لا يمكن ان يكون غير قانوني مادام أن السلطة التشريعية

لم تضع قواعد ملزمة للسياسة التي يجب اتباعها من قبل السلطة الادارية ولكنها تترك ذلك الى حرية تصرف السلطة نفسها لوضع السياسة مادام ان السلطة قد استعملت حرية التصرف هذه بما يتمشى والقانون ٠

وأصبح الشعب في الوقت الحاضر ، وهو يعترف بالمكاسب التي حصل عليها في السابق ، يعتبر هذه القضية من القضايا التي تتعلق بالقانون الدستوري ٠ ولم يعد قادة التطور الجديد يقنعون بالطلب بأن تكون ممارسة « حرية التصرف » من قبل السلطة الادارية خاضعة للرقابة الدقيقة من اجل الحفاظ على المصالح القانونية للطرف الذي يلجأ الى المحكمة الادارية أو حتى المحكمة الدستورية ٠ وقد وجهوا طلبا الى المشرعين مستندا على نصوص الدستور بان يحددوا بدقة وبصورة واضحة الشروط التي تخضع لها « حرية التصرف » التي أقروها لصالح السلطة التنفيذية وكذلك التي وضعت بموجب مبدأ « الافكار القانونية غير المحدودة » وذلك لكي تكون الادارة بهذه الطريقة مقيدة بالقانون بصورة محكمة ٠ وان هذا الطلب يستند الى قرار المحكمة الدستورية الذي ذكر آنفا حول السلطات القانونية لاصدار الانظمة ٠ واذا ألغت المحكمة الدستورية السلطة التي يتم بموجبها التشريع لان ذلك يخالف المادة ١٨ فقرة (٢) من الدستور لمعارضة المادة ١٤٠ ومن ثم تلغى الانظمة المستندة عليها لمخالفتها القانون ٠ وعندئذ يجب عليها ان تلغى النصوص القانونية على اعتبار أنها غير دستورية وذلك لانها تعطى السلطة على اصدار القرارات الادارية ذات الصفة الفردية بدون تقدير محتوياتها مقدما بصورة كافية مادامت المادة ١٨ فقرة (١) هي المصدر الوحيد لمبدأ شرعية العمل الاداري المقررة بنصوص عامة في المادة ١٨ فقرة (١) والتي تشمل القرارات العامة والفردية على السواء ٠

ان الفكرة عن « حرية التصرف » التي جاءت في المادة ١٣٠ فقرة (٢) كانت تتعارض مع التخويل غير الدستوري لممارسة سلطة التعسف وكان هذا يتوازى مع فكرتين هما التخويل الدستوري لاصدار المراسيم والتفويض غير الدستوري لممارسة صلاحية التشريع ، وطبيعي ان زعماء هذا التطور الحديث الذي يتعارض والمبدأ القديم لحرية التصرف ، كانوا على علم تام بأن التمييز بين « حرية التصرف » و « العمل المقيد بالقانون » لم يكن فيه اى معنى منطقى مادام بطبيعة الحال ان التجريد المنطقي واللغوي للتشريع الذي يعطى الادارة بعض المجال عندما تطبق القواعد القانونية على الوقائع لا يمكن تجنبه سواء بما يتعلق بكلا الناحيتين المنطقية واللغوية ، ويمكن لهذا المجال ان يوسع او يضيق مادام ان الرجال هم انفسهم الذين يمارسون القضاء ٠ وعلى كل فان التمييز القديم بين مجال حرية التصرف ومجال العمل الخاضع للقانون لا يلعب أي دور في تطبيق التفسير الجديد لمبدأ الشرعية ٠ وأن أولئك الذين يأخذون بالمذهب القديم كانوا على حق عندما

قالوا بأن الفكرة الجديدة تهدف الى تضييق مجال حرية التصرف الممنوح للادارة شيئا فشيئا • أما زعماء التطور الجديد فانهم لم يتأخروا او يخفقوا في بيان قصدهم بوضوح لقولهم « التقرير بصورة كافية » قبل القيام بأى عمل ادارى فردى بواسطة القانون • وينتج من المادة ١٨ الفقرة (١) بأن السلطة التشريعية ملزمة بتحديد تصرف الادارة العامة بصورة يمكن فيها ضبطه ومراجعته من قبل المحكمة الادارية والمحكمة الدستورية • وهكذا يكون التقرير القانوني لتصرف سلطات الادارة كافيا والذى يمكن كلا المحكمتين من القيام بواجبهما للحفاظ على التصرفات القانونية • فكلا المحكمتين لها السلطة من أجل تحقيق واجبها في الحفاظ على التصرفات القانونية ، في ان تجعل مطاليبها من السلطة التشريعية معلومة وذلك بواسطة أحكامها التي تصدرها • ان هذا التوحيد والتنسيق بين مبدأ شرعية العمل الادارى ورقابة المحكمتين في الحفاظ على هذا المبدأ واتباعه ، يهدف الى نقل الزخم الحركي والقوة الدافعة المأخوذة من السلطة التشريعية والسلطة التنفيذية الى المحكمتين وهما المحكمة الدستورية والمحكمة الادارية وبذلك يتم اسناد وتعضيد العنصر الوقائى فى النظام القانوني • ويمكن اعتبار ذلك تطور من « الدولة المستندة على القانون » الى « الدولة المستندة على السلطة التشريعية » وهو كذلك تطور لا يهدد مكتسبات « الدولة المستندة على القانون » بل على العكس يعززها ويسندها •

ان الافكار والاتجاهات الجديدة لا توجد نفسها بين يوم واخر • ومع ذلك فان التطور والتقدم الذى انجز في ايجاد مثل هذه المواقف ووجهات النظر مما يبعث على الامل - فقد أعلنت المحكمة الدستورية في ٣١ مايس ١٩٥٨ بأن السلطة العامة لا يحق لها العمل بناء على ما لها من صلاحيات حرية التصرف اذا كان هناك النص في القانون لا يحتوى على قيود وأنظمة ملزمة في تصرفها هذا • ويجب ان ينص بوضوح في القانون بأن تقرير ومحتوى تصرفها يجب ان يوضعا في يد السلطة العامة • ان المادة ١٣٠ فقرة (٢) تفرض على المشرع الالتزام بالافصاح عن « روح القانون » الذى يخول استعمال مبدأ « حرية التصرف » وبهذه الطريقة يصبح من الممكن اصدار الحكم في قضية ما ، سواء كانت فردية أو غير فردية بأن مبدأ حرية التصرف قد طبق ضمن « روح القانون » والقوانين التي لا تسمح لمثل هذا الحكم بالصدور هي قوانين غير دستورية •

ان هذا المبدأ كان قد اتخذ من قبل المحكمة الادارية التي طلبت في ١٤ مايس ١٩٦٠ من المحكمة الدستورية الغاء الفصل ٣ المادة (١) من قانون التجارة الخارجية واعتباره غير دستورى لان النص عارض في اعطاء وزير التجارة والاعمار الاتحادي الحق في اصدار رخص الاستيراد والتصدير بدون توضيح الاعتبارات التي ترشده في قضية فردية عند اعطاء القرار على طلب لمنح هذه الرخص •

وقد أوضحت المحكمة الادارية بان القانون لم يظهر معناه لا صراحة ولا ضمنا وبصورة أصبح معها من الممكن للمحكمة الادارية القيام بالتحري الدقيق فيما اذا كانت رخص الاستيراد والتصدير قد رفضت بصورة تعسفية أم لا • غير ان المحكمة الدستورية لم تتفق مع المحكمة الادارية في ذلك • وقرارها الصادر في ٢٤ مايس ١٩٦٢ لفت انتباه المحكمة الادارية الى الحقيقة التي يجب أخذها بنظر الاعتبار لتحقيق روح القانون في أسس السياسة الاقتصادية وفي القيام بالاتفاقات الناشئة عن المعاهدات التجارية وكذلك التوازن الضروري لادامة وتحقيق التبادل في السلع بين الدول الخارجية » ان النصوص الشخصية في القانون قد أوضحت بأن استيراد أو تصدير البضائع الذي نص عليه قانون التجارة الخارجية لا يمكن المصادقة عليها اذا كانت تعارض « المصالح الاقتصادية العامة » ومن الواضح أنه من الصعب بناء على هذا المقياس ممارسة الرقابة على السلطة التنفيذية ولهذا فقد الزمت المحكمة الادارية بقرارها في ٢٤ مايس ١٩٦٢ وزارة التجارة والاعمار الاتحادية على تقديم الاسباب لرفضها رخص الاستيراد • وقد اشارت المحكمة الادارية عند قيامها بذلك الى واجبها بموجب الدستور في تقديم الحماية القانونية وهو واجب لا يمكن القيام به بدون تقديم الاسباب • وفي قضية اخرى تحدت المحكمة الادارية نص القانون امام المحكمة الدستورية لانه ، في رأيها ، لم يبين بوضوح بموجب أي شروط مسبقة يجب ان يدفع الى شخص مبلغ من المال مذكور في هذا النص ولم توافق المحكمة الدستورية هنا كذلك على هذا الاعتراض • ولكنها أعترفت بقرارها في ١٧ مايس ١٩٦٢ بصورة واضحة ، كما فعلت صدفة الحكومة الاتحادية التي كانت احد الاطراف في هذه القضية وذات علاقة فيها — بأن القوانين كان يجب ان تقرر التصرف الذي تقوم به السلطة الادارية الى الحد الذي تكون المحكمة الادارية متمكنة من مراقبة وفحص مدى أنطباق الاعمال الادارية الفردية على القوانين • وقد شعرت المحكمة الدستورية بان نص القانون الذي اعترض عليه قد حوى في الواقع شرط التقرير ، ولو انه لم يحدد بصورة دقيقة • وكذلك اوضحت المحكمة الدستورية بصراحة بانه ليس هناك ما يمنع المحكمة الادارية من استبدال تفسير الافكار القانونية غير المحددة التي تشترطها السلطة الادارية وهو تفسير اعتبر صحيحا •

ان هذه هي المرحلة الاخيرة التي وصل اليها التطور في مبدأ شرعية العمل الادارى في تقدمه المستمر وسيره الحثيث •

كان مبدأ شرعية العمل الادارى في شكله الاصلي نتاج وضع تأريخي خاص • فقد طبق في وقت كانت فيه الدولة والمجتمع أقل اهتماما بحياة الفرد مما هو حاصل اليوم • وان وظيفة القانون في الحماية كانت تتكون بصورة رئيسية في ذلك الوقت من حماية الفرد من الاعتداء والتجاوز الذى يقع على حقوقه السياسية والمدنية • أما اليوم فان الدولة والمجتمع يقومان

بالالتزامات الاجتماعية العديدة نحو الفرد وخاصة فيما يتعلق بالامور الاقتصادية والثقافية . فان الدولة الحديثة التي تأخذ على عاتقها مهمة توزيع المنافع والخدمات وتجهيزها للافراد قد حلت محل الدولة القديمة التي كان شعارها عدم التدخل في شؤون الفرد . وان هذه الدولة الحديثة قد عهدت بصورة رئيسية الى السلطة التنفيذية بمهمة توفير الضمان الاجتماعي وبذلك أصبحت الموزع للخدمات الاجتماعية للافراد . ولهذا برز موضوع فيما اذا كان في مثل هذا الوضع الجديد للدولة لمبدأ شرعية العمل الاداري أن يستمر في الوجود ويؤدي وظيفته .

وحتى لو أن موضوع الحرية قد أغفل في الوقت الحاضر فانه يبدو في مجتمعنا الحاضر الضخم الذي تهتم به الدولة اهتماما متزايدا كما هو حادث ، ان هذه الحرية التي هي العنصر الاساس لجميع نظريات العدل لا يمكن ان تكون حقيقة واقعة الا بواسطة القانون . فبدون القانون تغدو أعمال الادارة العامة وكأنها أعمال فردية بدون اية خطة أو هدف ويصبح رخاء المجتمع المادي والادبي العام ، الذي هو مطمح الدولة الحديثة رخاء يصيب افرادا محظوظين وبصورة تعسفية على حساب افراد لا ينالهم سوى الشقاء والبؤس ويمنعوا من التقدم بصورة تعسفية ايضا . وهنا نجد ان القانون تكون له وظيفة أخرى علاوة على وظيفته في الدولة القديمة التي تتمثل في ممارسة السيادة وتوفير الحماية وأعني بالوظيفة الجديدة توزيع الخدمات وبموجب هذه الوظيفة يمارس القانون وظيفة حماية جديدة والتي هي من مظاهر الدولة الحديثة ، هي ليست حماية ضد تجاوز واعتداء الدولة ، ولكنها حماية بالمعنى الايجابي ناشئة من رفع مستوى حياة الفرد وتوفير هذا المستوى المحترم له ، وهذا هو المعنى الجديد لفكرة الحرية .

وبالرغم من ان القانون لابد منه ولا يمكن لحياة ان تقوم بدونه وبصورة خاصة في وقتنا الحاضر الا ان هناك قوة جديدة متعلقة بشكل الدولة الحديثة تعمل ضده . فان الدولة التي توزع للمواطنين الخدمات قد ساهمت نفسها بدرجة كبيرة على خلق الاسس الاقتصادية لهذه الخدمات . والدولة على قدر ما تتمتع به من اشكال اللامركزية تؤمن هذه الخدمات سواء بطريقة مباشرة او عن طريق المؤسسات المستقلة والمعاهد أو الجمعيات والمعامل والبنوك والسكك والغابات والحدائق والفنادق والمسابح ودوائر التعهد والمقاولين والسينمات والمسارح والخ .. والادارة نفسها بموظفيها المدربين تقوم بنشاط في مجالات الاعمال والاشغال ، ولغرض ان تقوم الادارة بتنفيذ خططها الاقتصادية وتنجز الجانب العملي من الادارة فانها كسائر المواطنين الذين يقومون بأعمالهم التجارية والحرفية ، تحتاج الى حرية العمل والتصرف . ولكن الحرية التي تمنح للسلطة التنفيذية في العمل ، كما بينا سابقا ، تعني تضييق حرية افرد المواطن . ولحد الان نجد ان التشريع النمساوي قد بقي غير متأثر ولا شاعر بهذه الاوضاع وما جريات الشؤون

فهو يرى بانه يستطيع ان يعمل بالقاعدة القانونية التي كانت تتبع في القرن التاسع عشر • ومن المؤلم حقا انه لايزال متعلقا بالفكرة التي يطلق عليها « منافع المشروع الشخصى » وهى الفكرة التي اتخذها التشريع في الايام القديمة لمعارضة فكرة « ممارسة السيادة والسلطة » • ولا ريب في ان التشريع في الازمان القديمة قد قدم خدمة كبيرة لقضية الحرية بايجاد هذا التمييز • فان ممارسة السيادة ، ذلك النوع من العمل التنفيذى الذى كانت الدولة فيه تصدر الاوامر القسرية الجبرية قد اخضعت لرقابة القانون •

وحيث ان تصرف الحاكم المطلق سابقا كفرد من الافراد يعطى له الحق في ان يعامل معاملة أى فرد اخر ووضعه في نفس مستوى المواطنين لهذا ليس هناك اكثر منطقيا من ان تمنح السلطة نفس الحق القانوني الممنوح للفرد في التصرف بملكيته • اذ اخذ مكان هذا الحاكم المطلق موظفو السلطة الادارية في المجتمع الحديث • الا ان القاعدة بان الدولة خارج « ممارستها للسيادة » يجب ان تعامل كفرد عادي بحيث يمكنها ان تتصرف باموزها بكامل الحرية كانت ما تزال مأخوذا بها ومعتبرة • والنتيجة التى كان لابد منها هى : نقل سلطة فعالة متزايدة الى حقل استعمال المشروع الشخصى الادارى وهنا أمكن ايجاد وضع مناسب غير مقيد بالقيود القانونية على قدر ما يتعلق الامر بالسلطة •

وفي مجال « المشروع الشخصى » يوجد هناك قوة اقتصادية هائلة مخزونة باسم الشعب • وهى قوة يمكن بواسطتها ان تصبح خطط الدولة الحديثة كموزع للخدمات حقيقة لا جدال فيها • والاهمية العملية لهذا هي ان عملاء الادارة خارج مجال السيادة هم لدرجة كبيرة معفوون من رقابة القانون • غير انه يتبع ذلك ان الشخص الذي له معاملات في هذا المجال من المشروع الشخصى الذى تمتلكه الدولة أو يريد التعامل أو كان عليه ان يتعامل في هذا المجال مع وكلاء الادارة فأنه لا يتمتع بنفس الحماية القانونية كما لو كان يتعامل معها عند ممارستها السيادة •

واخيرا ولو ان الصفة الخيالية لهذه المذاهب القانونية التى أبطلت منذ وقت طويل وخطرها على القانون والحرية قد سجل الا ان القاعدة التي تقول : « بأن الدولة تستفيد من سلطتها في ممارسة السيادة وتستغنى عنها عند دخولها في مجال المشروع الشخصى » لاتزال جزأ من التطبيق القانونى في الحياة اليومية » •

ومما هو معروف بالتأكيد بصورة عامة بأن نص المادة ١٨ من الدستور النمساوى الفقرة (١) الذى بموجبه تستند جميع الفعاليات الادارية للدولة على أساس القوانين فانه ينطبق على دخول السلطة الادارية في المشروع الشخصى غير ان النتائج القانونية الناشئة عن هذه القاعدة الاساسية التي ذكرناها والتي تطبق على ممارسة السيادة لا تطبق على الدولة في « المشروع

الشخصي » • ومن المؤكد انه ليس من السهل تقييد فعاليات العمل للدولة بالقواعد القانونية بصورة يمكنها معها من ادارة شؤون أعمالها بدون ممارسة سلطتها التحكمية • وكذلك الحال بالضبط في مجال القانون التجاري اذ يجد المرء نصوصا تشير الى حريسة التصرف والسلطات غير المحدودة وعبارات مطاطية • ومع ذلك فهناك أمثلة عديدة مشجعة والتي تشير الى السبيل الى نظام معقول لمثل فعاليات الادارة هذه • وفي الاخير فان الاعتراضات التي قدمت تجاه شرعية فعاليات المشروع الشخصي فهي تشبه بالحرف الاعتراضات التي قدمت في بداية عهد سيادة القانون تجاه شرعية السلطة التنفيذية نفسها •

ولا نشك بان فكرة فعاليات المشروع الشخصي التي فقدت الان معناها ستزول في يوم ما كما زالت غير مأسوف عليها فكرة الادارة المستبدة المطلقة •

ان المرء لا يمكنه ان ينكر الحقيقة وهي ان مبدأ شرعية العمل الادارى للسلطة التنفيذية سيكون له مستقبل زاهر مثلما يبدو في الحقل الخارجي الدولي من تقدم عظيم في تنظيم وتقنين القانون الدولي العام • وتبدو هذه الحقيقة وكأنها احدى نتائج توحيد وتماسك الانظمة القانونية المتعلقة بالبلديات في كل مكان ومن الجهة الاخرى فان هذا التماسك نفسه هو نتيجة من نتائج توحيد القانون الدولي العام • فان الانظمة القانونية التي يحكمها مبدأ شرعية العمل الادارى لا يمكنها ان تمنح حرية اكثر الى اجهزتها التنفيذية المدعوة لعقد المعاهدات او لتمثيلها بأية طريقة في الخارج مما تتمتع به هذه الاجهزة في الداخل • وقد أوضح ذلك كذلك في النظام القانوني النمساوي فبموجب المادة ٥٠ الفقرة (١) من الدستور النمساوي تتطلب المعاهدات السياسية والمعاهدات التي تستتبع تعديل القانون البلدي الى مصادقة مجلس النواب (البرلمان) قبل ان تصبح نافذة • والقرارات التي يصدرها مجلس النواب بالمصادقة يجب بناء على المادة ٥٠ الفقرة (٢) ان تتفق والشروط القانونية الموضوعة من أجل القوانين الدستورية •

وبموجب المادة ٩ من الدستور تعتبر قواعد القانون الدولي العام المقبولة بصورة عامة كجزء من القانون الاتحادى النافذ المفعول • وبهذه الطريقة تصبح أجهزة الحكومة النمساوية مقيدة بالقانون في تعاملها مع الدول بعيدا عن المعاهدات •

ومن الواضح أنه كما هو الحال في داخل الدولة عندما يتعلق الامر بالفرد فان ثبات عمل الحكومة واتزانه الناتج من القيود القانونية يجعل من السهل على اعضاء العائلة الدولية الاخرين ان يتنبئوا عن اعمال الحكومة المستقبلة والحقيقة ان تقدير المرء الواثق عن العمل المستقبل هو عنصر هام للقانون والثقة والنظام والسلام ، ليس فقط في القانون البلدى ولكن في العلاقات بين الدول • ومن الجهود التي تبذل في سبيل الحصول على

السلام يمكن للمرء ان يشاهد اليوم المراحل الاولى في انشاء الدولة العالمية وسيادة دولة القانون العالمية وهي خاضعة لمبدأ شرعية العمل الاداري . وهذا يبين بان هذا المبدأ هو اكثر من مبدأ قانوني نظري وهو ما يصفه به أولئك النفر من الناس الذين يفضلون التصرف التعسفي للسلطة .

ان كاتب هذه السطور لا يدعي بطبيعة الحال بأن مبدأ شرعية العمل الاداري علاج يمكنه ان يحل ويعالج جميع المشاكل . وقد قيل سابقا بأن هذا المبدأ هو فقط باتحاده والتقائه مع المبادىء الدستورية الاساسية الاخرى يمكن ان يضمن بقاء ودوام سيادة القانون في الدولة أو سيادة دولة القانون . واضافة الى ذلك ان انشاء كل هذه المبادىء يعني انه يجب ان يكون هناك رجال لهم الاستعداد الكامل لتطبيقها هنا وهناك ، لان المبادىء لا يكون لها قيمة الا بنتائجها في الحياة اليومية واثبتت هذه النتائج انها ذات قيمة . والواقع هو شيء مادي ثابت وملموس . وهناك اعتراض يقدمه اولئك الذين يفضلون العمل التعسفي وهو اعتراض يحمل في طياته السذاجة المؤسفة كما ان من انصار هذا الاعتراض بعض رجال القانون الخياليين الذين يحلو لهم العيش في الماضي ومجمل هذا الاعتراض هو أن مبدأ شرعية العمل الاداري يستوجب اصدار قوانين عديدة جدا وان القوانين العديدة شيء ضار وغير مستحسن . مع ان هذه القوانين العديدة ليست من نتاج المبدأ القائل بأن السلطة التنفيذية يجب ان تكون مسؤولة بموجب القانون . لان القوانين العديدة تعزى الى الحقيقة وهي ان السلطة العامة اصبحت متصلة اتصالا وثيقا بحياة الرجل الحديث وموجودة في كل مكان . كما ان ذلك ليس من نتائج القانون وانما هو من نتائج العصر الفني الذى نعيش فيه عصر الاقتصاد والسياسة والسلطات العامة الاخرى التي تقرر حياة المجتمع . ان رجل القانون الذى يجابه بمثل هذا النوع من الاتهامات غير العادلة وغير المنصفة يجد نفسه بمثل موقف الطبيب الذي يتهم بعلاجه للامراض العديدة بالعديد من الادوية والذي يقال له بأنه من الافضل ان يكون الانسان صحيحا ومعافى بدون دواء . وفي الحقيقة انه من الاصح أن يكون الانسان صحيحا بدون دواء كما انه من الاصح ان يعيش الانسان بدون قوانين في دولة العدل والحرية والسلام . ولكن مادام الطبيب يكافح الموت كذلك رجل القانون عليه ان يناضل ويكافح الظلم والجور والتعسف الى أمد الحياة .

مقابر قريش
أو
الكاظمية

الشيخ محمد حسن آل ياسين

- ٢ -

في الشهر الاول من عام ٦٥٦ هـ حاصر الجيش المغولي بغداد ، وتم احتلالها يوم الاثنين الثامن عشر من المحرم(١) أو بعد ذلك بأيام ، ورافق هذا الاحتلال عدد من حوادث التخريب والتلف وضروب من المصائب والنكبات .

وعلى الرغم من خروج بلدة المشهد الكاظمي عن خط زحف الجيش المحتل وعدم وجود أية قوة عسكرية عباسية فيها فقد أصيبت بشيء من ذلك الخراب العام ، كما أصيب المشهد نفسه بالحريق ، وسارع الوزير ابن العلقمي الى الامر باصلاح ما تلف وتجديد ما اندثر من البلدة ، كما قام صدر الوقوف شهاب الدين علي بن عبدالله بعمارة ما اتلفه الحريق في المشهد المطهر(٢) .

وما ان أطل القرن الثامن حتى كانت المدينة قد سارت اشواطا في طريق تقدمها ، عاجة بسكانها ، صاخبة بزوارها والقادمين اليها .

ويصفها حمد الله المستوفي فيذكر انها مدينة صغيرة ، وان سكانها — في أوائل القرن الثامن — ستة آلاف نسمة(٣) .

وصلاح الدين الصفدي يقول : ان بغداد عبارة عن سبع محلات لا تفتقر محلة منها الى غيرها ، على شاطىء دجلة ، ثم عدها وذكر ان الخامسة منها مشهد موسى بن جعفر وانها مسورة(٤) .

وفي أخريات القرن السابع وأوائل الثامن بدأ استعمال لقب « كاظمي » ومنحه لمن كان يسكن الكاظمية ، فقد ذكر الحسن بن داوود في ترجمة السيد عبدالكريم بن طاووس انه : حلي المنشأ بغدادي التحصيل كاظمي الخاتمة(٥) .

والمؤسف أن تظل معلوماتنا عن هذه الفترة وما طرأ على الكاظمية خلالها

ضئيلة جدا بل بحكم العدم ؛ بالنظر الى قلة المصادر التاريخية من جهة ؛ والى اهتمام المصادر باخبار الملوك والحروب وما كان على شاكلتها من جهة أخرى ، ولهذا بقيت المعلومات البلدانية والعلمية والرجالية بشكل عام قليلة لا يتسنى العثور عليها الا عرضا وفي ضمن مواضيع أخرى .

ونقدم في أدناه جريدة بالحوادث والآفات التي أصابت البلدة خلال هذه الفترة المنتهية بالاحتلال الصفوي للعراق ، وهو ما أمكننا العثور عليه في مجموع ما رجعنا اليه من كتب ومراجع :

غرق بغداد وأطرافها بما فيها مقبرة ابن حنبل سنة ٧٢٥ هـ(٦) .

طاعون عام انتقل من أطراف الدجيل الى الكاظمية ثم بغداد سنة ٧٤٩ ـ ٧٥٠ هـ(٧).

فيضان عظيم سنة ٧٥٧ هـ(٨).

غرق أطراف بغداد سنة ٧٦٥ هـ(٩) .

غرق بغداد وأطرافها سنة ٧٧٥ هـ(١٠) .

خراب وقتل ونهب في بغداد وما حولها سنة ٧٩٥ هـ(١١).

وباء وغلاء سنة ٧٩٧ هـ(١٢)

طاعون في العراق سنة ٨١٩ هـ(١٣) .

خراب وغلاء ووباء وجراد سنة ٨٣٥ هـ(١٤) .

وباء عام في بغداد وجميع البلاد المجاورة لها أهلك الحرث والنسل سنة ٨٤١ هـ(١٥).

ثلج عظيم أهلك النخل والشجر سنة ٨٥٨ هـ(١٦).

طاعون مات فيه خلق كثير سنة ٨٧٤ هـ(١٧).

طاعون عام سنة ٨٩٧ هـ(١٨).

وفي أوائل القرن العاشر الهجري دخلت الكاظمية عهدا جديدا من الشأن والاستقلال الاداري الداخلي ، وأصبحت مدينة لها كيانها ودورها في الشؤون العامة .

وبدأت المقدمات التمهيدية لهذا العهد الجديد في سنة ٩١٤ هـ وهي سنة احتلال الشاه اسماعيل الصفوي بغداد وسيطرته على العراق ، فقد زار الكاظمية وأمر بتشكيل ادارة خاصة بالبلدة ومحكمة شرعية يرأسها قاض يحمل لقب « شيخ الاسلام » ، اضافة الى أمره بتشييد المشهد الكاظمي تشييدا رائعا فخما وتعيين الرواتب لخدام المشهد والمسؤولين عنه .

ولكن العهد الصفوي لم يدم طويلا ، بل سرعان ما أزاله السلطان سليمان القانوني الذي دخل بغداد محتلا فاتحا في يوم الاثنين الرابع والعشرين من جمادي الاولى سنة ٩٤١ هـ ، ولكنه لما زار الكاظمية بعد برهة من الزمن أمر بابقاء أوضاعها على ما كانت وباكمال بعض ما لم يتم من عمارة المشهد ، وأقر رواتب خدام المشهد وسدنته .

وحفلت القرون الاربعة الاخيرة ـ أي منذ الاحتلال الصفوي الى نهاية

الاحتلال العثماني ـ بما لا يمكن وصفه من مآسي الاوبئة والطواعين والغرق، وكانت من العنف والشدة والتتابع بحيث حدت كثيرا من تطور الكاظمية وتطور العراق كله ٠

وحسبك من فظائع الاوبئة والطواعين والحميات القاتلة ما وقع سنة (٩٦٣) و (١٠٤٥) و (١٠٨٠) و (١١٠١) و (١١٠٢) و (١١٣١) و (١١٥٢) و (١١٨٦) و (١٢١٦) و (١٢٤٦) و (١٢٦٢) و (١٢٩٤) و (١٢٩٨) و (١٣٠٢) و (١٣٢٨هـ) ٠

وحسبك من مآسي الغـــرق والفيضانات ما حـــدث سنة (١٠٦٨) و(١١٠٥) و(١١٨٦) و(١٢٠٢) و(١٢٤٦) و(١٢٥٥) و(١٢٦٠) و(١٢٩٤) و(١٢٩٤) و(١٣٠١) و(١٣١٧) و(١٣٣٣هـ) ٠

هذا كله مضافا الى قحط سنة ١١٠١هـ وزلزال سنة ١١١٤هـ وهجوم شمر على الكاظمية سنة ١١٧٢هـ وهجوم بعض العشائر عليها سنة ١٢٢٩هـ وقحط سنة ١٢٦٤هـ وغلاء سنة ١٢٧٧هـ وغلاء وقحط سنة ١٢٨٨ـ١٢٨٩ وقحط سنة ١٢٩٧هـ ٠

وعلى الرغم من كل هذه العوائق المانعة لأي تقدم وازدهار فقد سارت الكاظمية بخطوات ثابتة في طريقها الطويل ، وحافظت على كيانها الخاص خلال العهد الصفوي الأول فالعهد التركي الاول فالعهد الصفوي الثاني ثم العهد التركي الثاني والاخير ٠

ولما قرر الاتراك ـ في عهدهم الثاني ـ نظام الالتزام أو الضمان الاداري كانت الكاظمية احدى المدن المشمولة بهذا القانون ٠

وخلاصة فكرة هذا الضمان أن تضمن حكومة بغداد هذه المدينـــة أو تلك لمن يطلب ضمانها بعد مزايدة يشترك فيها طالبو الضمان ويفوز بها من تقف عنده المزايدة ـ وقد يفوز بها شخص معين بمبـــلغ معين من دون مزايدة ـ ، ويدفع الضامن الذي يرسو الضمان عنده جزءا من المبلغ معجلا ، ويؤجل دفع الجزء الاخر الى أجل مسمى ، ويعطى للملتزم حـــق التصرف المطلق في البلدة لاستحصال المال الذي ضمنه للحكومة وما يفرضه لنفسـه من فوائد اضافية ، وتتعهد الحكومة بمساعدته أدبيا وعسكريا على تحصيل ذلـــك ٠

ويكون الملتزم ـ بعد هذا أو قبله ـ حرا طليقا في التصرف بمقـدرات الناس وشؤونهم بموجب هواه وشهواته وأطماعه الذاتية ٠

وقد استطعنا بعد الفحص في الكتب والاوراق المخطوطة والمجاميـــع القديمة أن نعثر على أسماء جل هؤلاء الملتزمين الذين يعود تاريخ أقدمهم الى أواخر القرن الحادي عشر أو أوائل الثاني عشر (يراجع الملحق رقم ـ١ـ) ٠

ولما دخل مدحت باشا بغداد واليا على العراق كان من جملة أعمالـــه الاصلاحية الغاء حكومة الضمان والالتزام وتعيين موظفين اداريين يتناولون رواتبهم من خزينة الدولة ، كما جعل الكاظمية قضاءا يديره (قائم مقام)

بعد أن أضاف الى حدود الكاظمية الادارية سائر الاراضي والمقاطعات المجاورة ·

وبعد كثير من البحث والتنقيب في أجزاء من « السالنامات » التركية وأعداد من جريدة الزوراء وأكداس من الاوراق والمستندات الخطية استطعنا أن ننظم جدولا بأسماء « قوام المقام » الذين حكموا الكاظمية من سنة ١٢٨٦هـ حتى نهاية الحكم التركي سنة ١٣٣٥هـ (يراجع الملحق رقم ـ٢ـ) ·

وتوالت الاصلاحات العمرانية على الكاظمية خلال مدة حكم مدحت باشا ، وكان في طليعتها أمره بتأسيس شركة الترامواي لتسهيل شؤون النقل والمواصلات بين الكاظمية وبغداد ، على أن يكون مجموع السهام ٦٠٠٠ سهم وثمن السهم الواحد ٢٥٠ قرشا ليكون مجموع راس مال الشركة مليونا ونصف مليون من القروش ·

ومدت السكة الحديد لمسافة سبعة كيلومترات بين بغداد والكاظمية ، وكانت العربات تجرها الخيول ·

ولما قرر ناصرالدين القاجاري ملك ايران زيارة العتبات المقدسة في العراق سنة ١٢٨٧هـ قامت الحكومة بادخال بعض التحسينات أو الاصلاحات على طرق الكاظمية ومرافقها البارزة تمهيدا لهذه الزيارة ·

وفي نحو سنة ١٣٠٢هـ أمر المشير هدايت باشا قائد الفيلق العسكري السادس في بغداد بعمل جسر من الخشب عائم بين الكاظمية والاعظمية على نهر دجلة ، وبذلك ارتبطت الكاظمية بالجانب الشرقي من بغداد بعد أن ارتبطت بالجانب الغربي منها بواسطة الترامواي ·

وفي يوم السبت ٢٤ رجب سنة ١٣١٨هـ تم وضع الحجر الاساس لبناء سراي الكاظمية ، وأقيم احتفال بهذه المناسبة حضره الوالي نامق باشا والمشير أحمد فيضي وغيرهما من رجال الدولة والوجوه ·

وعلى الرغم من قلة ما بأيدينا من المعلومات فالنتف المارة الذكر تستطيع أن ترشدنا الى استمرار التقدم في البلدة خلال تلك الفترة ·

ويؤسفنا جدا أن تعدم تلك الفترة جداول احصاء تلقي الاضواء على وضع البلدة من النواحي البشرية والاقتصادية والعمرانية ، سوى بعض الاشارات المقتضبة التي لا تشبع نهم الباحث ، ولكنها لا تخلو من الفائدة على كل حال ·

فلقد روى المنشي البغدادي انه كان في الكاظمية في سنة ١٢٣٧هـ ثلاثة آلاف بيت[١٩]· ولو قدرنا سكان كل بيت بما معدله خمسة أفراد كان مجموع سكان المدينة خمسة عشر ألف نسمة ·

وحدثتنا أوراق مخطوطة تاريخها سنة ١٣٣٢هـ : ان سكان الكاظمية في تلك السنة كان عددهم ١٣٫٩٤٢ نسمة ·

وعدد الدور فيها ٢٨٠٧ ·

وعدد معامل الطابوق « الكور » ٤٢ كورة ·

وعدد المواشي في قضاء الكاظمية ١٦٨٠٠٠ رأس من الاغنام والجاموس والابل ٠

وعدد النخيل ٥٤ر٠٠٠ نخلة مثمرة ٠

ومجموع الخانات في البلدة ٣٥ خانا ، وقد سيطر عليها الجيش العثماني ابان الحرب العالمية الاولى فجعلها دور نقوه « نقاهت خانه » ومستشفيات « خسته خانه » ومراكز عسكرية ٠

أما الوضع العلمي والفكري للكاظمية فكان أكثر تقدما واتساعا وعمقا من وضعها العمراني ، وأنجبت هذه البلدة خلال فترة الحكم التركي الاخير وما قبلها عددا كبيرا من الفقهاء والادباء والشعراء والمفكرين والاطباء ـ من ذوي الدراسات اليونانية في الطب ـ مما لا يتسع المجال لذكرهم واستيعابهم في هذا العرض السريع ٠

وضمت الكاظمية بين جوانحها مجموعة من المدارس الدينية التي تعنى بتدريس العلوم الاسلامية ، وكانت عامرة زاهرة بطلابها وأساتذتها ، وفي طليعتها مدرسة الفقيه السيد محسن الاعرجي المؤسسة في أوائل القرن الثالث عشر ، كما ضمت البلدة عددا كبيرا من المكتبات الضخمة الحافلة بنفائس المخطوطات وأمهات الكتب ٠

وان صح ما يروى من تأسيس أول مطبعة حجرية عراقية في الكاظمية (٢٠) فان ذلك يعد ايضا في قائمة النشاط العلمي لهذه المدينة في النصف الاول من القرن الماضي ٠

أما دراسة الاطفال وتعلمهم القراءة والكتابة فكانت موكولة الى الكتاتيب الكثيرة المنتشرة في أطراف البلدة ، حتى كانت سنة ١٣٢٧هـ حيث أسست مدرسة ابتدائية خاصة بأولاد الايرانيين الساكنين في الكاظمية باسم « مكتب اخوت ايرانيان » ٠

وفي سنة ١٣٢٨هـ قرر فرع جمعية الاتحاد والترقي التركية في الكاظمية تأسيس مدرسة ابتدائية لتعليم الاولاد ، وفتحت أبوابها في نفس السنة ، ولكنها سرعان ما انهارت لعدم الموارد المالية ٠

وفي ضحى يوم الجمعة الرابع من شهر ذي القعدة سنة ١٣٣٢هـ جرى احتفال مهيب لافتتاح المدرسة الجديدة في الكاظمية بجوار سراي الحكومة ، وقد حضر هذا الاحتفال جل رجالات البلدة وشارك بالحضور فيه جاويد باشا والي بغداد والسيد عبدالرحمن افندي النقيب والقوماندار محمد باشا الداغستاني ٠

* * *

ومن الناحية السياسية كان للكاظمية رأي وصوت في الشؤون والمشاكل العامة منذ العهد الصفوي الاول حتى نهاية العهد العثماني الاخير ٠ وكان أبرز مواقف الكاظمية السياسية موقفها خلال الحرب العالمية

الاولى عندما هجم البريطانيون على البصرة ووصلت برقية من وجوه البصرة الى علماء الكاظمية بتاريخ يوم الاثنين ٢٠ ذي الحجة سنة ١٣٣٢هـ هـذا نصـها :

« ثغر البصرة الكفار محيطون به • الجميع تحت السلاح • نخشى على باقي بلاد الاسلام • ساعدونا بأمر العشائر بالدفاع » •

وقرئت هذه البرقية علنا فهاج الناس وماجوا ، وأغلقوا أسواقهم ، وعطلوا أعمالهم ، واجتمعوا في الصحن الكاظمي ينتظرون أوامر علمائهم ، فاصدر العلماء أمرا بوجوب الدفاع على كل مسلم ، وأبرقوا بهذا المضمون الى العشائر المحيطة بالبصرة ، ثم توالت الاجتماعات في الصحن الشريف منذ العشرين من ذي الحجة الى ١٢ محرم الحرام سنة ١٣٣٢هـ ، وألقيت الخطب المثيرة ، ورقى المنبر في بعض هذه الاجتماعات السيد مهـدي آل السيد حيدر ـ وكان رحمه الله من أقطاب العلماء الثائرين في الكاظمية ـ فوعـظ وحرض ، وأعلن خروجه بنفسه الى ميدان الحرب ، وتشكلت على أثر ذلك في اواخر ذي الحجة سنة ١٣٣٣ هـ جمعيـة بأسم « الجمعية الارشادية » برئاسة قائم مقام الكاظمية يومئذ محمد أمين أفندي وعضوية جمـلة من الفضلاء والاشراف لغرض جمع التبرعات النقدية والعينية للمجاهدين •

وفي يوم الثلاثاء ١٢ المحرم سنة ١٣٣٣هـ خرج السيد مهدي المذكـور قاصدا ساحة الحرب وبصحبته الشيخ مهدي الخالصي والشيخ عبدالحميد الكليدار وجماعة من المجاهدين ، وخرجت البلدة بأسـرها لتشييع ركب الجهاد الزاحف •

ثم تواردت على الكاظمية وفود العلماء الزاحفين نحو المعركة من النجف الاشرف وكربلاء ، وكانت البلدة تستقبل كل واحد منهم بمنتهى الترحاب والتكريم وتودعه بمثل ذلك ، ونذكر فيما يلي أسماء جماعة من هـؤلاء الاعـلام :

شيخ الشريعة الاصفهاني • السيد علي اغا الداماد • السيد مصطفى الكاشاني • الشيخ جعفر الشيخ عبدالحسن النجفي • الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء • الشيخ عبدالكريم الجزائري • الشيخ حسن علي القطيفي • السيد محمد السيد كاظم اليزدي • الميرزا مهدي نجل الآخوند الخراساني • الميرزا محمد رضا الشيرازي • الشيخ عبدالرضا آل الشيخ راضي •

وفي أواخر شهر صفر سنة ١٣٣٣هـ خلت الكاظمية من شبابها ، ولـم يبق فيها غير العجزة والنساء والاطفال ، وجميع رجالها بين جنـدي في صفوف الجيش النظامي أو مجاهد في ساحات القتال ، حتى أنفذ الله أمره ، وتراجع الغائبون زرافات ووحدانا ، وعاد السيد مهدي السيد حيـدر الى الكاظمية في ٢٨ ذي القعدة سنة ١٣٣٣هـ بعد أن أبلى هو ومن معه بـلاءا حسـنا •

واحتل الجيش البريطاني الكاظمية في الساعة التاسعة الغروبيـة

ودقيقتين من عصر اليوم السابع عشر من جمادي الاولى سنة ١٣٣٥هـ فطويت صفحة الاحتلال التركي من تاريخ العراق وبدأت صفحة جديدة هي صفحة الاحتلال البريطاني البغيض(٢١)٠

والى هنا ينتهي بنا الحديث فنمسك عنان القلم شاكرين مصلين ، واخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ٠

الملحق رقم ـ ١ ـ

« حكام الكاظمية في دور الالتزام »

١ ـ الحاج كاظم چلبي الكاظمي ، ويلقب بـ « الحجيجي » لانه حج في أيام صباه فدعي كذلك تصغيرا من « حاج » ، وهو أقدم من عثرنا عليه من حكام هذه العائلة التي لا نعلم في العصر العثماني أسبق منها في حكومة الكاظمية ، ويعود عصر الحاج كاظم الى أواخر القرن الحادي عشر أو أوائل الثاني عشر ٠

٢ ـ الحاج درويش الحجيجي كان حيا سنة ١١٥٠هـ ٠

٣ ـ ابنه عبدالرضا چلبي كان حيا سنة ١١٧٦هـ ٠

٤ ـ ابنه محمد أغا چلبي ٠

٥ ـ ابنه الحاج حسن چلبي ٠

٦ ـ أخوه الحاج بكر چلبي ٠

٧ ـ إبنه محمدعلي چلبي ٠

٨ ـ أخوه محمد صالح چلبي توفي سنة ١٢٤٢هـ ٠

٩ ـ ابن عمه عبدالوهاب چلبي تولى المنصب بعد وفاة محمد صالح سنة ١٢٤٢هـ وتوفي سنة ١٢٦٦هـ ، وكان سيء السيرة شديد الوطأة ، وقد ضرب المثل في الكاظمية به وبعصبيه ٠ وبموت عبدالوهاب هذا خرجت حاكمية المدينة من يد هذه الاسرة ومن يد الكاظميين ٠

١٠ ـ أحمد أفندي الماردلي تولى الادارة بعد موت عبدالوهاب چلبي ، وكان ظالما قاسيا شكل له حاشية يدعى كل واحد منهم بـ « الداروغة » لتنفيذ أحكامه ٠

١١ ـ مصطفى أفندي كان سنة ١٢٦٨هـ ٠

١٢ ـ حاج أحمد أغا كان سنة ١٢٧٠هـ ٠

١٣ ـ حسني بك حكم الكاظمية ما بين ١٢٧١ـ١٢٨٠هـ ٠

١٤ ـ حسين بك بن سليمان باشا كان سنة ١٢٨٠هـ ٠

الملحق رقم - ٢ -

قوام مقام الكاظميـــة

١ - القائم مقام عزيز أفندي كان سنة ١٢٨٦هـ
٢ - القائم مقام خلف أغا كان سنة ١٢٩٢هـ
٣ - القائم مقام جاويد أفندي كان سنة ١٢٩٣هـ
٤ - القائم مقام ضياء أفندي كان سنة ١٢٩٤هـ
٥ - القائم مقام عبدالله بك كان سنة ١٢٩٤هـ
٦ - القائم مقام رشدي (رشيد) باشا بن مشير باشا الكوزلي كان سنة ١٢٩٥-١٢٩٦هـ
٧ - القائم مقام عبدالوهاب أفندي كان سنة ١٣٠٠هـ
٨ - القائم مقام راقم أفندي كان سنة ١٣٠٣هـ
٩ - القائم مقام اسماعيل أفندي كان سنة ١٣٠٤هـ
١٠ - القائم مقام نعمةالله بك
١١ - القائم مقام أحمد بك
١٢ - القائم مقام نافع أفندي كان سنة ١٣٠٥هـ
١٣ - القائم مقام يعقوب أفندي كان سنة ١٣٠٦هـ
١٤ - القائم مقام رشيد افندي بن ابراهيم افندي كان سنة ١٣٠٦ هـ
١٥ - القائم مقام عبدالوهاب أفندي كان سنة ١٣٠٧هـ
١٦ - القائم مقام عبداللطيف أفندي آل المفتي ، تولى القائم مقامية مرتين ثانيتهما سنة ١٣١٥هـ
١٧ - القائم مقام يوسف رفعت أفندي بن حسن أفندي ، كان الى سنة ١٣١٤هـ ، وفصل لمدة بضعة أيام ونصب عبدالله أفندي وكيلا عنه ثم أعيد ٠
١٨ - القائم مقام ممتاز أفندي بن رشيد أفندي دفتري زاده تولى حكم الكاظمية مرتين الاولى سنة ١٣١٦هـ والثانية سنة ١٣٢٧هـ ٠
١٩ - القائم مقام أحمد سالم أفندي كان سنة ١٣١٩هـ
٢٠ - القائم مقام حمدي أفندي الباچەچي زاده كان سنة ١٣٢١هـ
٢١ - القائم مقام حيدر بك آل الحيدري كان سنة ١٣٢٣هـ
٢٢ - القائم مقام محمد راسم أفندي كان سنة ١٣٢٥هـ
٢٣ - القائم مقام رؤوف أفندي آل الچادرچي كان سنة ١٣٢٧هـ
٢٤ - القائم مقام ابراهيم ناجي أفندي بن يوسف أفنـــدي آل السويدي كان سنة ١٣٢٨هـ
٢٥ - القائم مقام حسن أفندي الجركسي كان سنة ١٣٢٩هـ
٢٦ - القائم مقام أحمد عارف أفندي السويدي كان سنة ١٣٢٩هـ

٢٧ ـ القائم مقام اسماعيل حقي بك قائد طابور الجندرمة كان سنة ١٣٣١هـ
٢٨ ـ القائم مقام عاطف بك كان سنة ١٣٣٢هـ
٢٩ ـ القائم مقام محمد أمين أفندي كان سنة ١٣٣٢هـ
٣٠ ـ القائم مقام يوسف كنعان كان سنة ١٣٣٣هـ
٣١ ـ القائم مقام شفيق بك وهو آخرهم انسحب سنة ١٣٣٥هـ

(١) الاقبال : ٥٨٦ ـ طبع طهران ـ

(٢) جامع التواريخ : ٢٦٣ ـ ٢٩٥ وصدى الفؤاد : ١٥ .

(٣) نزهة القلوب : ٣٥ ـ طبع ليدن ـ .

(٤) الغيث المسجم : ٦٣/١ ـ ٦٤ وقريب منه في مراصد الاطلاع : ٣٧٧ .

(٥) روضات الجنات : ٣٦ .

(٦) البداية والنهاية : ١١٨/١٤ وشذرات الذهب : ٦٦/٦ .

(٧) شذرات الذهب : ١٥٨/٦ .

(٨) العراق بين احتلالين : ٨٣/٢ .

(٩) العراق بين احتلالين : ١١٠/٢ .

(١٠) نفس المصدر : ١٣٢/٢ .

(١١) شذرات الذهب : ٣٧٧/٦ .

(١٢) العراق بين احتلالين : ٢٢٤/٢ .

(١٣) نفس المصدر : ٤٢/٣ .

(١٤) شذرات الذهب : ٢١١/٧ وبين احتلالين : ٨٠/٣ .

(١٥) العراق بين احتلالين : ٩٩/٣ ـ ١٠٠ .

(١٦) نفس المصدر : ١٤٥/٣ .

(١٧) نفس المصدر : ٢٣٩/٣ .

(١٨) شذرات الذهب : ٣٥٩/٧ .

(١٩) رحلة المنشي البغدادي : ٣٥ .

(٢٠) مجلة لغة العرب : ٢٠٦/٤ وتراجع مجلة عالم الغد : ٥١٤/٢ .

(٢١) كانت مصادر بحثنا لهذه الفترة الاخيرة شاملة لمجموعة كبيرة جداً من الكتب المطبوعة والمخطوطة والسندات والاوراق والمجاميع والجرائد والاغلفة : مما لم نجد لشرحها مجالا في هذه الاوراق .

البند في الأدب العراقي

عبد الرزاق الهلالي

مقدمـة

ليس من شك في ان الكثرة الغالبة من القراء ، بل الكثير من ابناء الامة العربية في مختلف اقطارها لا يعرفون شيئا عن (البند) الذي شاع استعماله في الادب العراقي خلال القرون الثلاثة الماضية ، واختفى اثره او يكاد يكون دون ان ينال ما يستحقه من عناية واهتمام ٠

ونظرا لما تبديه الاوساط الادبية في دنيا العروبة هذه الايام من حرص في دراسة التطورات الفكرية التي طرأت على الاساليب الشعرية والكتابية ومن اهتمام بحركات التجديد في الادب العربي تلك الحركات التي نتج عنها (الشعر الحر) و (الشعر المنثور) و (قصيدة النثر) فقد رأيت من المفيد ان اقدم لقراء (الاقلام) الغراء هذه الدراسة المختصرة عن ادب (البند) في العراق وما يتصل به من قضايا ادبية وتاريخية اخرى ٠ فليس صحيحا ان يظل هذا الضرب من الادب في زوايا النسيان لا يعرفه الا قلة من ادباء العراق والا البعض من مؤرخي الادب العربي ودراسية ٠

ما هو البند اذن ؟

ان كلمة البند فارسية الاصل ذات معان متعددة ، عرب بعضها وورد في معاجم اللغة العربية منها ما يعنى (العلم الكبير) او (علم الفرسان) او (اللواء الضخم) ومنها ما يشير الى ان من معاني (البند) : البحيرة ، الفصل والفقرة من الكتاب ، القيد ، والرباط ، الحيلة ٠٠ الخ وجمعه (بنود) غير ان هذه المعاني وغيرها كثير ، ليست هي المقصود فيما نحن بصدد البحث عنه ٠

ولعل خير تفسير لمعنى (البند) الذي نريد توضيحه هو ما نشرته مجلة (اليقين) البغدادية في عددها الاول الصادر في ١٦ نيسان عام ١٩٢٢ والذي سجله لها العلامة المرحوم الاب انستاس ماري الكرملي حيث قال :

« ومن معانيه (البند) ايضا : البيت ينظم عدة ابيات ويعاد ، وله قافية تختلف عن قوافي سائر البيوت » ٠

هل البند من مخترعات العراقيين ؟

ومن تتبع دراسات مؤرخي الادب العربي الذين عنوا بتسجيل تاريخ الادب في القرون المتاخرة يظهر لنا بعضها ان (البند) من الصناعات اللفظية التى شاع ابتداءها (منذ القرن السادس للهجرة) في الاندلس حتى ورثها (الخلف العاق) كما يقول الاستاذ المرحوم مصطفى صادق الرافعي في كتابه (تاريخ آداب العرب)[١] « فتجاوزوا اليها حقائق المعاني وتعبدوا الالفاظ وساعدتهم احوال الزمان فكان الواحد منهم اذا نظم قصيدة او كتب رسالة فتح بقلمه قبرا من قبور اللغة ولم تزل تلك حالتهم حتى انتصف القرن الثالث عشر فأخذت تلك الجراثيم تضعف ثم تتلاشى الى النهضة فماتت الا في بعض زوايا المساجد وبقيت في الزوايا خبايا » .

ومن تلك الصناعات التي بحث فيها هؤلاء المؤرخون كما هو معروف « لزوم ما لا يلزم » والقوافي المشتركة ، والقصائد المعراة ومحبوك الطرفين ، وذات القوافي ، والقوافي الحسية ، والتاريخ الشعري والتخميس والتشطير وما يقرأ نظما ونثرا ، والملاحن والالغاز والمعمى والاحاجي والبنود[٢] وما الى ذلك » . والثابت تاريخيا ان (البند) لم يكن معروفا في العراق وخارجه قبل اوائل القرن الحادي عشر للهجرة الا ان اول شاعر عرفه وسلك طريقه كان الشاعر العراقي المعروف بابن معتوق المتوفى سنة ١٠٨٧ هـ .

وقد اعتبر الاستاذ عباس العزاوي (ادب البنود) هذا « بذرة التجدد المشهودة في حياة الادب العربي عندنا في العراق خاصة »[٣] .

اما الاستاذ محمد الهاشمي صاحب مجلة اليقين البغدادية فقد قال (ان البند من مخترعات العراقيين أوهم اول من كتب به في اللغة العربية ، كما اخترع الاندلسيون الموشح المعروف[٤] وقد قال المغفور له العلامة السيد محسن الامين العاملي في كتابه (معادن الجواهر ونزهة الخواطر في علوم الاوائل والاواخر)[٥] بأن البند من (مخترعات اهل الحويزة) ولعل الذى حمله على هذا الرأي كون الشاعر ابن معتوق الموسوي من شعرائها غير ملتفت الى كون الحويزة والبصرة وما جاورهما من مناطق الجنوب تحت امارة حسين باشا آل افراسياب وان الشاعر المذكور قد سكن العراق مدة من الزمن وعلاقته به وثيقة[٦] .

صلة البند بالشعر الفارسى

ولقد ذهب الاستاذ عبدالكريم الدجيلي في كتابه (البند في الادب العربي) الى القول « بان البند قد اقتبسه ابن معتوق او غيره من الادب الفارسي اذ ان ذكره ورد في كتاب « المعجم في معايير اشعار العجم » الذى عرف البند بـ « موقوف المعاني » غير ان المستشرق الكبير المرحوم (ادوارد جرانفيل براون) أشهر من ارخ الادب الايراني ، لم يورد اي ذكر (للبند)

على الصورة التي بدا بها في الشعر العراقي ، حين سجل بحسور الشعر الايراني ، انما الذي ذكره منها (الترجيع بند) و (التركيب بند) وقد شرح لنا هذين النوعين قائلا :

« وهذان النوعان من القصائد الموشحة يشتمل كل واحد منهما على عدد من الوحدات تكون في العادة متساوية في عدد ابياتها وتكون كل واحدة منها قافية واحدة ويفصل بين الوحدة والاخرى بيت مستقل من الشعر ليبين لنا نهاية الوحدة التي سبقته وبداية الوحدة التي تليه فاذا تكرر بيت بعينه بعد نهاية كل وحدة (وهي ما تسمى بالبند) فأن المنظومة تسمى بـ (الترجيع بند) .

اما اذا تكررت ابيات مختلفة بعد نهاية الوحدات وكانت هذه الابيات متفقة القافية مع بعضها ومختلفة عن سائر الوحدات فان المنظومة تسمى في هذه الحالة بـ (التركيب بند) ويجب ان تجرى المنظومة من هذين النوعين على وزن واحد في جميع ابياتها »(٧) .

نموذج من البند

ويجدر بنا قبل ان ندخل في بيان مميزات البند وموقفه من الشعر او النثر ، ان نقرأ معا بندا من بنود (ابن معتوق) باعتباره اول شاعر نظم فيه قبل ثلثمائة عام تقريبا ليسهل امام القارىء متابعة البحث .

قال ابن معتوق (في وصف الآيات السماوية) :

« ايها الراقد في الظلمة ، نبه طرف الفكرة ، من رقدة ذي الغفلة ، وانظر أثر القدرة ، واجل غسق الحيرة ، في فجر سنا الخبرة ، وارن الفلك الاطلس والعرش ، وما فيه من النقش ، وهذا الافق الادكن ، في ذا الصنع المتقن ، والسبع السماوات ، ففي ذلك آيات ، هدى تكشف عن صحة اثبات ، اله كشفت قدرته عن غرر الصبح ، وارخت طرر النجح على نحر ضياء فغدا يغسل من مبسمه الاشنب في مضمضتي نور سناه لعس الغيهب واستبدلت الظلمة من عنبرها الاسود بالاشهب واعتاضت من مفرقها الحالك بالاشيب وانصاعت من خوف كميت الشفق المعلم ، دهم الغسق المظلم اذ سار من المشرق في سابقة الاشقر ، ملك فلك الاعظم ، وانبت من النور وأجرى لجج الليل بثوب السبج الاسحم كالسيل فاسود ، وابدى زبد النجم من خالص بلور وعسجد فكسته حلة النيل وحلته باكليل وجلته بصباح من البدر لاح ومن كوكب زهراء بقنديل ، ومن شهب ثرياه بمشكاة فسواه منيرا ، فهو الاول والآخر والباطن والظاهر ، والقابض والباسط والباعث والوارث ، والعادل والظالم في خائنة الاعين سرا وجها »(٨) .

هل البند شعر ؟

ومن انشاد هذا البند انشادا صحيحا لابد لنا ان نتساءل مع القارىء (الذي لم تقع عيناه على هذا الضرب من الادب قبلا) هل هذا الذي اثبتناه

هو من الشعر أم النثر أم شيء آخر ؟! ولكي تسهل علينا الاجابة لابد لنا من الرجوع الى من درسه من مؤرخي الادب عسانا نستطيع بعد الوقوف على آرائهم فيه ان تكون لنا رأيا خاصا في هذا الامر .

فالمرحوم الرافعي يرى البند «نوعا من السجع الذي بنيت جمله على التوقيع وقسمت الى أجزاء قصيرة من العروض تنتظم أوزانا مختلفة فتلبسها شبها من الشعر وهي ليست منه » .

اما الاستاذ محمد الهاشمي فقد اعتبره « ضربا من الكلام المسجع الموزون اشبه ما نسميه في هذه الايام[٩] (بالشعر المنثور) وبعض اساجيعه آتية على وزن (بحر الهزج) وهو :

مفاعيلـــن مفاعيلـــن مفاعيلـــن مفاعيلـــن

في حين يراه الاستاذ عباس العزاوي « اشبه ما يكون بالنظم الا انه أقرب الى النثر أو هو حلقة وسطى بينهما اذ لا كلفة فيه من جراء انه لا يلتزم بقافية وربما صح ان نقول انه (شعر حر) كما يسمى هذه الايام »[١٠] .

اما الاستاذ عبدالكريم الدجيلي فيقول :

« فهو ليس بالموزون المقفى فيعد من باب الشعر العربي المعروف ولا هو بالذي انتزعت عنه هاتان الصفتان (الوزن والقافية) فيكون من قبيل النثر وبابه فهو اذن الحلقة الوسطى بين النظم والنثر اقتضته شرعة التطور وأوجده عامل الزمن كما أوجد الموشح والرباعيات وأخيرا الشعر الحر وما شاكله » .

ثم يضيف الى ما تقدم قوله :

« واذا أردنا التعبير القويم عنه فهو أشبه بما نسميه اليوم (بالشعر المنثور) الا انه يختلف عنه بالموسيقى التي تكتنفه والايقاع الجميل الذي يأخذ بالالباب والفكر خاصة منه هذا المسجع وكثيره يعنى بالبديع وجمال اللفظ من ترصيع وازدواج وغيرهما » .

وهكذا ومن حصيلة هذه الآراء وما فصله البعض في دراسته يبدو ان (البند) في نظرهم يجري على بحر (الهزج) بينما يذكر لنا الشاعر المرحوم (السيد علي ابا ليل) المتوفى عام ١١٨٦ هـ بأنه نظم بنوده على وزن بحر (الرمل)[١١] .

الشاعرة نازك الملائكة والبند

وتعترف الشاعرة العراقية المعروفة الاستاذة نازك الملائكة بانها لم تكن قد سمعت بالبند قبل عام ١٩٥٣ على قوة اهتمامها بالشعر العربي ، لان كتب العروض (كما تقول) وكتب الادب المتداولة لم تشر له كما ان مدرسي الادب لم يذكروه في صفوفهم وحتى كبار الشعراء في عصور الادب الزاهرة لم

يمارسوا نظمه وانما اقتصر على استعماله شعراء العراق المتأخرون(١٢). ولقد توفرت على دراسة البند دراسة عميقة واحاطت به وبفنه احاطة تامة وأفردت له في كتابها (قضايا الشعر المعاصر) فصلا خاصا بعنوان (البند ومكانه من العروض العربي)(١٣) وقالت في مفتتح ذلك الفصل (ولقد ألف الشعراء الذين ينظمون البند ان يكتبوه كما يكتبون النثر بحيث يبدو لنا حين ننظر اليه وكأنه نثر اعتيادي) والبند في رأيها أقرب اشكال الشعر العربي الى (الشعر الحر) .

هل للبند مقياس عروضي ؟

لقد مر بنا ان بعض الكتاب قد قالوا بان شعر البند يستند الى بحر (الهزج) فلا يتقيد بأسلوب الشطرين اللذين تقيد بهما الشعراء العرب منذ أقدم العصور . ولكن الاستاذة (نازك) قد اكتشفت بعد دراستها المركزة له « ان القاعدة العروضية للبند ، هي انه شعر حر تتنوع اطوال اشطره ويرتكز الى دائرة (المجتلب) مستعملا منها الرمل والهزج معا » وقد وضعت خطة عامة للتفعيلات في البند رغبة منها في مساعدة الراغبين في نظم البند من القــراء(١٤).

وتعتبر محاولتها هذه أول محاولة لاستقراء مقياس عروضي للبنــد لاسيما بعد ان اهملته كتب العروض اهمالا ملحوظا لانها (الاستاذة) بعد ان درست وجهات نظر الذين مارسوا نظمه واعتبروه من بحر الهزج لا يتخطاه ويكتب على اسطر متتالية كما يكتب النثر رأت ان غير قليل من الشعراء قد حزر ان الهزج يتحول الى الرمل احيانا غير انهم لم يتنبهوا الى ضرورة التمهيد للانتقال وحسبوا ان ذلك يمكن ان يتم بقفزة من الهزج الى الرمل وبالعكس دون ان يفطنوا الى ان هناك خطة محكمة للوزن يتبعها (البند) وبها يصل الى تلك الموسيقية العذبة التي يمتلكها . كما رأت ان من هؤلاء الشعراء طائفة لم تلاحظ على الاطلاق ان البند يقوم على أساس (التفعيلة) وان ذلك فيه هو الذي يبرر تنوع أطوال الاشطر وهي الميزة التي اختص بها دون الشعر العربي السابق كله(١٥).

والبند حسب رأي الاستاذة نازك ذو خاصتين :

١ ـ انه شعر ذو أشطر غير متساوية الطول . وكلما كان تنوع الاطوال اوضح كان البند أكثر موسيقية واصالة .

٢ ـ انه شعر ذو وزنين هما (الرمل والهزج) يتداخلان تداخلا فنيا مستندا الى قواعد العروض العــربي فلا تختتم اشــطر الرمل الا بالضــرب (فاعلاتان) الذي يمهد لبحر الهزج فيصح ان يليه . وعندما يبدأ الهزج يستمر الشاعر عليه حتى يورد في آخر احد الاشطر الضرب (فعولن) الذي يمهد لبحر الرمل فيصح ان يعود ثانية وهكذا . واذا

اختل أي من هذين الشطرين كانت النتيجة نظماً آخر لا صالة له بالبند .

بند ابن الخلفة

ومن البنود الهامة التي ذاعت شهرتها في الاوساط الادبية العراقية (بند ابن الخلفة) وابن الخلفة هذا هو محمد بن اسماعيل كان اديبا شاعرا يعرب الكلام على السليقة وكان يتحرف بالبناء وتوفي عام ١٢٤٧ هـ . و (بنده) هذا ، هو الذي نظمه في مدح الامامين الكاظمين (ع) وها نحن اولاء نثبت قسما منه فيما يلي :

« الا يا ايها اللائم في الحب ، دع اللوم عن الصب ، فلو كنت ترى الحاجبي الزج فويق الاعين الدعج ، او الخد الشقيقي ، أو الريق الرحيقي ، أو القد الرشيقي ، الذي قد شابه الغصن اعتدالا وانعطافا ، مذ غدا يورق لي آس عذار اخضر دب عليه عقرب الصدغ ، وثغر اشنب قد نظمت فيه لآل لثناياهن في سلك دعقي احمر جل عن الصبغ ، وعرنين حكى عقد جمان يقق قدره القادر حقا ببنان الخود ما زاد عن العقد ، وجيد فضح الجؤذر مذ روعه القانص فانصاع دوين الورد يزجي حذر السهم طلا عن متنه في غاية البعد ، ولو تلمس من شوقك ذاك العضد المبرم ، والساعد والمعصم ، والكف الذي قد شاكلت انمله اقلام ياقوت فكم اصبح ذو اللب من الحب بها حيران مبهوت ، ولو شاهدت في لبته يا سعد ، مرآة الاعاجيب ، عليها ركبا حقسان من عاج ، هما قد حشيا من رائق الطيب ، او الكشح الذي اصبح مهضوما نحيلا ، مذ غدا يحمل رضوى ، كفلا بات من الرص ، كموار من الدعص ، ومرتج بردفين عليها راكبا من ناصع البلور ساقين ، وكعبين اديمين ، صيغ فيهن من الفضة اقدام ، لما لمت محبا في ربا البيد ، من الوجد بهسا هام ! أهل تعلم أم لا أن للحب لذاذات ، وقد يعذر لا يعذل من فيه غراما وجوى مات ، فذا مذهب ارباب الكمالات فدع عنك من اللوم زخاريف الحكايات ، فكم قد هذب الحب بليدا ، فغدا في مسلك الآداب والفضل رشيدا ، صه فما بالك اصبحت غليظ الطبع لا تعرف شوقا لا ولا تظهر توقا ، لا ولا شمت بلحظيك ، سنا البرق اللموعي ، اذا اومض من جانب اطلال خليط منك قد بان ، وقد عرس في سفح ربا البان ولا استنشقت من صوب حماه نفحة الريح ، ولا هاجك يوما للقاء من جوى وجد وتبريح ، لك العذر على انك لم تحظ من الخل بلثم وعناق وضم والتصاق ، وغرام واشتياق ، لم تكن مثلي قضيت ليسال سمح الدهر بها مذبات سكرى قرقف الريق بتحقيق ، فما قهوة ابريق ، ومشمومي ورد لاح في وجنة خد فاح لي عرف شذاه واذا ما جن ليل الشعر من طرته أوضح من غرته صبح سناه

لو ترانا كلنا يبدي لدى صاحبه العتب ويبدي فرط وجد مؤلم اضمره القلب سحيرا ، والتقى قمصنا ثوب عفاف قط ما دنس بالاثم سوى اللثم لاصبحت في الحيرة حتى جئتني من خجل تبدى اعتذارا ولاعلنت بذكر الشادن الاهيف سرا وجهارا » .

الاغراض التي طرقها البند

وقد تناول شعراء البند في القرون الثلاثة الماضية مختلف الاغراض الشعرية من مدح وهجاء ورثاء وغزل ونسيب وتشبيب وتصوف وما الى ذلك ، ولئن بانت على الكثرة الغالبة من تلك البنود ملامح التأثر بالافكار السائدة والآراء التي لا تتفق وآراء اليوم فلا لوم على الشاعر في منحاه لانه ابن بيئته وربيب مجتمعه ، فليس العيب (ان وجد) في البند ، ولكنه أثر المجتمع وثقافة العصر ! ومهما يكن من شيء فقد اثبت البند قدرته على معالجة مختلف قضايا الحياة وانه قابل للتطور ويا حبذا لو درس دراسة موسعة (كما درسته الاستاذة نازك) في مختلف الاوساط الادبية في البلاد العربية وعني به الشعراء المحدثون ، اذن لعرفوه ولاعجبوا بما فيه من جمل الموسيقى وعذوبة الايقاع وعزفوا عن ممارسة نظم الشعر الحر أو الشعر المنثور أو قصيدة النثر على الاقل !!

البند ويقظة العرب

وكمثال جميل على مسايرة البند لعصرنا الحاضر وقدرته على الاستجابة للاغراض والاهداف الوطنية ، هذا (البند) الذي نظمه الاستاذ ضياء شكارة المحامي في نهاية عام ١٩٥٧ بعنوان (يقظة العرب) نثبت منه مقدمته حيث يقول :

« الا يا ساهر الليل ، تناجي الليل يقظان ، وتقضي الليل حيران ، وقد ضاق بك الصبر ، وضاع الخبر والخبر ، فلابد من الفجر ليهدي كل انسان !

فقد طال بك الليل ، وما اسعفك النجم ، فمن عزم الى عزم ، فما ارهبك الحكم ، ولا روعك السقم ، ولا دنت الى الظلم ، وان مال بتهلان !!

ولا تسأل عن البرق، واني هو قد لاح، ففي مصر وفي الشام بدا للعين وضاح، يقصي الدرب للركب ويحيي الامل العذب ، وينجاب به الصعب ، ازدهارا بعد ازمان !!

ولا تأس على الماضي ، فان الامر قد جد ، ولا حت سحب النذر من الآفاق تمتد ، ولا عتبي ولاعتب اذا ما افتضح الصب ، أو اشتد به الكرب ، يريد الوحدة الكبرى من (الفاو) لـ (تطوان) !!

ولا تسأل عن العرب ، فما مثلي ينبيك ويشكيك ويبكيك ، ولابد من الشرح اذا ما اشكل الامر »

وهكذا وعلى نفس الاسلوب يأخذ الاستاذ في وصف كفاح الشعب العربي في اقطاره المختلفة من الخليج الثائر الى المحيط الهادر ، ويختم بنده هذا (بالعراق) اذ يقول :

« وان عدت الى الفيحاء واستشرفت بغداد ، فلا تسأل عن العهد وقد طال بك الجهد، واضواك السرى في البر والبحر، فلابد الى الاحرار يوما تبلغ القصد ، فتبدو لحظة الفجر ، تضيء الكون بالنصر ، وتحيي الامل القفر ، فلا مستعمر قدر ولا سارق للبذر ، ولا ظل لذي قصر ، ولا كيد ولا مكر ، ولا خطة للغدر ، واذ ذاك يطيب القول في السر وفي الجهر ، ويحلو النظم والنثر ، فاشدو وطني الغال ومن ضاقت به الدنيا لاجيال واجيال ، بانغام لها في القلب اشجان وبند مثل نور الشمس فتان !! »

خاتمـة :

وبعد فهذا هو البند وهذا هو موقفه في الادب العراقي ، كان لونا من الوان الادب العربي وضربا من ضروبه ، شاع استعماله كما رأينا منذ أوائل القرن الحادي عشر للهجرة فنظم فيه كثير من أدباء العراق والخليج العربي خلال الفترة التي انتهت في بداية النهضة الحديثة فلا عجب ان بقي مطمورا في المجاميع المخطوطة أو على السنة العامة • وقد شاء له الحظ ان يكون موضع عناية ودراسة عدد من أفاضل اساتذة الادب العربي ومؤرخيه ولو لا جهودهم المشكورة لظلت (البنود) في زوايا النسيان ولما استطعنا ان نقدم للقراء ماقدمناه لهم في هذه الصفحات عن البند وموقفه في الادب العراقي ومن ثم في الادب العربي فلهم منا مزيد التشكر والتقدير على ما بذلوه من جهد في هذا العمل •

---

(١) الجزء الثالث صفحة ٣٧٣ •

(٢) اسماها المرحوم الرافعي (البنود المستزادة) وهذا غير صحيح •

(٣) تاريخ الادب العربي في العراق ج ٢ •

(٤) مجلة اليقين العدد الثاني ٢٨ نيسان ١٩٢٢ •

(٥) ج ٣ دمشق ١٩٣٦ •

(٦) تاريخ الادب العربي في العراق ج ٢ •

(٧) تاريخ الادب ؟ ايران من الفردوسي الى السعدى • أدوارد براون ترجمة الدكتور ابراهيم امين الشواربي القاهرة ١٩٥٤ •

(٨) للوقوف على مجموعة من البنود راجع كتاب (البند في الادب العربي) عبدالكريم الدجيلي بغداد ١٩٥٩ •

(٩) يقصد بذلك عام ١٩٢٢ •

(١٠) تاريخ الادب العربي في العراق ج ٢ •

(١١) انيس الخاطر وجليس المسافر ، للشيخ يوسف البحراني •

(١٢) قضايا الشعر المعاصر ، نازك الملائكة ، بيروت ١٩٦٢ ص ٢٤ •

(١٣) نفس المصدر ص ١٦٧ وما بعدها •

(١٤) المرجع السابق ص ١٧٤ •

(١٥) المصدر ذاته ص ١٧٦ •

الغد المشرق

أنور خليل

وطن العرب الكبير
عشت في كل ضمير عربي مستنير
مهبط الالهام أو مسرى العبير

*
*

يا بلاد الخالدين .. العرب ....
عشت للاجيال ، للشعب الابي للرعيل الطيب
عشت اشراقا لعصر ذهبي

*
*

أمتي .. يا أمة الماضي المجيد ....
والغد المشرق .. بالعيش الرغيد كل يوم لك عيد
ان عيد الوحدة الكبرى سعيد

*
*

أمتي قودي ركاب الامم
بقوى الروح ونبل الشيم بالحضارات اسهمي
دورك الآن فيها أقدمي

*

محمود تيمور والمسرحية القصيرة

فوزي عبد القادر الميلادي

اللغة الفصحى هى اللغة المناسبة للطبع والنشر ... واللغة العامية هى اللغة التى تلائم الاداء المسرحي والاذاعي ... الخ . تلك هي فلسفة محمود تيمور في مشكلة اللغة في العمل المسرحي فالعرب على حد قوله أهل لغتين لغة كتابة وتدوين والاخرى لغة حديث وخطاب اما الاولى فيشترك فيها العرب على تباين مواطنهم من قديم وحديث واما الاخرى فتختلف فيها اللهجات بين موطن وموطن وبين عصر وعصر ...

من أجل ذلك حرص الاديب الكبير على أن ينشر جل مسرحياته وعلى الاخص الاجتماعية منها بلغتين فى وقت واحد فيضم الكتاب نسخة من المسرحية بالفصحي واخرى بالعامية .. وعلى هذا الدرب سار تيمور زمنا طويلا حتى عن له اخيرا ان يجمع مسرحياته القصيرة التى نشرها متفرقة ومن قبل بين دفتي كتاب واحد ... ويبدو انه استشعر ضخامة حجم الكتاب اذا نشره باللغتين معا .. فآثر أن ينشره بلغة واحدة .. ولم تكن كما قد يتوقع الكثيرون الفصحى ... ذلك ان الاديب المجمعى رأى ان يبدأ بنشر المجموعة باللغة العامية واعدا القراء أن ينشر النسخة الفصحى منها فى وقت قريب حتى لا تظل حبيسة نطاق محدود في بلد عربي واحد ... وقد برر هذا الاتجاه بأن المسرحيات التي يضمها الكتاب هي من المسرحيات « ذوات الموضوعات العصرية والجو المحلي » .

وآثر الاستاذ تيمور أن يسير فى الشوط الى النهاية فجعل لمجموعته عنوانا عصريا فاطلق عليها « خمسة وخميسه » وبحثت عن الخمسة والخميسه بين مسرحيات المجموعة الست فلم أجدها ... وفي نهاية الامر اكتشفت السر في تسمية المجموعة بهذا الاسم الرنان ــ أو هكذا على الاقل هيىء لي فالخمسة يعني بها المسرحيات الخمسة الاولى والخميسه هى

المسرحية السادسة « برقية » التي وردت في ختام الكتاب في ثلاث ورقات ونصف فقط لا غير ٠٠٠

وليست « لغة الحوار » هي الفارق الوحيد بين مسرحيات تيمور الاجتماعية ومسرحياته التاريخية التي نشرها بلغة واحدة هي اللغة الفصحى ٠٠٠ ذلك أن من يمعن النظر في كلا النوعين من المسرحيات يسترعى انتباهه فارقا هاما في البناء الفني للمسرحية ٠٠

فتيمور عندما يكتب مسرحية اجتماعية ٠٠٠ يختار بدقة ومهارة شخصياته من بين النماذج البشرية التي تعيش في مجتمعنا المعاصر ويدفع بهذه الشخصيات الى بعض المواقف الحرجة او الطريفة ٠٠٠ وما أن تبدأ الشخصيات فى الاندماج فى المسرحية حتى يتركها تسير فى طريقها الطبيعي الذى تسير فيه الحياة الاجتماعية ويقف بعيدا يصور بعدسته الفوتغرافية حركاتها وسكناتها وخلجاتها ويلتقط ما يدور على لسانها من حوار متدفق ٠٠٠ ويخرج في النهاية بشخصيات رسمت بعناية فائقة وبحوار يتسم بالصدق والبساطة وبتحليل بارع للنفس البشرية في مختلف حالاتها ٠٠٠ ولكن قليلا ما يخرج بعمل مسرحي متكامل ٠٠ ولعل أصدق مثال على ذلك مسرحيته الاجتماعية المخبأ رقم ١٣ ٠٠٠ فالمسرحية من أولها الى اخرها تدور حول تصوير مشاعر مجموعة من البشر يعيشون لحظات الرعب والهلع في مخبأ يقيهم من الغارات الجوية ٠٠ والمسرحية بعد ذلك ليس لها هدف محدد يشير نحوه ولا يرتبط أبطالها الا بأوهى الروابط التي تجمع مجموعة متنافرة من الناس التقت على غير موعد في ظروف عصيبة ورغم ذلك كله فالمسرحية صورة بارعة ناطقة لادق خفايا النفس الانسانية وهي تتأرجح بين الخوف والرجاء عندما يفزعها نذير الموت ويهدىء من روعها بشير الامان ٠٠٠

أما المسرحيات التاريخية فقد أولاها تيمور عناية تفوق بكثير عنايته بالمسرحيات الاجتماعية فهو يختار لمسرحياته ابطالا يتسمون بالجرأة والشجاعة (عبدالرحمن الداخل ــ امرؤ القيس الحجاج ــ عنتره) ويختار لقطات هامة من سيرتهم يمتزج فيها الواقع التاريخي بمحن واعاصير تجتاح حياتهم الاجتماعية والسياسية ٠٠٠ ومن خلال صراعهم مع الاحداث والاعداء ٠٠ تعمر المسرحيات بالحركة وتنبض بالحياة ٠٠٠

والمؤلف لا يملك ان يترك ابطاله هنا يسيرون ببساطة في الطريق الذى اختاروه لانفسهم ويكتفي بموقف التسجيل الفوتوغرافي ٠٠ لانه لو فعل ذلك لخرجت المسرحيات من نطاق الفن والادب الى مجال السياسة والتاريخ ولجاءت مسرحياته تسجيلا صادقا لاحداث التاريخ فحسب ولكنه ظل يتعهد ابطاله بالعناية والرعاية منذ السطور الاولى وعمد الى تطوير الشخصيات وخلق المواقف العصيبة بل أوجد شخصيات ليس لها أثر في كتب التاريخ ومع ذلك فقد وجدت مجالها الطبيعي في سير الاحداث حتى

يخيل للقارىء أن هذه الشخصيات قد وجدت وعاشت فعلا هذه الاحداث ولعل أصدق مثال على ذلك شخصية الاهوازيه التي كان لها أكبر الاثر في تطوير الاحداث في مسرحية « ابن جلا » ...

من أجل ذلك جاءت مسرحيات تيمور التاريخية (صقرقرين - اليوم خمر - ابن جلا) قمة انتاجه المسرحي وتخلفت عن هذه المكانة مسرحيـــة (حواء الخالدة) التي ترسم صورة من حياة عنتره لان الطابع الاجتماعي غلب على جو المسرحية فعنى المؤلف برسم الشخصيات وتحليلها أكثر مما عنى باحكام البناء المسرحي ...

وكنت أود أن يكون بداية حديثي عن مسرحيات تيمـــور هو عن مسرحياته التاريخية لكنني آثرت أن أخصص هذا المقال لمسرحياته القصيرة التي تضمنتها مجموعة « خمسة وخميسه » لانه أحدث مؤلف مسرحي صدر له ولان عنايته بجمع هذه المسرحيات واعادة طبعها ونشرها على هذا النحـــو يدل على أنه يولي مسرحياته اهتماما خاصا من الواجب ان يقابله اهتمام من النقاد والدارسين ...

والان الى مسرحيات الكتاب ...

« حكمت المحكمة » أولى مسرحيات المجموعة تروى قصة قروية (نظيمة) متزوجة من جزار (حفناوى) وقد رزقت منه ثلاث بنات تباعا .. ولما حملت فى المدة الرابعة انذرها بأنه لن يطيق أن يكون المولود الرابع أنثى وانه اذا حدث ذلك فسيذبح البنت فور ولادتها على باب البيت .. وطوال أيـــام الحمل كان لا يفتأ يكرر وعيده ملوحا بسكينه الطويلة التي يحملها بحكم مهنته في غدوه ورواحه ...

ويأتى اليوم الموعود وتضع نظيمة وليدها فاذا به انثى .. وتتزاحم الخواطر في رأسها ويتملكها الرعب .. وتزيد الحاجة خطوة القابلة مـــن رعبها فتؤكد لها أن زوجها الجزار لن يتورع عن أن ينفذ وعيده .. وتلعب الريح بالباب فيخيل للزوجة أن زوجها مقبل لا محالة لاتمام عملية الذبـــح فيرتعش جسدها من الخوف وتاخذ البنت الصغيرة وتجرى بسرعة تاركـــة البيت وكلما أسرعت في سيرها هيىء لها أن زوجها يطاردها والسكين في يده ويصرخ طالبا منها الوقوف والامتثال لامره .. وتدخل المرأة مـــزارع القطن وهى تحتضن ابنتها الوحيدة ولا يزال يرن في اذنها صوت زوجهـــا يناديها فتهرع الى الساقية وتقف امامها ثم تفتح ذراعيها وتقول في وديعة الله يا بنتى فتسمع صوتا لارتطام البنت بالقادوس ...

وفي الصباح يعثر الخفير على البنت فاقدة الحياة في الساقية وعلى الام نائمة بجوار الساقية وتساق الام الى التحقيق وأمام وكيل النيابة يبـــدأ التحقيق ويبدأ حوار المسرحية .

يسألها وكيل لنيابة عن واقعة رمي بنتها في الساقية .. فتعجب لهذه التهمة أشد العجب وتتساءل كالمذهولة هل من المعقول أن تقتل أم ابنتها ..

لقد كانت البنت على حد تعبيرها (عيونها خضر زى البرسيم البدري وشعرها أسود ناعم زي القطيفة الخفافي ٠٠ ووشها أبيض زي القشطة الصابحة) ويقاطعها الخفير من وقت لاخر فتدخل معه في مشادة تتهمه فيها بالكذب والضلال ٠٠ وفي نوبة ذهول تروى في كلمات متقطعة القصة كما عرضناها٠٠ ويطمئن المحقق الى أنه أتم مهمته باعتراف الام الكامل بالجريمة وملابساتها لكنه يفاجىء بها بعد ذلك تستغرق في غيبوبة قصيرة تفيق بعدها اوهى لا تذكر شيئا مما قالته ٠٠ بل ولا تعرف لماذا توجد في ذلك المكان ٠٠ وتتساءل أين هي فيجيبها الخفير في غلظة (انتي في النيابة ٠٠٠ قدام حضرة الباشا) فتصيح مذعورة (النيابة ٠٠ النيابة ليه ٠٠ سرقت سريقة ٠٠ قتلت قتيل ٠٠٠٠) فيجيبها وكيل النيابة (أيوه قتلتى بنتك) فتصيح (بنتي ٠ ؟ ٠ ؟) ولما يعجب المحقق من انكارها المفاجىء بعد أن اعترفت صراحة أمام الجميع بفعلتها تهمهم (انكر ٠٠ انكر ازاى ٠٠ انكر ايه ٠٠ بقى حاصدق نفسي واكذبكم كلكم يا حضرة القاضي ٠٠ عيب ٠٠ عيب ٠٠) وعلى هذا المنوال من الانكار الممزوج بالاعتراف أو الاعتراف المشوب بالانكار يسير الحوار في المسرحية ٠٠ وفي النهاية تطأطىء رأسها في استسلام ثم ترفعها بغتة وتدور بنظرات متحيرة تلتمع خيالا وتصيح (أنا أقتل بنتي ٠٠ بصوا لي كويس ٠٠ أنا وش قتل ياناس يا أهل الخير ٠٠ قولوا كلمة عدل ٠٠ مافيش حد فيكوا يحب الحق ٠٠ بقى تمسكونى وتقولوا على انى قاتلة وتسيبوه هو الجزار اللي ايديه تملي في الدم ٠٠ ياناس قولوا لي بتعملوا في كده ليه ٠٠ فهموني الحكاية ايه ٠ فين البنت ٠٠ ما تتكلموا وتحكوا لي اللي حصل ٠٠) ٠

وتستمر في صياحها حتى تختم أقوالها والمسرحية كلها بهذه الكلمات (الحفناوي قتل العروسة الصغيرة أم عيون خضر وشعر اسود هوده يخلص من الله ٠٠٠ الله لا يسامحك يا حفناوي ربنا يسلط عليك اللي ينتقم منك) ٠٠

هذه المسرحية ـ في اعتقادي ـ كانت في الاصل قصة قصيرة عاشت في ذهن تيمور او في ادراج مكتبه ولما رأى أن يخرجها الى النور استهواه الحوار الذي ينبع من صميم المأساة التى تعيشها الام الثكلى التي بلغ بها الحرص على ابنتها مبلغا طغى على كل ما عداه حتى انزلقت في نهاية الامر الى رميها في الساقية في لحظة ذهول او جنون وهي تظن أنها بذلك تباعد بينها وبين ابيها الذي يعتزم ذبحها بالسكين ٠٠٠

أقول استهوى تيمور هذا الحوار الطريف الذي انساب على لسان القروية الساذجة فآثر أن ينسحب كقصصي من الساحة وأن يطلق للقروية العنان في التعبير عن خلجات نفسها يبادلها الحديث من وقت لاخر محقق ذكي متزن تمرس بالقضايا والتحقيقات ويقاطعها من لحظة لاخرى خفير نظامي يظهر الولاء للسلطة ممثلة في وكيل النيابة والتشدد مع المتهمين بخرق القانون ٠٠

وعلى هذا النحو جاءت المسرحية حوارا قصصيا او قصة حوارية ٠٠ فهي وان كانت تمثل لقطة انسانية بديعة الا انها مع ذلك تفتقر الى كثير من مقومات العمل المسرحي ٠٠ فالمسرحية تصور موقفا ولا تعالج موضوعا تصور موقف انسانه حزينة ذليلة امام سلطان القانون وقد اختلطت في ذهنها الصور والافكار والمعايير ولا يمكن القول بأنها تعالج موضوعا متكاملا ٠٠ حتى ولو كان هذا الموضوع هو مشكلة انجاب البنات في الريف وموقف الابـاء والامهات منها فالمسرحية لم تعرض جذور المشكلة ٠٠ لماذا يعارض الاباء في انجاب البنات ٠٠ وما هو موقف المجتمع الريفي من هذه المشكلة بصـفة عامة ٠٠ كما لم تبرز الحلول المناسبة لها ٠٠ وما كان للمسرحية ان تتضمن شيئا من ذلك في الاطار الذي قدمت فيه ٠٠ فالمؤلف لم يظهر شخصية الزوج ولا القابلة على مسرح الاحداث اطلاقا كما جاء مسرح الاحداث نفسه قاصرا على حجرة وكيل النيابة وكان في امكان المؤلف ان يعرض صورا من الحيـاة في الريف يعرض مناظر من منزل الزوجة والحقل والساقية خلال الحوار الذي دار في حجرة التحقيق باستعمال بعض الجمـل المسرحية المعروفـة ٠٠ والمسرحية على هذا النحو يمكن اعتبارها شريحة او مشهدا من مسرحية ذات فصل واحد متعددة المشاهد والكلام عن الموضوع يسوقنا الى الحديث عن الحركة وتطوير الشخصيات فكلام المرأة القروية وان كان ينبض بالحرارة الا أن حديثها لم يستطع ان يبعث الدفء والحياة في حوار وكيل النيابة والخفير النظامي وفي تصرفاتهما ٠٠ فجاءت المسرحية رتيبة خاليـة من الحركة والحياة ٠٠

شخصيتا وكيل النيابة والخفير قطعا شخصيتان سلبيتان غيـر متطورتين ٠٠ شخصية الام تطورت خلال مناقشة وكيل النيابة لها وخرجت من مرحلة الذهول والانكار الى مرحلة الاعتراف ٠٠٠ ولكنها قبيل نهايـة المسرحية تعود فتلبس ثوبها الاول ثوب الذهول والانكار وان كان هـذا الثوب قد اصطبغ بصبغة جديدة ٠٠٠ الاستسلام للمقادير بعد أن أفلت لسانها دون وعي منها بأسرار الجريمة ٠٠ ومن ثم فيمكن القول بأن شخصية الام قد تطورت تطورا جزئيا ٠٠

والذي يستلفت النظر رغم ذلك كله ان محمود تيمـور استطاع ان يرسم صورة صادقة لبعض النماذج البشرية التي تعيش في القرى والكفـور واستطاع بمهارة ان يغوص الى اعماقها ليكشف عن خباياها ومجاهلها فجاءت شخصيات المسرحية واضحة كل الوضوح وجاء الحوار الذي ارسله عـلى لسان القروية بالذات طبيعيا ومقنعا انظر اليه وهو يصور اللحظات السابقة على ارتكاب الجريمة كما روتها الام المتهمة في التحقيق (بعد ما ولـدت والذي منه والعيال ناموا سايبتني الحاجة فطومة وروحت قمت لقيت نفسي مش طايقه اقعد في البيت ٠٠ كنت حطه البنت في حجري وعماله أهزها وكل الهوا ما يزق الباب قلبي يطب أقوم منطوره ويتهيأ لي أن الحفناوي داخـل

والسكينة الحامية في ايده ٠٠٠ وبعدين سمعت حس من بعيد قلت أهو الحفناوي جه من دوار العمده بصيت لقيت نفسي خارجة من الدار على طول وانا مخبية البنت في عبي ٠٠ كانت نايمة يا حبة عيني خرجت اجري وكانت الدنيا ضلمة كحل ٠٠٠ وفضلت اجري زي الحرامية لحد ما دخلت غيط القطن وأنا حاضنة البنت على صدري ٠٠٠) ٠

وانه لئن كانت المسرحية قد جاءت خالية من صراع حقيقي بين شخصياتها الا ان المؤلف أجاد تصوير الصراع الداخلي الحاد الذي دار في أعماق القروية الساذجة وهي ترى تصرفها الطائش يوردها كما أورد بنتها التهلكة وهي لا تصدق ان هذه البنت الحلوة الجميلة ذات العيون الخضر والوجه الصبوح قد ماتت فعلا وأصبحت مجرد ذكرى ٠٠٠ بل انها تشفق من أن يكون قد اصابها أى مكروه على يد الوالد القاسي اللعين وتطلب من الحاضرين ان يبعثوا الى قلبها الاطمئنان بأن شيئا من ذلك لم يحدث وان الطفلة الحلوة٠٠ بخير وعافية لم ينلها أذى وينتهي هذا الصراع بخبل او جنون وقتي او دائم يصيب المرأة البائسة وهي تقف موقف المتهمة ٠٠

هذه القدرة على رسم الشخصيات وتصوير الصراع الداخلي في اعماق النفس البشرية هي أخص خصائص تيمور وهي لا تفارقه عندما يتحول أحيانا الى اللون المسرحي ولعل هذه القدرة هي التي جعلت بعض مسرحياته الاجتماعية تأخذ بمجامع القلوب رغم عدم توافر مقومات البناء المسرحي لها ٠٠٠

أما مسرحية الصعلوك التي جرت أحداثها كما يشير المؤلف سنة ١٩٤٠ فهي تعرض جانبا من حياة امرأة « وحيدة هانم » غير متزوجة وذات جمال وثراء وتعيش وفق هواها في منزل يدل مظهره على الترف ٠٠ الطرف الاخر في المسرحية « دردير أفندي » شخص دميم الخلقة خفيف الظل يقوم بدور النديم والتابع والمهرج في وقت واحد ٠٠ يؤدي الخدمات الخاصة لوحيدة هانم وينقل اليها أخبار المجتمع والصالونات والخلافات والطلاق والزواج والسباق ٠٠٠ الخ ويستميت في الدفاع عنها اذا مس سمعتها بكلمة او عبارة او رواية جارحة ٠٠

ورغم البون الشاسع بين وحيدة هانم ودردير أفندي في المال والجمال والمركز الاجتماعي فان دردير لا يستطيع أن يمنع قلبه من أن يخفق بحب هذه المرأة اللعوب ٠٠ يظل يكتم هذا الحب بين جوانحه حتى تطلق الخمر لسانه من عقاله في احدى الحفلات فيصرح أمام الناس بأنه يحب وحيدة هانم ويريد ان يقبلها ٠٠ فتثور لهذه الوقاحة ثورة عارمة وتصدر اوامرها الى الخادم بأن يطرد دردير من المنزل اذا فكر في زيارتها ٠٠٠

ويفتح الستار على الهانم جالسة في استرخاء على المتكأ تدخن وتتصفح مجلات الازياء في اهمال وقد ارتدت ملابس غاية في الاناقة وحسن الذوق والوقت قبيل الغروب ويستأذن حسن الفراش في الدخول فتأذن له وينهى

اليها مضطربا أن دردير افندي على الباب فتنهره وتذكره بتعليماتها السابقة ولا ينتظر دردير الاذن بالدخول وانما يقتحم الحجرة وهو يصيح بأن روحية هانم قد بعثت به اليها بشأن مبالغ من المال كانت قد استدانتها من قبل .. ويبدي دردير من ضروب المذلة والاستكانة ما يجعل وحيدة تسترسل معه في الحديث ولكنها ما تلبث ان تذكره بفعلته التي لن تغتفرها له فيقول لهـــا خاشعا « كل ما كان الذنب كبير كل ما كان الصفح أعظم » ويجلس تحت قدميها كالكلب الوفي يذكرها باخلاصه لها وكيف انه تحمل الضرب والسجن في سبيلها ومن أجلها . وترمي اليه لفافه وهو يحدثها عن اخبار المجتمع وفضائحه ثم يطلب منها في الحاح ان تضربه بضعة أقلام على صدغيه وتصفعه في رفق وهي غارقة في الضحك ..

وفجأة يلقي بهدوء وفي غير اهتمام قنبلة يكون لها أبلغ الاثر عنـــد وحيدة .. لقد كسب نمرة المواساة السكند و (١٠٠٠) ألف جنيه كاملة غير منقوصة .. وتكذبه في بادىء الامر ثم تصدقه عندما تشاهد النقود بعينهـا وتتساءل عما ينتوي عمله بهذه الالف فيخبرها انه سينفقها في ليلة واحـدة يقضيها مع غانية تدعى لوليت صديقة الامراء والملوك والعظماء .. وتعجب وحيدة كيف ينفق الف جنيه على امرأة في ليلة واحدة .. لابد أن جمالهـــا يفوق حد الوصف ويجيبها (حسنها ما يتوصفش ... تعرفي جزمتك انت تساوي ألف واحدة زي لوليت) ويدور حديث هامس تتخلله بعـض التنهدات ... ويحملق دردير في وحيدة بعيون تشع نارا وهـي مستلقية على المتكأ مسبلة الاجفان وتتمتم (ويهم ايه مش ليلة واحدة ..) ويرمـي دردير بنفسه على يديها ويغمرها بقبلات جنونية ثم يدني رأسه شيئا فشيئا من رأسها ويهم بتقبيله وتنار الحجرة فجأة ويدخل حسن الفراش بالقهوة فينهره ويطلب منه احضار شمبانيا على الفور ويقف دردير بعض الوقت صامتا تائه النظرات فتعجب وحيدة من ذلك وتتساءل (مالك واقف مبلم كده ... دا أنا كنت فاكره ان الفلوس خلتك راجل تاني بقى انت اللي كنت عاوز تهيص مع لوليت .. لوليت في عينك .) .

ويقبل الفراش بأقداح الشمبانيا فيجرع منها دردير في نهم .. ويعود الفراش يخبر الهانم ان « سعادة الباشا » على التليفون فيطلب منه دردير أن يخبره ان الست غير موجودة فيتردد الفراش كالمذهول فتقول له وحيـــدة (انت ما سمعتش البيه قال ايه .. قول له اني مش هنا ..) . ويجره دردير من كتفيه وهو يقول (قول له سعادة الالف جنيه هنـا ... شيء عجيب) ..

ويتحدث دردير عن نفسه ويتساءل وهو يعب الخمر عبا .. (بقى الخلقه دي تعجب حد يا عالم ..) .

وترد عليه الهانم في خبث والابتسامة تعلو شفتيها (ليه .. مالها .. مش بطاله .. المهم ان دمك خفيف) وتفقده الخمر صوابه فيقـول في

صراحة تتغابى عنها الهانم (بذمتك كان يبقى دمي خفيف لو كان جيبي خفيف) وتؤكد له وحيدة انه طوال عمره لم يعرف قيمة نفسه وان دمه خفيف فعلا ، ولكنه يذكرها بأنه يشبه الخنفس وهي تشبه الجوهرة وتنتابه حالة ذهول يخرج بعدها الاوراق المالية من جيبه ويحدجها بنظرة ملتهبة ثم ينهال عليها دعكا وتمزيقا في ثورة صاخبة يشتبه فيها الضحك بالبكاء، وتحاول وحيدة منعه من ذلك فلا تفلح انما يستمر في تمزيق الالف جنيه اربا اربا وهو يصرخ (لا ·· اقطعهم كلهم ·· كلهم ·· مستحيل أنا أكون غير درديرالصعلوك وانت غير وحيدة هانم الجميلة الغالية حافضل أنا زي ما أنا وأنت زي ما انت ··)

وتثور ثائرة وحيدة وتنهال عليه ضربا فيقع على الارض فتطرده وهي تنعته بأحط النعوت فيخرج زاحفا على يديه ورجليه ··· وتستلقى هي على وجهها وتشهق بالبكاء في غيظ ثائر قائلة (الكلب ·· الدون ·· السافل ·· الدنيء ·· المجنون) ·

لقد استطاع تيمور ان يصور بمهارة ودقة الصراع الداخلي الذي دار في أعماق بطلي المسرحية وأثر ذلك الصراع على انفعالات وتصرفات كل منهما ··

وحيدة هانم دار في أعماقها صراع بين كبريائها وغرورها وترفعها من جهة وحبها الشديد للمال وشغفها به من جهة أخرى وأخذت تتدرج في معاملتها للنديم المهرج ·· بدأت بالتظاهر بالصفح عنه ثم ذكرت ان دمه خفيف وشجعته على الاقتراب منها فاذا صرخت في أعماقها نوازع الغرور والكبرياء اسكتتها بقولها لنفسها انها ليلة واحدة وماذا يضيرها ان تسلم له نفسها ليلة واحدة مقابل الالف جنيه ·· ويغذي حب المال شعور حاد بالغيرة من لوليت هذه التي يسلب جمالها لب الملوك والامراء ·· وينتصر صوت المال وتتخذ قرارها بالاستسلام له ·· ويندفع هو في هذا التيار لولا دخول الفراش بأقداح القهوة ·

أما درير نفسه فقد كانت أعماقه محلا لصراع أشد عنفا وقسوة ·· صراع بين حبه الجارف لهذه الهانم الجميلة المعبود من جهة وشعوره الداخلي بالمهانة وبالفارق الحقيقي الذي يقف بينه وبينها حائلا كالسد ·· لا يحول دون قيامه صفو ساعة او بعض ساعة يدفع ثمنه كل ما يملك من ثروة ·· في بادىء الامر تطغى شهواته وعواطفه على تفكيره ·· ويمني نفسه بالسعادة التي ظل يحلم بها ·· لكنه وقد أدارت الخمر رأسه يجد في نفسه الجرأة لكي يعلن الحقيقة الثابتة دون مواربة ·· انه ليس أهلا لها ·· وهي لم تخلق لمثله ·· ويتغلب الشعور بالمهانة والمرارة والازدراء لنفسه وينسحب من منزل الهانم مطرودا يحبو على يديه وقدميه ··

وتكاد القيمة الفنية للمسرحية تتركز فيما أبداه المؤلف من مهارة في تصوير هذين اللونين من ألوان الصراع النفسي ··

لكن أين هذا من الصراع المسرحي الذي يعتبر ركنا من أركان أى عمل

مسرحي لا غناء له عنه ....؟؟ من الواضح انه لا يوجد في المسرحية محور لصراع حقيقي بين بطلي المسرحية ..

فلا توجد قضية أو فكرة يختلفان بشأنها .. وانما على العكس يبدو أن الاثنين رغم ما حفلت به المسرحية من مفارقات لا يختلفان كثيرا في نظرتهما الجوهرية لبعض الامور وان كان يختلفان في السلوك واسلوب الحياة اختلافا لا يرقى الى مرتبة الصراع .

هي تعتقد ان الناس يصفقون لمن يمتلىء جيبه بالمال .. حتى ولو كان صعلوكا قبيح الخلقة .. وهو أيضا يرى الحياة تبتسم في وجه من يدفع بسخاء .. وتعبس في وجه الفقير المعدم .. وكما انه لا يوجد صراع بين بطلي المسرحية فكذلك لا يوجد صراع بينهما أو بين أحدهما من جهة وبين بعض القوى الاخرى من جهة أخرى .. مثل صراع الانسان مع القدر او الغيب او الموت ... الخ .

لكن هل يعني انعدام الصراع المسرحي بالمعنى المفهوم انعدام الموضوع ..

الحقيقة أن المسرحية تعالج موضوعا ولكنه موضوع مطروق ومعروف .. سحر المال الذى يطغى على كل شيء ويغطي العيوب والمساوىء ويجعل القبيح جميلا والصعلوك « سعادة البك » لكن طلاوة العرض والحوار واجادة رسم الشخصيات وتحليلها كل ذلك اكسب الموضوع ثوبا زاهيا قشيبا بحيث لا يمكن اعتباره مجرد ترديد لما سبقه من اعمال أدبية عالجت هذا الجانب من جوانب الحياة البشرية ..

والمسرحية فوق ذلك تنبض بالحركة منذ السطور الاولى ولعل السبب في ذلك ان المؤلف استخدم عنصر المفارقة .. الذى أغرم برناردشو من قبله باستعماله ليجعل المسرحية تشع بالدفء والحرارة .

هذا التباين الواضح الشديد بين شخصية وحيدة ودردير وسلوكها .. أبعد عن المسرحية الرتابة وبعث فيها الحياة ...

خلاصة القول ان هذه المسرحية وسط بين القصة الحوارية وبين العمل المسرحى .. أو بمعنى اخر خطوة على الطريق نحو المسرحية المتكاملة ..

أما المسرحية الثالثة في المجموعة « ابو شوشه » فهي تمثل تطورا هاما لمفهوم المسرحية القصيرة عند تيمور وهذا التطور نلمس اثره واضحا في المعالجة والبناء الفني للمسرحية على النحو الذى سنتبينه بعد قليل ..

يرفع الستار عن بهو منزل مؤنس بك في ضيعته كفر البلابل .. يصف المؤلف المنزل بأنه نظيف ومرتب عليه الطابع الريفي .. تجلس في البهو يسريه زوجة مؤنس بك ومعها مربيتها ويدور بين الاثنين حديث يستشف منه ان ربة المنزل من اسرة ريفية طيبة وان عزبة كفر البلابل قد اصبحت عزبة نموذجية ومضرب الامثال بين العزب في السنوات الاخيرة وتخرج يسريه ومربيتها وتظهر على المسرح برجة خادمة بارعة الجمال وعوضين خادم في المنزل ويتطارحان احاديث المودة ويرسمان خطوط المستقبل ويعد

عوضين برجة ان يذهب بها الى القاهرة بعد ان يتزوجها ليقضيا بعض الوقت في النزهة وزيارة المشايخ وشراء بن وسكر وتمني برجة النفس بأن تبقى في القاهرة الى الابد شأن بنت خالتها شلبية لكنه ينهرها في رفق ٠٠ ويسمع صوت مؤنس بك ينادي عليه غاضبا فيسرع اليه ويعلن البك ان مصيبة كبرى قد حلت ٠٠ العجل أبو شوشه امتنع عن تناول الطعام ودمعت عيناه ٠٠ يا للكارثة ٠٠ يعطيه مؤنس الدواء ويطلب من عوضين ان يسرع باستدعاء ابي هجرس ليلازم العجل ويسهر على صحته ٠٠

وتقبل يسريه على زوجها متوددة فتحدثه عن التقاوى واللبن والزبد والجبن الذي سيعرضه في معرض كفر الريان فيرد عليها في فتور فتهم بمغادرة المنزل غاضبة فيتراجع ويقترب منها معتذرا متلطفا وتتوجه لزيارة والدتها وهي **راضية النفس** ٠

وفي هذه الاثناء يقبل على منزل مؤنس على غير موعد بعض الضيوف عطوه باشا ومعه الشيخ غندور وظاظا بك وحسنيه هانم زوجته وقد كان هؤلاء في ضيافة عطوه باشا في ذلك اليوم بمناسبة افتتاح مسجد جديد في عزبته وتاقت نفس ظاظا بك ان يزور عزبة كفر البلابل التي اصبحت حديث الناس ومضرب الامثال وبعد ان يستريح الضيوف قليلا يخرجون جميعا الى الحديقة ولكن ظاظا بك ما يلبث أن يعود الى المنزل باحثا عن (التوربان) وهو عصابة حريرية لزوجته وفي هذه الاثناء تدخل برجسة ويبهر جمالها ظاظا بك وتساعده فى البحث عن العصابة الحريرية وهو يداعبها ويتلطف اليها من وقت لاخر حتى تعثر على العصابة ويضع ظاظا العصابة على رأسها مغازلا ويفاجئهما عوضين فيغلي الدم في عروقه ويشتم برجسة وينهال عليها ضربا بوصفه خطيبها وزوج المستقبل ولما يحاول ظاظا بك تخليصها منه تصيبه هو اللكمات وعندما تولى برجسة من الحجرة هاربة يكون ظاظا على حد تعبير المؤلف (في حالة بشعة مفكوك رباط الرقبة مصابا في وجهه بكدمات) ويتحدث الى عوضين في عزة واشفاق في وقت واحد (ماتزعقشى كده وانت حمقي قوي ولكن باين عليك انك راجل طيب) ويمده يده اليه بقطعة نقود فيرفضها عوضين بإباء وشمم ويغادر الحجرة مرفوع الرأس ٠

وتقبل حسنية هانم تبحث عن التوربان وعن زوجها فتفاجأ به على هذا الحال ويقبل مؤنس بك أيضا ويخبرها ظاظا انه سقط على الارض اثناء بحثه عن العصابة الحريرية فاصابه ما اصابه ٠٠ وتحرض حسنية زوجها على الخروج من الحجرة فشربات الليمون ينتظره في الحديقة والناظر ينتظره بعد ذلك بالركايب للمرور على الاطيان ٠٠ ويخرج ظاظا ويخلو الجو لحسنية ومؤنس ٠٠ ويسترجع الاثنان ذكرى الايام الخوالي أيام أن تعاهدا على الحب والزواج ويبرر مؤنس اخلافه وعده ان والده توفي فجأة وترك له الديون والمشاكل فآثر ان يصرف كل جهده لتدارك الموقف وادارة الاطيان بنفسه ولما تخبره حسنية انها كانت على استعداد لمد يد المعونة اليه بمالها يخبرها ان

هذا هو السبب الذي جعله يبتعد عن طريقها فهو لا يقبل معونة من سيدة حتى ولو كانت زوجته .. وتسأله ان كان قد نسيها فيجيبها في مرارة (الحجر بيفضل كتير والع تحت الرماد يا حسنية) ..

وفي غمرة الذكريات يسمع مؤنس خوار عجل فينتفض واقفا ويسأل في لهفه عن الامر فيخبره عوضين ان ابا شوشه يتناول الدواء فيوصيه بالعناية به ويعود الى حسنية فيجدها مدهوشة مغيظة .. ويعود الحديث الودي بينهما وتخبره حسنية انها ستحتفل بعيد ميلادها بعد يومين وستقيم بهذه المناسبة حفلا خاصا يحضره الاقارب والاصدقاء ومن بينهم عطوه باشا والشيخ غندور وتتساءل عما اذا كان يروق له الحضور .. انه لو فعل فستكون تلك فرصة لا تعوض للقاء وقضاء بعض الوقت في الاماكن الخلوية ودور اللهو ..

وفي هذه اللحظة يدخل عوضين صائحا يطلب البشارة ووجهه يطفح بالسرور .. لقد اكل ابو شوشه العليق ويكاد مؤنس يجن فرحا لهذا النبأ السار ويطلب من حسنية ان تصحبه الى حيث يوجد العجل لكنها تجيبه في خيبة أمل (روح انت وانا حاستناك هنا) ويخرج مؤنس ويدخل زوجها يتمايل ثملا بما شربه من العرق فتنهره لفعلته ولكنه يؤكد لها انه لم يشرب سوى شراب الليمون فقط ..

ويدخل عطوه باشا والشيخ غندور وتجرى حسنية تحقيقا في الموضوع فيتدخل الشيخ غندور مداعبا (أؤكد لك يا هانم ان سوء النية ما كانش موجود عند ظاظا بك .. مسألة سوء تفاهم بين الكبايات وبعض : بين كباية الليمون وكباية العرقي) وتطلب حسنية من زوجها في حزم واصرار ان يتوجه للمرور على الاطيان وتأمر عوضين باعداد الركايب على الفور ويمتثل ظاظا ويخرج تاركا حسنية مع عطوه باشا والشيخ غندور ويدخل مؤنس بك على القوم في منتهى السعادة يطلب منهم ان يقدموا له خالص التهنئة .. لقد طاب ابو شوشه وأكل عليقه واخذ يضحك ويبتسم .. وتقول حسنية هانم ساخرة (هيء .. بيضحك) ويخرج الجميع لمشاهدة العجل ..

يدخل ظاظا بك من باب جانبي في حذر وفي هذه اللحظة تدخل برجسة تحمل صينية فطير ذرة اعدت لتكون هدية لعطوة باشا فيستقبلها ظاظا بك مرحبا (اهلا وسهلا برجسة هانم) . وتقدم له برجسة صينية الفطير فيتناول منها قطعة اثر قطعة وهى تحرضه على ذلك مؤكدة انه يمكن عمل صينية اخرى للباشا ..

ويتساءل ظاظا هل ستتزوج برجسة عوضين .. فترد تلك في استنكار انها لا يمكن ان تفكر في ذلك .. وبعد ان يداعبها ظاظا قليلا يسر اليها حديثا هامسا .. يتهلل له وجهها ويخرجان معا ..

ويدخل مؤنس بك وعطوه باشا وحسنية هانم والشيخ غندور ويبدى الباشا اعجابه بالعجل فيرد عليه الشيخ غندور (ما شاء الله ملظلظ قوى

٠٠ قوى ٠٠ اوع تفرج عليه الجزارين لحسن يسرقوه منك) ٠

ويقبل عوضين مهرولا ٠٠ لقد بعث الباشا المدير من يسال عن المعروضات التي سيبعث بها مؤنس بك للمعرض فيؤكد مؤنس انه سيرسل هذه الاشياء في الصباح الباكر وتستأذن حسنية هانم وباقى الضيوف في الانصراف ٠٠ وتشير الى مشاغلها العديدة بمناسبة عيد ميلادها بعد يومين ٠٠ فيتذكر مؤنس وعده بحضور الحفل ٠٠ وكيف ان موعد الحفل هو ذات موعد المعرض فينادى على عوضين ليتدارك وعـــده بالاشتراك في المعرض فتحول حسنية بينه وبين ذلك وتطلب منه الا يضيع فرصة المعرض مـــن اجلها فيتردد ويبدى رغبة في حضور حفل عيد ميلادها فتقول في عزم وتصميم (مستحيل ٠٠ أنا متشكرة قوى على كل حال) فيردف مؤنس بك قائـــلا (امرك ٠٠ والله انا كنت أحب أكون معاكم قوى) ٠

وتبحث حسنية عن زوجها باعصاب ثائرة بينما يدخل عوضين معلنا نبأ هاما (الراجل اللي اسمه ظاظا بك أخذ البت برجسة معاه في التمبيل وهرب) وعندما تبدى حسنية دهشتها لذلك النبأ يعود عوضين ليؤكـــده (وحياة رأسك ياست هرب ٠٠ كـــل الفلاحين شافوهم في التمبيل زي الفريرة) ٠

وتصيح حسنية هانم في اهتياج طالبة السيارة الثانية وتخرج كالعاصفة بينما يتهالك الشيخ غندور على المقعد ضاحكا ويدخل عطوه باشا وهو يجفف وجهه بالفوطة ويتساءل (مين هو اللي هرب ٠٠ العجل ابو شوشه) فيجيبه الشيخ غندور ساخرا (لا ياسعادة الباشا ٠٠ اللى هرب عجل تاني ٠٠ تعال نشوف المسألة أيه) ويخرج الاثنان وبعد قليل تدخل يسريه وخلفها أم سريع ٠٠ وتزف أم سريع الى سيدة المنزل نبأ شفاء ابو شوشه فتطرب لذلك ويدخل مؤنس بك ويقع بصره على زوجته فيذهب اليها مبتهجا ويحوطها بذراعـــه مناديا اياها بـ (يا حبيبتي) فتخرج أم سريع وهي تتمتم (ربنا يحميكم لبعض ولا يورينا وحش فيكم ابدا) ويتحدث الاثنان في موده عن المعروضات التي سيقدمها الزوج في المعرض حتى يتطرق الحديث الى القطن الجديد الذى استنبته مؤنس بك ولم يعثر على اسم ويشترك الاثنان في البحث عن اســم له وفجأة يهتدى الزوج الى الاسم المناسب (القطن اليسرى والبذرة اليسرية) وتتساءل يسريه في دهشة وشك (على اسمى) وتحدق في زوجها طويلا ثــم تخفى وجهها في صدره متأثرة فيضمها بشغف اليه ويقبلها وفي هذه اللحظة تقبل أم سريع ٠٠ من الخارج قائلة (ابو هنجرس جاب الجواميس الحلابـــة ياستى) وعندما تفاجأ بمنظر الزوجين متعانقين تنسحب في هدوء ٠٠٠ وهي تغمغم (ماجابشى حاجة ياستى) ٠٠

الذى يميز هذه المسرحية عن المسرحيتين السابقتين هـــو وفـرة الشخصيات واسهامها بنصيب ملحوظ في احداث المسرحية فالمسرحية الاولى لم يظهر فيها سوى الام الثكلى ووكيل النيابة والخفر واستغرق حوار الام

معظم صفحات المسرحية والمسرحية الثانية تقاسم حوارها وحيدة هانم ودردير افندي ولم يظهر معهما سوى خادم كل همه ان ينفذ تعليمات سيدته .. اما مسرحية ابو شوشة فقد زخرت بشخصيات عديدة كان لها ادوار ايجابية في الاحداث .. صاحب المنزل وزوجته ظاظا بك وحسنية هانم .. حتى الخادم والخادمة كان لهما نصيب من اهتمام المؤلف فسلط عليهما الاضواء في كثير من المواقف تعدد الشخصيات افاد بناء المسرحية من جهة .. واضربه من جهة اخرى .. افاد بناء المسرحية لانه جنبها الجمود والرتابة وبعث فيها الحركة والحياة واضر بالبناء الفني للمسرحية لان تعدد الشخصيات ترتب عليه تعدد اوجه الصراع وهذا التعدد في حد ذاته لا يعد عيبا في العمل المسرحي اذا استطاع المؤلف ان يحتفظ بوحدة الموضوع وان يشد الصراعات الصغيرة المتعددة لبعضها الى بعض بحيث ينتظمها صراع رئيسى واحد ..

هذه المسرحية تضمنت صراعا بين ظاظا بك وعوضين ـ حول الظفر بقلب برجسة .. وانتهى الصراع بانتصار ظاظا بك وهروبه مع برجسة .. وتضمن أيضا صراعا خفيا وغير مباشر بين حسنية ويسرية حول الظفر بقلب مؤنس ويدخل ابو شوشه طرفا ثالثا في هذا الصراع وينتهي الصراع بانتصار يسريه ومعها ابو شوشه بالطبع ..

والذي يبدو ان حرص المؤلف على أن يعطي ما أمكن صورة صادقة وحية عن الحياة في ريف مصر ما قبل الثورة بشواته وبكواته وخدمه وحشمه .. وهذه المسرحية فيما اذكر كتبت ونشرت لاول مرة قبل ١٩٥٢ هذا الحرص اغرى المؤلف بأن يقيم توازنا بين الشخصيات الرئيسية في المسرحية فجاءت تكاد تكون متعادلة في الاهمية وأقول تكاد لانه من الواضح ان الزوج والزوجة وابا شوشه ظفروا بنصيب اكبر نسبيا من نصيب ظاظا وبرجسة وعوضين لكن لا يمكن التسليم ببساطة بأن الصراع بين ظاظا وعوضين حول قلب برجسة يعتبر بمثابة صراع جانبى لا أهمية له في المسرحية فهذا الصراع اخذ جانبا كبيرا من اهتمام المؤلف الذى صور شوق برجسة الى انوار القاهرة ومباهجها منذ الصفحات الاولى ثم صور هيام ظاظا بهذه الخادمة الحسناء هياما شديدا تحمل من اجله اللكمات والصفعات من خادم بسيط .. وأهم من ذلك كله ان هذا الصراع لم يخدم الصراع الرئيسى في شيء .. فحسنية ومؤنس كان قد انصرف كل منهما عن الاخر قبل ان يهرب ظاظا مع برجسة ولم يغير هروبهما شيئا من موقف حسنية أو مؤنس أو زوجته ..

والذي يسترعي الانتباه ان المؤلف أوجد حلا لمشكلة برجسة بهروبها مع ظاظا ولمشكلة مؤنس ويسريه بعودة المودة بينهما ولمشكلة ابي شوشه بعودة الصحة والعافية اليه ... ولكنه أغفل ايجاد حل لمشكلة حسنية وهي شخصية هامة من شخصيات المسرحية رغم ان الحل كان قريب المنال منه ..

فعطوه باشا هذا الذى لم يقم بأي دور ايجابي في المسرحية .. كان من الممكن أن يعطف على حسنية في محنتها او قبل محنتها ويتم تقارب بينهما بحيث يستطيع القارىء ان يستنتج ان هذا التقارب ستكون نتيجته زواج الاثنين ويكون بمثابة رد على زواج ظاظا بك المنتظر من برجسة الذى يؤكده قرارها على رؤوس الاشهاد ومن بين هؤلاء الاشهاد زوجته حسنية التي كانت على بعد خطوات منه في القرية ..

ورغم ذلك فقد حوت المسرحية من عناصر القوة ما غطى عيوب بنائها الفني أو كاد ومن ذلك :

اولا : تطوير الشخصيات الرئيسية تطويرا طبيعيا ومنطقيا نابعا من التطور الطبيعي للاحداث ذاتها .. مؤنس بك بدا في أول المسرحية بارد العواطف ازاء زوجته .. ومن خلال احداث المسرحية تطورت شخصيته حتى أصبح يقف في النهاية موقف المحب الولهان أمامها وانه لئن كان المؤلف لم يلق ضوءا كافيا على سر هذا التطور الا انه جاء منطقيا ومتمشيا مع طبيعة الاحداث .. ففي بداية المسرحية كان مؤنس مشغول البال بحرض (ابو شوشه) ومن اجل ذلك كان متوتر الاعصاب .. وقبل النهاية كان ابو شوشه قد شفى من ناحية وكان صاحب المنزل قد اجتاز تجربة عاطفية جديدة مع حسنية التى كان يبادلها عواطف الحب والهيام في فجر شبابه .. ولكن سرعان ما منيت هذه التجربة بالفشل قد يكون من اسبابها شدة تعلق مؤنس بالعزبة والعجول والمعرض والحياة في الريف بصفة عامة ونفور حسنية من هذه الاشياء .. وقد يكون زهد كل منهما في الاخر او اشفاقه من اثارة كوامن الحب القديم وكلاهما مرتبط بشريك لحياته ... المهم ان فشل هذه التجربة الجديدة جعل مؤنس يتحفز لاستقبال زوجته استقبالا حارا يلوم معه نفسه على مجرد التفكير في خيانتها ويدخر لها فيه شحنة كاملة من عواطف الحب والوفاء والاخلاص ..

شخصية ظاظا أيضا مثال رائع على قدرة تيمور على تطوير الشخصيات فقد بدأ ضعيف الشخصية مسلوب الارادة يتحرك بأمر زوجته وارادتها وحدها ان امرته بالخروج الى الحديقة انصاع لامرها وخرج على الفور .. وان بعثت به يبحث لها عن عصابتها الحريرية عاد كالتابع الامين يبحث عنها وان استشعرت خروجا منه على تعليماتها بعدم تناول بعض المشروبات قامت بزجره على مسمع من الملأ ..

وهكذا .. ولكن هذه الشخصية الضعيفة المتخاذلة طرأ على حياتها ما بعث فيها القوة والقدرة على التصميم والتنفيذ دون انتظار الاذن أو الاشارة من الزوجة .. بل يذهب الى تحدي الزوجة ذاتها ــ لقد

دخلت حياته برجسة وادار جمالها الرائع رأسه وجعله يقدم على اتخاذ كل هذه الخطوات ..

برجسة نفسها تطورت شخصيتها من خلال الاحداث .. بدأت فتاة قروية ساذجة تبادل عوضين الحب لكنها تحن الى زيارة القاهرة والاقامة فيها وتغريها بذلك ابنة خالة لها (شلبيه) ذهبت اليها من قبل واستقرت فيها .. وعندما تواتيها الفرصه سانحة ممثلة في شخصية ظاظا بك الذى افتتن بجمالها لاتلبث ان تهتبلها وتتطور شخصيتها وتكسر القيد وتتنكر لعهدها لعوضين وتقبل الهرب مع ظاظا في سيارته ...

ثانيا : امتازت هذه المسرحية في كثير من مواقفها بالسخرية الحادة تنساب بين سطورها في رفق دون ما ثمة افتعال او تهريج .. والمؤلف قد اعد عدته لهذه السخرية منذ اللحظة الاولى التى اخذ فيها في ارساء قواعد المسرحية فيجعل ابو شوشة هو محور اهتمام صاحب الضيعة .. اهتماما يجعله يذرف الدمع اسى على مرضه ويجعل الاخرين من شخصيات المسرحية أو القراء يذرفون الدمع ضحكا وسخرية من هذا الاهتمام .. كما حفلت المسرحية ببعض الشخصيات التى تتسم تصرفاتها او حديثها بالسخريه ومن ذلك ظاظا بك الذى تحمل الكلمات والصفعات في صبر من اجل عيون برجسة .. ويقبل على صينية فطير الذرة في نهم وهى لم تعد له وانما لعطوه باشا .. والشيخ غندور الذى لايترك موقفا يستحق التعليق الساخر دون ان يدلي بدلوه ومن ذلك حديثه عن العجل بعد شفائه وخشيته ان يسرقه الجزارون وحديثه عن هرب ظاظا بأنه عجل اخر على النحو الذى اشرنا اليه عند تلخيص المسرحية ..

ثالثا : استخدم تيمور في هذه المسرحية الاسلوب غير المباشر في رسم الشخصيات ومن قبيل ذلك شخصية حسنية .. فهو لم يقل صراحة في اى جزء من اجزاء المسرحية انها قليلة الحظ من الجمال الذى قاله عنها في مقدمة المسرحية ان عمرها ٣٩ سنه وانها زوجة ظاظا بك ومع ذلك فقد قال من خلال الاحداث انها لابد وان تكون قبيحة او على احسن الفروض متوسطة الجمال ـ فهذه المرأة التى يهجرها حبيبها (مؤنس بك) وهى في شرخ الشباب ورغم ثرائها العريض في الوقت الذي يعاني هو فيه أزمة مالية والتي يهجرها زوجها ليهرب مع خادمه حسناء بعد لقاء عابر قصير لايتصور ان تكون قد اوتيت من حسن او جمال ولا يمكن ان يكون هجرها مرة اثر اخرى الا لهذا السبب ...

رابعاً : اجاد تيمور في هذه المسرحية ايضا تصوير الصراع الداخلي ..
وهناك موقف قد يبدو للقارىء غير رئيسي في المسرحية لكنه حظى من اهتمام الكاتب وعنايته بالشيء الكثير فجاء في الروعة والابداع ذلكم هو المشهد الذى كان يقف فيه مؤنس موزع العواطف والمشاعر بين حسنية من جهة وابي شوشه من جهة اخرى ..
واستيقظ الحب في قلبه وقلب حسنيه معا او هكذا هيىء لهما فاخذا يستعيدان الماضى بذكرياته بل وتعد حسنية العدة لوصل الحاضر بالماضى ولا تتورع وهى زوجة لشخص اخر له مكانته الاجتماعية من دعوة الصديق القديم لحضور حفل عيد ميلادها لتكون تلك فرصة ذهبية يلتقيان فيها في غفلة من اعين الرقباء في دور اللهو والاماكن الخلوية .. ورغم حرارة اللقاء التى كانت تزداد من لحظة لاخرى .. فان مؤنس عندما يسمع خوار العجل لايلبث ان يترك حسنيه ويلتفت لمصدر الصوت .. وعندما يأتيه من يبشره ان العجل قد اكل عليقه وشفى من مرضه ينصرف عن حسنيه ويتركها مذهوله وتتحول عواطفه وافكاره وخواطره الى ابى شوشه العظيم الذى سيرفع رأسه عاليه فى المعرض الذى سيقام بعد يومين ..
هذا الصراع الذى يدور في اعماق الرجل بين عواطفه نحو المرأة التى تقف بجانبه وبين رغبته الملحه في اشباع هواية له تصرفه عن الاستماع لصوت المرأة وتوسلاتها صوره من قبل يوجين اونيل في مسرحيته القصيرة (صيد الحيتان) وقد انتهى الصراع الذى دار في اعماق القبطان بانتصار الرغبة في صيد الحيتان ويرفض توسلات زوجته بالعودة الى الشاطىء والعزوف عن الصيد ..

واذا كانت هذه المسرحية تعتبر من أروع ما كتب انيل من المسرحيات القصيرة فان المشهد الذي صوره تيمور بقلمه أو بمعنى أدق رسمه بريشته يعتبر من أجود ما كتب وقد رفع كثيرا من قدر المسرحية .

وبعد فهذه مسرحية أبي شوشة قمة انتاج تيمور في المسرحية القصيرة وانضج مسرحياته وأقربها الى الكمال .

ولا أظنني بعد ذلك فى حاجة الى عرض المسرحيات الثلاثة الباقية التي تتضمنها المجموعة (حفلة شاى – الموكب – برقية) فهى جميعا لا ترقى الى مستواها ولا تستطيع ان تطاولها رغم الحوار السلس الرقيق الذى يتدفق في جنباتها ورغم ابداع المؤلف فى اختيار اللقطات ورسم الشخصيات فكل ذلك لم يشفع للمسرحيتين الاولى والثانية (حكمت المحكمة – والصعلوك) فى أن تنال حظ ابى شوشة من المكانة والتقدير سواء عند اهل كفر البلابل او عند محمود تيمور او عند القراء والمشاهدين ...

لقاء مع الفنان



شاكر حسن آل سعيد

كان لقاء هذا العدد من مجلة الاقلام مع الفنان الاستاذ شاكر حسن آل سعيد • وقد طرحت الأقلام على الفنان جملة أسئلة أجاب عليها ـ مشكورا ـ على النحو التالي :

ـ كان السؤال الأول عن التطورات التي شهدها فن الرسم عبر نتاجات مدارسة من القديم حتى آخر مبتكرات الفن الحديث •

••• أجاب الفنان يقول :

يصح السكوت على أية اجابة فنية لو لم يكن السؤال الموجه سؤالا تاريخيا • أما بصدد مثل هذا السؤال بالذات وجوابه المتوقع فلا يسعني

أن أجيب عنه الا بأن من الخطأ أو على الأقل ــ من المتعب ــ أن نقسم تاريخ الفن الى تاريخ كلاسيكي وحديث الا من قبيل التبويب فحسب والا فان تاريخ الفن هو تاريخ واحد وسواء أكانت المدرسة كلاسيكية أو حديثة فهي في صلبها استمرار غير متميز المعالم حتى لو قارنا ما بين فن (شكلي ــ طبيعي) والذي هو صفة جميع الفنون القديمة بما في ضمنها الفن الكلاسيكي (ما بعد القرن الخامس عشر ونصف القرن التاسع عشر) وفن (لا شكلي ــ مجرد) وهو صفة المدرسة الحديثة ٠

ومثل هذا التحديد الاولي يجرنا الى الاشارة أيضا الى أن أي فن شكلي هو فن لا شكلي ضمنا والعكس بالعكس ٠ ان ما يميز الفن حقا هو كونه جوهرا (ابداعيا) معبرا عنه بشكل من الاشكال ٠ وقد يكون هذا الشكل هو (اللاشكل) نفسه ٠

والواقع ان سياق تاريخ الفن العالمي عموماً والاوربي خاصة يثبت لنا هذا التحول الطارىء على الفن من كونه مظهرا خارجيا (تتضمنه جميع المدارس من الكلاسيكية ــ الواقعية ــ الرومانسية ــ الانطباعية) لكونه معنى داخليا (في مابعد الانطباعية فالوحشية فالتكعيبية ولحدما السريالية فالفن المجرد) ٠

المشكلة هي لست في أن نساهم في المامنا بتاريخ التطور الفني بهذا الاتجاه (شكلي أصبح لا شكليا) فحسب بل الكشف عن معنى هذا التحول الذي يبدو انه لا نهاية له ٠ وهنا لا يتسنى لنا الا الصمت فهو مصداق القول ٠

وسألنا الفنان : هل هناك مدرسة فنية عربية السمة ، متميزة ، وهل ترون وجود مدرسة عراقية كذلك ؟٠٠ فأجاب :

اما من حيث التسميات والسمات فلنقل ما نشاء قوله ٠ الا أن ما يميز وجود الفن العربي مثلا بما يحدد مزاياه ــ حتى في أدواره الجنينية (كأن يقال مدرسة عراقية) هو صموده في لجة الفن العالمي أولا ــ أي ظهور فنان متمكن من فنه يوازي أي فنان عالمي آخر بموهبته ومنجزاته ــ وتعبيره عن قيم تعكس لنا شخصية العربي وطابعه الخاص (ابتداء من أول حضارة تاريخية حتى الوقت الحاضر) ثانيا مثلما يمثله فهمه العميق لشتى الانعكاسات الفنية التي تتسم بها انجازاته مع تلقحها بصفات مبتدعة لا تمت لسواه بصلة ، سوى الصلة النوعيسة كالتي تساوي بين ملامح البشر جميعا في العالم مثلا ٠ وعلى ضوء هذا كله ألا يتسنى لنا أن نقول هل هناك من مدرسة عراقية ــ عربية بل اسلامية ؟ أما أنا (كرسام) فلا أقول شيئا لئلا أتصور نفسي (ناقدا) ! وهنا يجدر بي الصمت من جديد ٠ ان وجود مدرسة فنية أو غير فنية منوط بوجود حركة فنية وتوصلات عند الفنانين ضمن الفن العالمي ٠ ومع ذلك فان من المهم أن نتبين معنى

المدرسة الفنية .

ان معنى أية مدرسة فنية يتحدد بوحدة فلسفة الاداء بين أية جماعة فنية الى الحد الذي يسمها بطابع شبه موحد . أن مدرسة باريس مثلا ليست هي بهذا المعنى لانها تكونت من أعضاء فرنسيين أو باريسيين فحسب فمن المعروف أن معظم مؤسسيها كانوا من غير الفرنسيين . ومع ذلك فان هذه المدرسة اليوم تمثل استقطاب الفن العالمي برمته وذلك لما تضطلع به من مسؤولية المساهمة في الفن الحديث بشتى فروعه واتجاهاته . وبهذا المعنى يصح القول عن مدرسة بغداد للفن الحديث . فقد كانت ولا تزال تحتوي على بذور مدرسة خصوصا وانها ذات أسانيد نظرية تراثية .. ولكن مدرسة بغداد هذه عربية ؟ أم عراقية ؟ أم ماذا ؟ .

لندع التسمية جانبا . ولكن القول بوجود فن عربي يجسر ان يتطوي عليه حتى مجرد الشعور بالتجسد العربي في التأريخ . ان الفن العربي اليوم هو ما يعبر عنه في البلاد العربية .. كل البلاد العربية . بما فيه من انتكاسات ورجاعات وبما تعتمل فيه من توصلات بل (طفرات) . ان مايميز (الحشرة) في صفاتها مثلا هو الذي يربط معشر الحشرات برباط قدسية النوع ، ولكن الفن العربي لايعدم رباط قدسيته الذي يسمو به الى كونه أهلا لأن يكون فنا عالميا . وان مهمة الفنان العربي في هذا المجال هي مجرد التعبير الصادق (غير الزائف) عن موقفه كانسان ذا صلة مع الله .. وذلك لأن مصير الانسان ــ مهما تجاهل مصيره ــ فهــو أن يموت ويترك من بعده تراثا ما فكريا أو ماديا، ومالم يكن لهذا الانسان من (دعوى ديناميه) حية كدعوى (عبودية الانسان ازاء سيادة الله) . ومع ذلك فقد كان التجسد العربي في التأريخ خير مصداق على مدى اصالة الفن العربي الذي سرعان ما تطور عن ملامحه المحلية الى معالمه العالمية . ومن ذا الذي ينكر اصالة فن الزخرفة في التأريخ ؟ ولكن الفن الزخرفي هذا بالذات كان يمثل ذروة توصل رؤيا ساكن الخيمة البدوي الى مستوى ساكن المدينة المتحضر ــ ولكنه (متحضر في موقف ما مدرك) .. ومن ذا الذي يستطيع أن يغمط حق تلك الدعوى السابقة لاوانها في الفن المجرد وأقصد بهـا (كراهية التصوير في الاسلام) ؟ انها من صميم (دينامية) العربي الذي أصبح فيما بعد مسلما (أي انه وصل الى نقطة منظورة) في أن يرعص (بالتجريد) وفي أن يتغلغل الى القيم ويخترق حجب المادة ... ومهما سيحاول الفنان العربي في التأريخ ممارسة فن الرسم أو النحت (ان صح له ذلك) فان قيمته كفنان (لم يفقد معالم شخصيته في لجة التيارات الغريبة المتدفقة) تكمن في مدى تخطيه لجميع جدران مدينته الفاضلة من خلال أحلام صحرائه الممتدة .... فهو لايبدأ في الرسم أبدا كتشكيل طبيعي (كالذي تناولته الحضارة الاوربية ولكنه يمارسه (كانطلاق نحو اللا ــ شكل) .. ومن هنا كان للتعبير عن الحركة والتهويم في فنه دورا (بديهيـا) ذلك أنه لم

يكتف بالتعبير عن حركة ما في مجال العمل الفني بل عن قانون الحركة نفسها ...

وعلى سؤالنا حول تأثر الفنان العراقي بالمدارس الحديثة في فن الرسم ، أجاب الاستاذ شاكر حسن :

- « وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون » صدق الله العظيم .

وما (عبادتنا نحن البشر لله تعالى ، سوى (معرفتنا) بأنفسنا : فنحن البشر التافهين لسنا شيئاً ازاء الخالق ، ومهما كنا لنبرر لأنفسنا مدى تأثرنا بمنبع التطور الفني في العالم (بالمدرسة الحديثة مثلا) فلسنا الا نسخا زائفة اذا لم نفد من تأثرنا في (ابداعنا) . وبهذا الصدد ينص الحديث النبوي ايضا على نفس المعنى (من عرف نفسه فقد عرف ربه) . قد يبدو ان من الغرابة حشر الدين في الفن بصدد (التأثر) . ولكنني كفنان عراقي .. عربي الخ .. (لا عبرة بالتسمية) لابد لي أن أكون متأثرا - وقد أكون متأثرا بتأثير سيء أو حسن - ولكن التأثر الحقيقي الذي يصل الفنان - أبدا - بأخيه الفنان هو الذي يدفعه في سياق التطور .. يكشف له عن منزلته من (المكون) وليس (المبدع) ومن (الخالق) وليس (المخلوق) ومن (الله الذي يحب الجمال) وليس من (البشر الذين يذكرون الله في افصاحهم عن الجمال) . ان دعوى التأثر الفني هي دعوى التغلغل في ممارسة العمل الفني بكل براءة وفي مثل هذه الحال لا تؤلف منها المدرسة الحديثة سوى (السبب) لهذا التغلغل .. (للافصاح) وليس (المحب) .

والواقع ان القول بالتأثر (بمعنى التقليعة) ينطبق لا على الفنان العراقي المغلق العينين فحسب بل على أي فنان عالمي يشبهه ، فما الذي سنجده اذن في نتاج الفنان العراقي مما يميز (التأثر الصادق) لديه ؟.. انه السير في طريق اللاشكل حتى آخر خط من الرقعة .. التعرف على (فلسفة) التعبير الحديث وليس على مجرد (الاداء) .. ومثل هذا التعرف لا يتحقق بغير (الابداع) في ممارسة الفن (كبحث جميل) وليس (كتقليد زائف) ..

ولا يسعني في الاجابة بدقة على مثل هذا السؤال أخيرا الا القول « بأن الفنان العراقي سائر في سبيل هذا التأثر فحسب .» .. سائر في التعرف على الحق حتى من الباطل (اذا ما تضمن الباطل هذا الحق . وهل يتضمنه الا بالمظهر ؟) ولكن لم لا نتساءل مثلا - في شيء من العبث - ما مدى تأثر المدرسة الحديثة بنفسية الفنان العراقي ..؟ لنعرف أنفسنا حقا قبل أن نتأثر بشيء .

ان المدرسة الحديثة تمثل لنا (الحضارة العالمية في موقف ما) . وهي سواء بشقيها الاعلاني (المدرسة الواقعية) أو الدجلي (اللا - شكلية)

على حد تعبير (كامو) • فهي باعتقادي تنقل (موقف العربي في الصحراء) الى الصعيد العالمي •• ان موقف الفنان الحديث في العالم ما بين (آلية) العلاقات و (تجاوز) الذات الانسانية و (حيرتها) معا أمام المجهول يحيل مدنية الانسان المدلوع فيه الى صحراء ••• ومن هنا فان فلسفة الفنان الحديث في العالم هي فلسفة انسان في بداية طريق سيؤدي به اما الى (درب الصد مارد أو درب الصد رد ـ كما هو في حكايات ألف ليلة وليلة) وهذا بالفعل مايؤول به اما الى وثنية التعبير (الواقعي) الذي يسف بالفن العالمي الى مستوى الدعاية أو الى صوفية التعبير (المجرد) الذي يسمو به الى مستوى العبادة •

في مثل هذا الموقف بالذات ما عسانا أن نعرف به أنفسنا ؟•

وان الجواب على ذلك مناط باصالة الفنان أيضا • لنقل اذن على الاقل اننا متأثرون بالظروف الموضوعية للحضارة العالمية ولكن نتاج تأثرنا لابد له أن يكون (موثرا) •

وعلى سؤال الاقلام عن رأيه فيما حققه فن النحت العراقي ، أجاب :

(كرسام) لايسعني أن أبدي رأياً واضحاً في فن النحت عموما وفي النحت العراقي خاصة • يا أخي • ان مجرد سؤالي عن كلمة (نحت) بمعنى تعبير في ثلاثة أبعاد هو كسؤال التمساح عن احساس الطائر مثلا •••• اني أصمت أيضا •

- **ولد عام ١٩٢٦**
- **تخرج فى كلية التربية ومعهد الفنون الجميلة ببغداد كما درس فن الرسم بمعهد الفنون الجميلة العليا (البوزار) والتحق بمدرسة الفنون الزخرفية العليا بفرنسا •**
- **شارك فى أغلب معارض جماعة بغداد للفن الحديث ومعرض ابن سينا (بغداد ١٩٥٦) ومعرض الفن العراقى فى الهند والمعرض العراقى المتجول فى أوربا •**
- **أسهم فى كتابةالكثير من البحوث الفنية فى الصحفوالمجلات العراقية والعربية •**
- **ينتهج فى لوحاته الاتجاه المعاصر فى الفن •**

ميادين السباق في سامراء

ركوب الخيل عز
[الامام علي (ع)]

بقلم : سالم الآلوسي

١ ـ مقدمة تاريخية :

من الاقوال المأثورة أن العرب هم ورثة الثقافات والحضارات القديمة التي نشأت وازدهرت في ربوع بلاد الشرق القديم ، ولقد نهضت على مسرح تلك الربوع أمم مختلفة وأقوام متباينة في أجناسها ولغاتها وآدابها وتقاليدها ، وقد مثل كل منها دوره في البناء الحضاري خلال العصور الى ان آل الامر الى قيام امبراطورتين عظيمتين اقتسمتا العالم القديم اذ ذاك ، وهما الامبراطورية الرومانية الشرقية (البيزنطية) والامبراطورية الفارسية الساسانية حيث وفق العرب المسلمون الى دحر جيوش هاتين الامبراطوريتين العظيمتين ومحوهما من عالم الوجود واقامة نظام عالمي شامل مشيد على أسس حضارية انسانية متينة • وكانت عامة جيوش المسلمين تتألف من الفرسان •

وقد عرف العرب بحبهم للفروسية وشغفهم الشديد باقتناء الخيول وتربيتها والعناية بها ، وكانت طبيعة بلادهم الجغرافية من العوامل التي جعلتهم في المقدمة من بين الامم التي تعنى بالفروسية والخيل وتربيتها وحفظ انسابها • وفي بطون كتب الادب والتاريخ والعلوم من الاخبار ما يؤلف أسفارا ضخمة عن ذلك • ولم تقتصر عناية العرب بالخيول وتربيتها وتحسين نسلها على كونها مهمة في زمن السلم والحرب ، بل وضعوا لها المصنفات وألفوا فيها الكثير من الكتب الباحثة في أمورها • كما أقاموا لها الحلائب (جمع حلبة) لاجراء المسابقات والقيام بالعاب الفروسية والميدان • وقد ذكر المسعودي أن لعيسى بن لهيعة المصري كتابا يسمى « كتاب الجلائب

والحلائب » ، ذكر فيه كل حلبة أجريت في الجاهلية والاسلام(*) ٠

وكان العرب في الجاهليـة يتسابقون بخيولهم ويتفاخرون بذلك وكثيرا ما انتشبت الحرب بين القبائل من أجل السباق وكانوا يرسلون خيلهم الى الحلبة عشرة عشرة وعندهم لكل منها اسم باعتبار تقدمها في السبق بعضها على بعض(١) ٠

لقد بلغت عناية الخلفاء والامراء والسلاطين وغيرهم في العصرين الاموي والعباسي واهتمامهم بشؤون الفروسية والخيول وتربيتها واكرامها حدا كبيرا ، فكانوا يقضون أوقات فراغهم باللعب على الخيل ، والتدرب على أعمال الفروسية ، وكانوا يوصون رجالهم أن يعتنوا بخيولهم وأفراسهم مثل عنايتهم بنسائهم ، ومن أقوالهم في الخيل : « ان العزة والزينة بها وقهر الاعداء على ظهورها والغناء في بطونها(٢) ٠ وقد ذكر الجاحظ قولا ينم عن مبلغ اهتمام العباسيين بالفروسية : « زعم رجال من مشيختنا أنه لم يقم احد من ولد العباس بالملك الا وهو جامع لاسباب الفروسية »(٣)٠

وقد عني الامويون والعباسيون عناية خاصة باقامة الحلائب أو الحلبات وكان للعباسيين ميادين كبيرة في الرقة والشماسية يدربون فيها خيولهم ويرسلونها الى ميادين الحلبات التي لم يقتصر استعمالها على السـباقات وأعمال الفروسية بل اتخذت كميادين للاستعراضات والمناورات العسكرية وما أشبهها وكان للرشيد مواقف شهيرة في الحلبـة ٠ وقد ذكر كل من الطبري والمسعودي أن يزيد بن معاوية حين جرد الجيش سنة ٦٣ للهجرة لمحاربة ابن الزبير خرج الى الخيل يتصفحها وينظر اليها وهو متقلد سيفا ومتنكب قوسا عربية(٤) ٠

وكان سباق الخيل عند الامويين أهم تسلية للشعب على اختلاف طبقاته ٠ وانه كان لمعاوية بن ابي سفيان حلبة ٠ ويقال ان هشام بن عبدالملك أول من أقام حلبات السباق لتحسين نتاج الخيل وقد اشترك في السباق في عهده نحو أربعة آلاف من خيله وخيول الامراء ، ويقول المسعودي انه لم يكن لهذا السباق مثيل ٠ أما الوليد بن عبدالملك « فكان مغرى بالخيل وحبها وجمعها واقامة الحلبة ، وكان السندي فرسه جواد زمانه ، وكان يسابق به أيـام هشام ، وكان يقصر عن فرس هشام المعروف بالزائد ، وربما ضامه وربما

(*) آدم متز ـ الحضارة الاسلامية : ترجمة محمد عبدالهادي أبو ريدة ، ط ٣ ، ج ٢ ص ٢٥٣ ـ ٢٥٤ ٠ ومروج الذهب للمسعودي ط ٣ (١٩٥٨) ، ج ٢ : ص ٢٢٧ ـ ٢٢٨ ٠

(١) تاريخ التمدن الاسلامي لجرجي زيدان : مطابع دار الهلال ١٩٥٨ ، ج ٥ ، ص ١٧٩ ٠

(٢) مروج الذهب للمسعودي ، ج ٤ ص ٢٥ ٠

(٣) البيان والتبيين الطبعة الثالثة للسندوبي (القاهرة ١٩٤٧) ج ٣ ، ص ٢١ ٠

(٤) نعمان ثابت : الجندية في الدولة العباسية (بغداد ١٩٣٩) ، ص ٢٨٠ ٠

جاء مصليا »[٥] — والمصلي هو الذي يأتي بعد السابق حسب التسلسل المعروف عندهم (أي جاء الثاني) وكان ميدان السباق يومئذ في الرصافة (بالشام) .

٣ — حلبات السباق بسامراء ومصر في القرنين الثالث والرابع :

وفي الربع الاول من القرن الثالث للهجرة بلغت العناية باقامة وانشاء الحلائب وميادين الفروسية وساحات لعبة الصوالج (الصولجان) شأوا بعيدا ، فوصلت أوج مجدها وعزها على أيدي الخليفتين العباسيين المعتصم وابنه المتوكل بسر من رأى (سامرا) . ومن بين الاسباب التي دعت المعتصم الى ترك بغداد عاصمة الخلافة العباسية والانتقال الى أرض جديدة وبنائه سامرا واتخاذها عاصمة عام ٢٢١هـ-٨٣٦م هو انقاذ غلمانه وعساكره الذين كان أغلبهم من الفراغنة والاشروسية ، وتخليصهم من فتك أهل بغداد على أحد قولين . وكانت الغالبية العظمى من جيشه الامبراطوري تتألف من الفرسان ، فشيد المعتصم لهم بسامرا ثكنات لسكن (٢٥٠) ألف جندي واصطبلات واسعة لاستيعاب (١٦٠) ألف حصان[٦] . ولهذا نرى أن سوح الفروسية وحلبات السباق بسامراء بلغ عددها حدا لم تبلغه أية مدينة أو حاضرة من الحواضر الاسلامية في جميع أرجاء الامبراطورية العباسية المترامية الاطراف، هذا مضاف الى السوح والميادين في القصور الخاصة أو في ميادينها . فقد ذكر أن الخلفاء كانوا يلعبون بالصوالجة في ميادين خاصة بهم . ويحكى أنه في سنة ٢٦٣هـ دخل الوزير أبو الحسن عبدالله بن يحيى بن خاقان ميدانا في داره يوم الجمعة لضرب الصوالجة فركب ولعب فصدمه خادمه وسقط عن دابته ميتا ، وكان اللاعبون يدخلون الحمام الساخن ويدلكون[٧] .

وقد حذت حذو سامرا الكثير من المدن الاسلامية ومن أشهرها ميدان ابن طولون وميدان بيبرس بمصر وميادين الحكم في الاندلس، فقد ذكر المقريزي في خططه أن أحمد بن طولون[٨] قد بنى قصرا ووسعه وحسنه وجعل له ميدانا كبيرا يضرب فيه بالصوالجة فسمي القصر كله بالميدان»[٩] ، ولا غرابة في ذلك اذا ما عرفنا أن أحمد بن طولون قد نشأ وترعرع بسامرا وتأثر

---

(٥) مروج الذهب للمسعودي ، ج ٣ ، ص ٢٣٠ ، تاريخ التمدن الاسلامي : ج ٥ ص ١٧٦ .

(٦) الدكتور احمد سوسة : ري سامراء ، ج ١ ، ص ٥٠ .

(٧) آ. متز : الحضارة الاسلامية : ج ٢ ، ص ٢٥٦ .

(٨) كان أبوه طولون قائدا لحرس المعتصم وقد نشأ احمد نشأة عسكرية قاسية وخدم في طرسوس على الحدود البزنطية فأعجب فيه الخليفة المستعين (٢٤٨ — ٢٥١ هـ) وعظمت منزلته عنده ، فولي مصر فأسس الدولة الطولونية .

(٩) خطط المقريزي : ج ١ ص ٣٠٣ وما بعدها .

بأحوالها والنظم التي سادت فيها فبهرته عظمتها فحاول عندما تولى أمر مصر (٢٥٤ ـ ٢٧٠هـ) اقتباس الكثير من المظاهر الحضارية وادخال فنون الريازة التي كانت شائعة في سامرا في مصر ، من ذلك بناؤه الجامع الطولوني بمأذنته الملوية على غرار المسجد الجامع ومأذنته الملوية بسامرا ، وأنشأ ابنه خمارويه حلبة للسباق · وكانت هذه الحلبة تقوم مقام الاعياد(١٠) وكذلك فعل الاخشيديون ، حيث ذكر أنه « في عام ٣٢٤هـ شرع الاخشيد في اجراء حلبة السباق على رسم ابن طولون »(١١) .

غير أن العناية بحلبات السباق أو عدمها كثيرا ما كانت تتأثر بسلوك الحاكمين وأمزجتهم ، من ذلك نرى أن من الناس من كان يحرم اقامة الحلبة كما حدث عندما تولى على مصر يزيد بن عبد الله التركي عام ٢٤٢هـ (٨٥٦م) وكان متشددا ، تقدم بتعطيل الرهان وأمر ببيع الخيل التي كانت تتخذ للسلطان ، وكانت هذه الخيل ينفق عليها من مال الدولة على العادة الجارية قبل الاسلام ، ولكن الخيل أجريت عودا على بدء عام ٢٤٩هـ (٨٦٣م)(١٢) .

٣ ـ ساحات الفروسية (الحلائب) في سامراء :

لم يكن يعرف عن حلبات السباق وتفاصيلها ومواقعها بسامراء الشيء الكثير الى ما قبل الحرب العالمية الاولى بالرغم من قيام بعثة ألمانية برئاسة الاستاذ الدكتور أرنست هرتسفيلد Dr. Ernst Herzfeld عام ١٩١١ وقد سبقه المهندس الفرنسي (هنري فيوله H. Viollet) في التنقيب بدار الخليفة بسامراء في صيف عام ١٩١٠ ، وكان السبب في ذلك هو كثرة التلول والآكام القائمة هنا وهناك حيث يصعب على من يجول بينها أن يكون فكرة واضحة عن أشكالها واتجاهاتها · وبعد انتهاء الحرب الكونية الاولى في عام ١٩١٨ شرعت السلطة المحتلة بعملية مسح عام واستخدموا كافة الوسائل لتحقيق هذا الامر ، وقد ساعدت الصور الجوية على تذليل الكثير من الصعوبات في سامراء وخرائبها وأطلالها فرسموا لها الخرائط الخططية (الطوبوغرافية) الدقيقة ، وأظهرت الصور الجوية الملتقطة للمنطقة الواقعة شمالي المسجد الجامع والمحصورة بينه وبين تل العليق (تل المخالي) وبيت الخليفة ، أشكالا هندسية كان من بينها شكل فريد غريب في نوعه وهو يتكون من حيث الاساس من اجتماع أربع دوائر أو حلقات كبيرة حول مربع مركزي ، وقد أخطأ الكثير باعتدادهم ذلك الشكل الهندسي الغريب حديقة فسيحة الارجاء ، غير أن التنقيبات العلمية التي قامت بها مديرية الآثار العامة على عهد مديرها العالم الفاضل ساطع الحصري عدة سنوات (١٩٣٦ ـ ١٩٤٠) أثبتت خطأ هذا الظن وأوضحت الكثير من الغموض الذي يكتنف هذا

---

(١٠) أ· متز الحضارة الاسلامية : ج ٢ ، ص ٢٥٣ ·

(١١) ، (١٢) نفس المصدر السابق ، ص ٢٥٣ ·

الشكل . وسنوجز الكلام فيما يأتي عن مجرى الحلبات الموجود في منطقة سامراء وسيكون الترتيب بحسب ما يلي السطر :

(١) الحلبة الاولى وهي حلبة القصر (٢) الحلبة الثانية وتقع في منتهى دار الخليفة من الجهة الشرقية (٣) الحلبة الثالثة (حلبة تل العليق) (٤) الحلبة الرابعة (حلبة الدوائر الاربع المتماسة) (٥) الحلبة الخامسة (حلبة تل البنات) .

الحلبة الاولى (حلبة القصر) :

وهي أصغر الحلبات في سامراء وتقع في اخر دار الخليفة وهو القصر المعروف في المصادر التاريخية بدار العامة ، في الجهة الشرقية منه ، خلف الحفرة المعروفة بهاوية السباع أو السرداب ولهذا يمكننا أن نطلق عليها اسم ((حلبة القصر)) - والحلبة هذه على هيئة مستطيل يمتد من الشمال الى الجنوب بطول (٥٣٠) خمسمائة وثلاثين مترا وعرض (٦٥) خمسة وستين مترا ، ومن يلق نظرة على مخطط القصر الذي رسمه هنري فيوله عام ١٩٠٩ وهرتسفيلد من بعده ، يلاحظ أن هذه الساحة لا تقطع محور القصر (دار الخليفة) بصورة عمودية بل تنحرف عن اتجاه العمود بعض الانحراف . وهناك دلائل ترجح كون هذه الساحة المسورة حلبة للسباق ، منها بقايا البناية المرتفعة الواقعة في منتصف القسم الخلفي من سور هذه الساحة . ويظهر أن هذه البناية أو الدكة كانت معدة للتفرج بالنظر الى الالعاب ، مثل لعبة الصولجان والمسابقات الاخرى التى كانت تجرى داخل حلبة القصر . وتطل هذه البناية كذلك على الحلبة الثانية التى تمتد خلف القصر من جهة أخرى(١٣) .

الحلبة الثانية :

وتقع في النهاية الشرقية لدار الخليفة وتتكون من حلقة مستطيلة على هيئة مقطع الكمثراة وتمتد طولا الى مسافة ٥ر٥ خمسة كيلومترات ونصف لكل من جانبيها وتنتهي بالقرب من الضفة اليمنى لنهر القاطول(١٤) وعلى هذا تقدر الدورة الكاملة ب (١١) احد عشر كيومترا . يبدأ داخل الحلبة ضيقا من عند القصر غربا ثم تأخذ بالتوسع بالتدريج على طول الحلقة حتى تبلغ أقصى سعتها في الطرف الثاني شرقا .

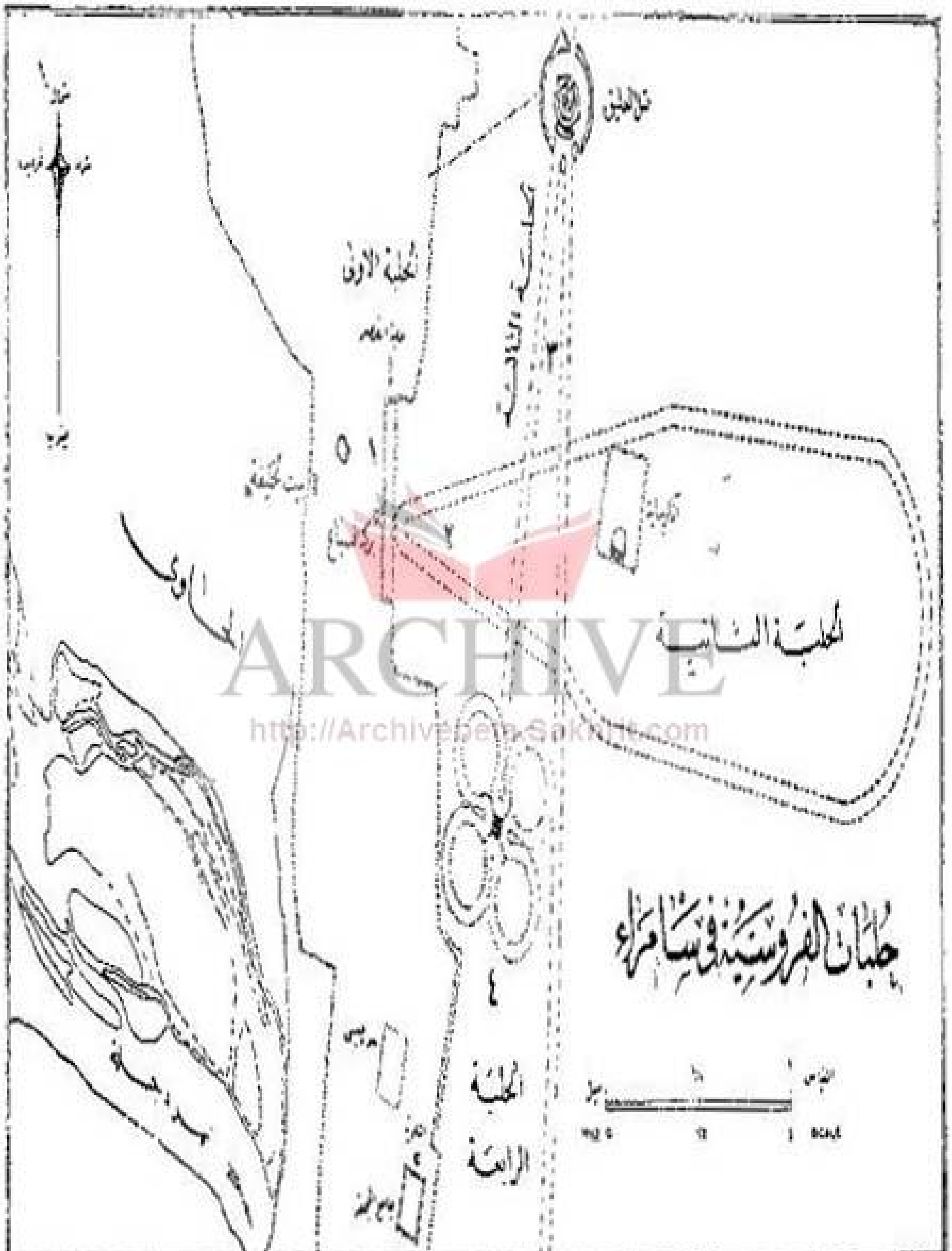
الحلبة الثالثة :

وتبتدي هذه الحلبة عند تل العليق الواقع الى الشمال الشرقي من

---

(١٣) نشرة دائرة الآثار عن سامراء (١٩٤٠) ، ص ٥٩ .

(١٤) ري سامراء : ج ١ ، ص ١١٧ .



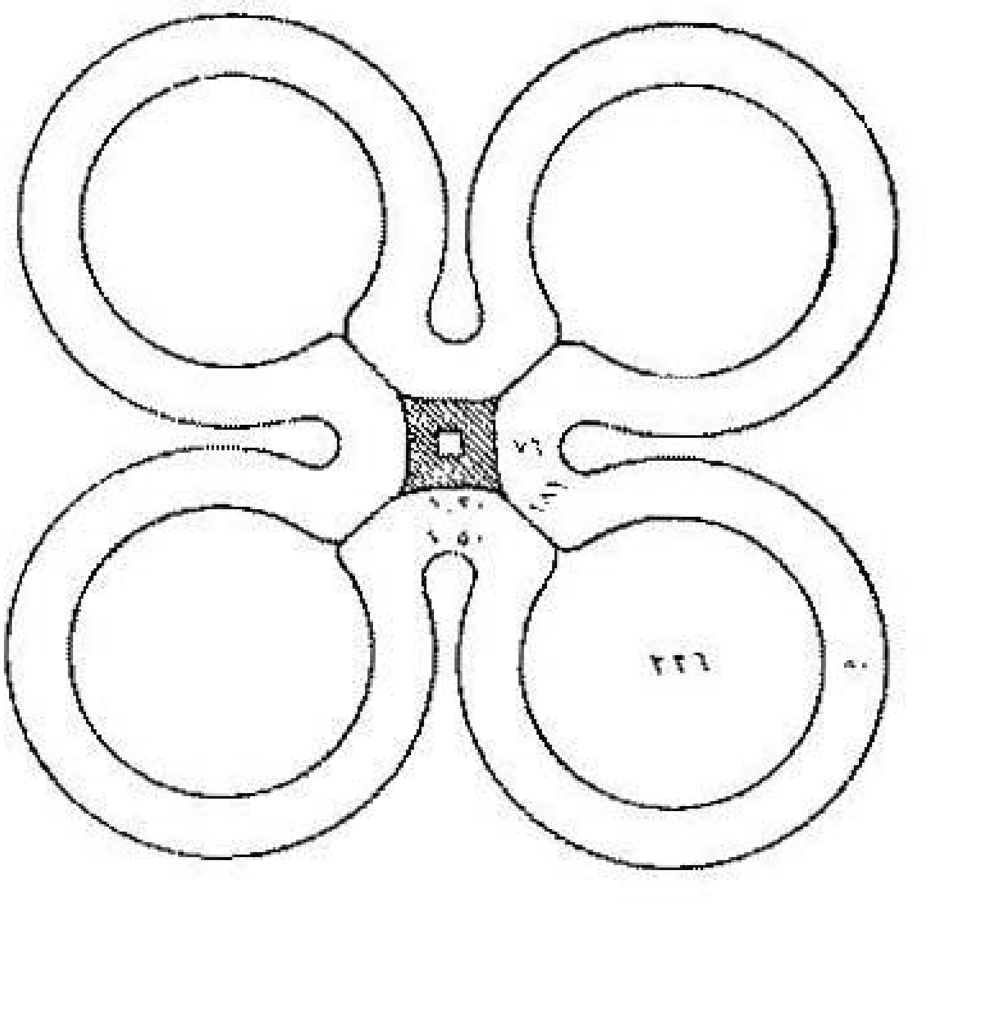
[نقلا عن كتاب رى سامراء مع بعض التغييرات]

الملوية ، وشكلها على هيئة مثلث متساوي الساقين رأسه في تل العليق وقاعدته منحنية • وهذه الحلبة تمتد باتجاه الجنوب مخترقة في امتدادها نحو الطرف الغربي للحلبة الثانية (انظر الخارطة) حتى تنتهي أمام المسجد الجامع والملوية من جهة الشرق ، ولم يبق من معالم هذه الحلبة الثالثة الا الجانب الشرقي منها الممتد الى مسافة تقدر بأكثر من (٥) خمسة كيلومترات تقريبا الى شرقي الملوية والمسجد الجامع • أما الجانب الغربي فقد اندثرت معالمه وتلاشت من جراء انشاء حلبة سباق جديدة (الحلبة الرابعة) في هذا المكان، وبقاياها توحي الينا انها كانت بالغة الطول • ويعد تل العليق ، (يعرف عند أهالي سامراء بتل العليج) ، الذي يبلغ ارتفاعه عن مستوى السهل المحيط به (٢٥) خمسة وعشرين مترا ، المكان الذي كان الخليفة العباسي يجلس فوقه مع حاشيته للتفرج بالنظر الى السباقات • وقد أظهرت التنقيبات الاثرية فوق سطح هذا التل وجود تسع غرف متلاصقة احداهن في الوسط • أن هذا الارتفاع يساعد على الاطلاع على السهل وتتبع جري الخيول والمتسابقين لمسافة طويلة •

الحلبة الرابعة :

وتقع في السهل الفسيح الممتد شمالي المسجد الجامع والملوية ، وقد صممت هذه الحلبة على شكل هندسي مبتكر بديع يعد انجازا هندسيا رائعا فريدا في بابه يستحق كل تقدير واعجاب •

يتكون شكل الحلبة الرابعة من حيث الاساس من اجتماع أربعة أطواق أو أربع حلقات (دوائر) متماسة ، حول مربع كبير مركزي • وكل حلقة



من هذه الحلقات الاربع تتألف من طوقين متوازيين يدوران بهذا الشكل الجميل تاركين بينهما مسافة (٨٠) ثمانين مترا ٠ وهذه الاطواق تلتوي حول المربع المركزي أربع مرات (مرة واحدة في كل دائرة) دون أن تنقطع من أي محل كان ٠ والمربع المركزي المبحوث عنه يكون دكة أو مصطبة تظهر عليها آثار بناية من الآجر قد تكون المكان المعد لجلوس الخليفة وتفرجه مع وزرائه ٠

ان طول الدورة الكاملة في هذه الدوائر الاربع المتماسة المتتالية يزيد على (٥) خمسة كيلومترات في حين أن البعد الاعظم عن الدكة المركزية على طول هذه الدورة لا يقل عن (٦٠٠) ستمائة متر ، فيستطيع المتسابقون أن يقطعوا هذه المسافة البالغة خمسة كيلومترات أو اضعافها دون أن يتباعدوا عن أعين الخليفة أكثر من (٦٠٠) ستمائة متر في أكثر الاحوال(١٥) ٠

وكانت هذه الساحة مركز للمظاهرات تجتمع فيها الجموع والمواكب في الثورات المحلية كما كانت تقام فيها المناورات العسكرية وما أشبهها ، وكثيرا ما كان يعسكر فيها الجنود في مثل هذه الحالات ٠ ففي عهد الفتن التي وقعت في عهد الخليفة المهتدي ، عسكر المهتدي مع جنوده في هذه الساحة ، وقد أورد الطبري خبر ذلك حيث قال : « ان المهتدي بعد أن خرج من الجوسق عسكر في ساحة الحير بالقرب من موقع الحلبة وأمر أن تخرج الخيام والمضارب تضرب في الحير »(١٦) ٠

الحلبة الخامسة :

وتقع هذه الحلبة في الشمال الشرقي من أطلال المدينة المتوكلية الواقعة على (٢٠) عشرين كيلومترا من شمال مدينة سامراء الحالية ٠ وكان الخليفة العباسي المتوكل على الله قد ابتدأ بعمارتها سنة ٢٤٥هـ وأتمها بنهاية سنة ٢٤٦هـ أي في مدة تقل عن العامين ، وقد دفن فيها بعد قتله عام ٢٤٧هـ ٠

وقد شق المتوكل النهر الجعفري لاسقاء مدينة المتوكلية ومن هذا النهر شق قناة أو نهرا تسمى بقاياه الان نهر (الحديد) ــ تصغير الحد ــ يسير بصورة مستقيمة باتجاه الجنوب الشرقي لمسافة ٢١كم ثم ينعطف بزاوية قائمة باتجاه الجنوب الغربي لمسافة (١٠) كيلومترات لينتهي الى الضفة اليسرى من نهر القاطول الكسروي ، فيكون مثلثا قائم الزاوية شرقي النهر الجعفري تبلغ مساحته زهاء مائة كيلو متر مربع (٠٠٠ر٤٠) مشارة ٠ ولا شك أن وراء تهيئة هذه الساحة واحاطة مياه نهر الحديد بها من جهتين والنهر الجعفري من الجهة الثالثة مشروع جسيم كان المتوكل ينوي انشاء حلبة للسباق فيها على أن يكون تل البنات ــ الواقع على مسافة أقل من

---

(١٥) سامراء : نشرة دائرة الآثار القديمة ، ص ٦٤ ٠

(١٦) ذكرى سامراء ، ج ١ ص ١١٦ ، نقلا عن الطبري ٠

كيلومترين من ناحية الدور الحالية ـ الموقع المرتفع الذي يشرف منه عليها(١٧) ومن الملاحظ أن تل البنات يقع بازاء الزاوية القائمة لمثلث المساحة تماما وذلك مما يدل على أنه انشىء للتفرج بالنظر الى ساحة السباق التي كانت النية متجهة الى جعلها على شكل مثلث أو مربع • وأبعد مسافة على عرض الساحة التي بين النهر الجعفري ونهر الحديد زهاء (١١) احد عشر كيلومترا • ومما يؤيد ذلك العثور على بقايا أبنية فوق تل البنات كما هو الحال في تل العليق ربما كانت مقصورة معدة لجلوس الخليفة وحاشيته • ويظهر أن المتوكل كان ينوي نقل حلبة السباق التي كان أنشأها في سامراء الى هذا المكان أي الى الساحة الواسعة التي تمتد شرقي النهر الجعفري وذلك بعد اتمام حفر النهر الا أن الظروف لم تسمح له بتنفيذ ذلك(١٨) •

استنتاجات وتعليقات :

١ ـ لم يقتصر اهتمام الخلفاء والامراء والقادة على حلبات السباق حسب ، بل استحوذ على شعور واعجاب كافة طبقات الشعب ومنهم الشعراء وقد تأثر الشاعر البحتري بذلك فأخذ يشبه بقصيدته التي يصف (البركة) وتدفق المياه فيها كالخيول الجارية في حلبات السباق • فمن قصيدته التي مطلعها :

يا مَنْ رأى البِرْكَةَ الحسناءَ رؤيتَها
ولآنساتِ إذا لاحتْ مغانيهــا

٭ ٭ ٭

تنصبُّ فيها وفودُ الماءِ معجـلةً
كالخيـلِ خارجةً من حبلِ مجريهـا

وللشاعر البحتري أيضا ارجوزة في وصف الحلبة يقول فيها :

يا حسنَ مُدي الخيلِ في بُكورِها
تلوحُ كالأنجـمِ في دَيْجُـورِهـا

(١٧) ـ (١٨) الدكتور أحمد سوسة : مأساة هندسية - ص ٤٠ ـ ٤١ ، ٤٧ •

كأنما أُبدعَ في تَشْهيرِها
مصوِّرٌ حسَّنَ من تصويرِها

٠ ٠ ٠

كأنّها والحبلُ في صدورِها
أجادلٌ تنهضُ في سُيورِها
مرّتْ تُباري الرِّيحَ في مرورِها
والشمسُ قد غابَ ضياءُ نورِها
صارَ الرجالُ شُرفاً لسورِها
أُعطيَ فضلُ السَّبْقِ من جمهورِها

٠ ٠ ٠

ولمحمد بن يزيد بن مسلمة بن عبدالملك بن مروان(١٩) قصيدة عامرة يصف بها الحلبة وسباق الخيل ، نجتزيء منها ما يلي :

شَهِدْنا الرِّهانَ غَداةَ الرِّهان
بمَجْمعةٍ ضمَّها الموسِمُ
نقود إليها مقادَ الجميع
ونحن بصَنْعَتِها أقْوَمُ

٠ ٠ ٠

وَرَبُّكَ بالسَّبْقِ عن ساعةٍ
من الناس كلِّهمُ أعلمُ

---

(١٩) مروج الذهب : ج ٤/ ٣٥٠ ـ ٣٥١ .

وَمَنْ لا يُعِدُّ للحـــلابِ الجيادَ

وشـــيكٌ لَعَمْـــرِكَ ما يَنْـــدَمُ

٢ ـ من الممكن اعتداد المعدل العام لطول دورة السباق (المسافة) التي تقطعها الخيول في هذه الحلبات (عدا الاولى) كان ما بين (١٠ ـ ١١) كيلو مترا • فطـول الدورة في كـل من الحلبتين الثانيـة والثالثة (١١) كيلو مترا ، أما في الحلبة الرابعة (ذات الاطواق الاربعة) فالظاهر أن الخيول تقطعها مرتين لاتمام الدورة (في كل مرة أكثر من (٥) خمسة كيلومترات) • أما في الحلبة الخامسة (المقترحة) في المتوكلية فان طول الساحة يبلغ (١١) كيلو مترا •

٣ ـ وقع الكثير في خطأ باعتدادهم الحلبة الرابعة (ذات الاطواق الاربعة) بشكلها ومساحتها اثار حديقة زينة فسيحة الارجاء وقد استبعدت دائرة الاثار ذلك بنشرتها عن (سامراء ١٩٤٠) ص٦٣ وجود الماء كشرط لاعتدادها ساحة فروسية • ((•• ولا يوجد داخل هذه الساحة أو حواليها شيء يشبه قنوات المياه يسوغ فرضية حديقة الزينة)) • بينما يثبت واقع الحال عكس ذلك اذ نرى أن وجود الماء وتوفره في حلبات السباق من أوجب الضرورات والزمها للشرب ولارواء الحيوانات والخيول ولرش الطريق الذي تسلكه الخيول المتسابقة وما تولده من غبار • وأسوق فيما يلي من الادلة التي تؤيد ما ذهبنا اليه :

أ ـ في الحلبة الاولى (حلبة القصر) :

ارجح أن تكون الحفرة أو الموضع المعروف بهاوية السباع (الهبية) بشكله ومساحته والغرف المتعددة المنحوتة في جوانبه ، مكانا لايواء الخيول قبل السباق وبعده وذلك بدلالة البركة الموجودة في وسـط الحفرة وكذلك الغرف الجانبية • ولو ألقينا نظرة فاحصة على مخطط القصر الذي رسمه هرتسفيلد نجد في الجدار الفاصل ما بين الحلبة الاولى وهاوية السباع بابا واسعا • والبركة كانت تمون بالماء من قناة تمر من أمام القصر •

ب ـ الحلبة الثانية :

كانت تمون من قناة المتوكل التي أنشأها لايصال الماء الى سامراء ، وكانت هذه القناة تبتدىء من شمال مدينة الدور ثم تسير بموازاة نهر دجلة الى مسافة تقدر بأربعين كيلو مترا حتى تصـل الى قلب العاصمة تاركة تل العليق الى يسارها ، وكان هناك فرع خاص يتشعب من أمام هذا التل فيفضي الى الخندق المحيط بالتل •

ج ـ الحلبة الثالثة :

وهي حلبة تل العليق ، التي امن وصول المياه اليها من دجلة وعلى وجه التخصيص من قناة المتوكل في فرع خاص يفضي الى الخندق المحيط بالتل ، كما كان فقير أي بئر كظيمة (كهريز) خاص يخرج من الخندق من جهته الجنوبية فيتجه نحو القناة وكان هذا الفقير (الكهريز) يرجع المياه الى القناة بعد امتلاء الخندق[20] ٠

د ـ الحلبة الرابعة :

كانت تمون من قناة المتوكل المارة الذكر ٠

هـ ـ الحلبة الخامسة (حلبة تل البنات) :

كان التل تحيط به المياه ٠ « وعند وصول النهر الجعفري عند تل البنات ينقسم هذا الجدول في هذا المكان قسمين أو فرعين ، الفرع الغربي يحيط بالتل من الغرب ٠ والفرع الشرقي يحيط به من جهة الشرق ثم يعود الجدول فيتوحد بالتقاء الفرعين وذلك مما يجعل التل اشبه شيء بجزيرة »[21] ، بل أن الحلبة يحيط بها من ثلاث جهات الماء كما مر وصفه ٠

٤ ـ في الساحة الرابعة (ذات الاطواق) ، وهي بشكلها الهندسي المبتكر روعي فيها حل مشكلتين في أوان واحد وهما (١) الاختصار من طول مسافة الحلبة الذي كان يتطلب مرتفعا عاليا ٠ (٢) الاختصار في ارتفاع الدكة أو المنصة التي يجلس فوقها الخليفة وحاشيته ٠



(٢٠) ري سامراء ج ١ ، ص ١١١ ، ١١٨ ، ١٤١ ٠

(٢١) مأساة هندسية ، ص ٤٠ ٠

الربيع بن زياد الحارثي (١)

فاتح بيروذ(٢) ومناذر(٣) من الأهواز
وفاتح سجستان(٤) وخراسان ثانية

اللواء الركن محمود شيت خطاب

« رجل اذا كان في القوم أميراً فكأنه ليس بأمير ،
واذا كان في القوم ليس بأمير فكأنه أمير » ٠
(عمر بن الخطاب)

الصحابي

لا نعلم متى أسلم الربيع بن زياد الحارثي ، ولكنه كانت له صحبة(٥)، وقد تولى قيادة جيش من جيوش المسلمين في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وكانوا في عهده لايولون الا الصحابة(٦) ٠

كما لا نعرف له جهاداً تحت لواء الرسول القائد ، لذلك فقد نال الربيع شرف الصحبة ولم ينل شرف الجهاد في غزوات النبي صلى الله عليه وسلم ٠

جهاده

١ ـ كان عمر بن الخطاب قد عهد الى أبي موسى الأشعري أن يسير برجاله متغلغلا في الأهواز وذلك لحماية منطقة البصرة من تحرشات الفرس أولا ولكي لا يؤتى المسلمون من خلفهم ثانياً وحتى لاتكون منطقة الأهواز ميداناً لتحشد الجيوش الفارسية وحلفائهم مما يهدد سلامة العراق أخيراً ٠

ولكن أبا موسى أبطأ في ارسال جيوشه الى كور الأهواز ، فلما وصلت الخيول الى تلك الكور كان الوقت المناسب قد فات ، فتجمع في (بيروذ) جمع عظيم من الأكراد وغيرهم ٠

وخرج أبو موسى الأشعري من البصرة متجهاً نحو (بيروذ) في رمضان، وكان قد توافى اليها أهل النجدات من اهل فارس والأكراد ليكيدوا المسلمين وليصيبوا منهم عورة ولم يشكوا في واحدة من اثنتين ٠

والتقى أبو موسى بحشود العدو بين نهر (تيرى)[٧] و (مناذر) ، فقام المهاجر بن زياد الحارثي[٨] وقد تحنط واستقتل[٩] ، فعزم أبو موسى على الناس فأفطروا ، فتقدم المهاجر وقاتل قتالا شديداً حتى قتل ٠

واشتد جزع الربيع على أخيه المهاجر ، فكتب عمر الى أبي موسى وهو محاصر أهل (بيروذ) يأمره أن يخلف عليها ويسير الى (السوس)[١٠] ، فخلف الربيع ابن زياد[١١] ، ففتح الله عليه أهل (بيروذ) من نهر (تيرى) وأخذ ما معهم من السبى[١٢] ٠ كما فتح (مناذر) عنوة وصارت مناذرالكبرى ومناذر الصغرى في أيدي المسلمين[١٣] ، وكان ذلك سنة سبع عشرة هجرية[١٤] ٠

٢ ـ وكانت (سجستان) قد فتحت أيام عمر بن الخطاب ، ولكن أهلها نقضوا بعده ، فلما توجه عبدالله بن عامر الى (خراسان)[١٥] سنة احدى وثلاثين هجرية[١٦] سير اليها من (كرمان)[١٧] الربيع ، فسار اليها حتى نزل (الفهرج)[١٨] ، ثم قطع المفازة[١٩] وهي خمسة وسبعون فرسخاً ، فأتى رستاق (زالق)[٢٠] ، فاغار على أهله في يوم (مهرجان)[٢١] وأسر دهقانه فافتدى نفسه ، فحقن الربيع دمه وصالحه على أن يكون بلده كبعض مافتتح من بلاد فارس وكرمان ٠

ثم أتى الربيع قرية يقال لها : (كركويه)[٢٢] على خمسة أميال من (زالق) ، فصالحوه ولم يقاتلوه ٠ ونزل الربيع رستاقاً يقال له : (هيسون)[٢٣] فأقام له أهله النزل وصالحوه على غير قتال ٠

وعاد الربيع الى (زالق) وأخذ الأدلاء منها الى (زرنج)[٢٤] وسار حتى نزل (هندمند)[٢٥] وعبروا واديا يتفرع منه يقال له : (نوق)[٢٦] ، وأتى (دوشت) [٢٧] فخرج اليه اهلها وقاتلوه قتالا شديدا فاصيب رجال من المسلمين ، ولكن المسلمين كروا عليهم حتى اضطروهم الى المدينة بعد أن قتلوا منهم مقتلة عظيمة ٠

وسار الربيع الى (ناشروذ)[٢٨] فقاتل أهلها وظفر بهم ٠ ومضى الربيع من (ناشروذ) الى (شرواذ)[٢٩] فغلب عليها وأصاب بها بعض السبى ٠

وحاصر الربيع (زرنج) بعد أن قاتله أهلها ، فبعث اليه أبرويز مرزبانها يستأمنه ليصالحه ، فأمر بجسد من أجساد القتلى فوضع له وجلس عليه ، واتكأ على آخر وأجلس أصحابه على أجساد القتلى ، فلما رآه المرزبان هاله فصالحه على ألف وصيف مع كل وصيف جام من ذهب ، فدخل الربيع المدينة ٠

وأتى بعد ذلك الربيع (سناروذ)[٣٠] وهو واد فعبره وأتى (قرنين)[٣١] فقاتله أهلها ولكنه ظفر بهم ٠

وعاد الربيع الى (زرنج) فأقام بها سنتين ، ثم أتى عبدالله بن عامر واستخلف بها رجلا من بني الحارث بن كعب فأخرجوه وأغلقوها ٠

وكانت ولاية الربيع سنتين ونصفاً ، وسبى في ولايته هذه أربعين

ألف نسمة ، وكان كاتبه الحسن البصري(٣٢) .

ولما صار الأمر الى معاوية عزل عبدالرحمن بن سمرة عن (سجستان) وولاها الربيع(٣٣) ، وكان ذلك سنة احدى وأربعين(٣٤) هجرية (٦٦١م) ، فأظهره الله على الترك ، وبقي أميراً على (سجستان) الى أن مات المغيرة بن شعبة وهو أمير على الكوفة(٣٥) وذلك سنة خمسين للهجرة (٦٧٠م)(٣٦) ، فولى معاوية زياد بن أبي سفيان الكوفة مع البصرة وجمع له العراقين(٣٧) .

٣ ــ وعزل زياد عن (سجستان) الربيع ، وبعثه الى (خراسان) أميراً سنة احدى وخمسين هجرية ، وسير معه خمسين ألفاً بعيالاتهم من اهل الكوفة والبصرة ، فأسكنهم دون النهر (جيحون) في (خراسان) ، فلما قدمها غزا (بلخ)(٣٨) ففتحها صلحاً ، وكانت قد اغلقت بعدما صالحهم الأحنف بن قيس التميمي ، وفتح (قهستان)(٣٩) عنوة وقتل من بناحيتها من الأتراك ، فبقي منهم نيزك طرخان ملك الترك فقتله قتيبة بن مسلم في ولايته(٤٠) .

وهكذا أشاع الأمن والاستقرار في ربوع (خراسان) وأعادها الى بلاد الاسلام .

الانسان

كان الربيع آدم(٤١) أفوه(٤٢) طويلا(٤٣) ، وفي رواية : انه أبيض خفيف اللحم خفيف الجسم(٤٤) له صحبة وليست له رواية وقد أدرك أيام النبي صلى الله عليه وسلم ولم يقدم المدينة الا في أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه(٤٥) .

كان عاملا لأبي موسى الأشعري على البحرين(٤٦) ، وقد وفد يومئذ على عمر فقال له : «ماأقدمك ؟» ، فقال : «قدمت وافداً لقومي» ، فأذن عمر للمهاجرين والانصار والوفود ، فتقدم الربيع ، فقال : «ياأمير المؤمنين ! والله ما وليت هذه الأمة الا ببلية ابتليت بها ، ولو أن شاة ظلت بشاطىء الفرات لسئلت عنها يوم القيامة» ، فانكب عمر يبكي ثم رفع رأسه وقال : «ما اسمك ؟» فقال «الربيع بن زياد» . وله مع عمر أخبار كثيرة ، فكتب عمر الى أبي موسى أن يقره على عمله(٤٧) .

والظاهر أن أبا موسى ولاه فتح (بيروذ) قبل توليته البحرين ، لأن أبا موسى تولى البصرة سنة سبع عشرة هجرية(٤٨) فولى الربيع فتح (بيروذ) في تلك السنة ، مما يدل على ان أبا موسى ولى الربيع البحرين بعد ذلك ، أي حوالي سنة ثمان عشرة هجرية .

وتولى (سجستان) و (خراسان) كما أسلفنا ، فأعادهما الى الطاعة وأشاع فيهما الأمن والاطمئنان ، مما يدل على أنه كان ادارياً حازماً .

قال زياد بن أبي سفيان عن الربيع : «ماكتب قط الا في اختيار منفعة أو دفع مضرة»(٤٩) ، مما يدل على حرصه على المصلحة العامة وتكريس حياته لها .

واذا كان في موكب ، فلا تتقدم دابته على دابة من الى جانبه ولا تمس ركبته ركبة من الى جانبه(٥٠) ، مما يدل على تمسكه الشديد بأداب رفقة الطريق وانعدام الانانية والتكبر والعلو في نفسيته • قال عمر لأصحابه يوماً : « دلوني على رجل اذا كان في القوم أميراً ، فكأنه ليس بأمير • واذا كان في القوم وليس بأمير ، فكأنه أمير » ، فقالوا «مانعرف الا الربيع بن زياد الحارثي» ، فقال عمر : «صدقتم»(٥١) ، وهذا يدل على تواضعه حين يكون أميراً واعتداده بنفسه حين لايكون وظهور فضله على غيره ، فهو شخصية بارزة بدون امارة ، والامارة لاتزيده الا تواضعاً •

كتب اليه زياد بن أبي سفيان : « ان أمير المؤمنين معاوية كتب يأمرك أن تحرز الصفراء والبيضاء ، وتقسم ماسوى ذلك » ، فكتب اليه : « اني وجدت كتاب الله قبل كتاب أمير المؤمنين» ، ونادى في الناس أن : «اغدوا على غنائمكم» ، فأخذ الخمس وقسم الباقي على المسلمين(٥٢) ، وهذا يدل على تمسكه بأهداب الشريعة السمحاء وعدم الاذعان لما يخالفها •

توفي في (خراسان) سنة ثلاث وخمسين هجرية(٥٣) (٦٧٢م) ، وقد سأله عمر بن الخطاب حين قدم عليه حوالي سنة ثمان عشرة هجرية عن سنه ، فقال : «خمس وأربعون»(٥٤) ، اي انه ولد سنة سبع وعشرين قبل الهجرة (٥٩٥م) ، فيكون عمره يوم مات ثمانين سنة قمرية •

وقد ذكروا أن سبب موته هو دعاؤه الله أن يميته بعد أن كتب الى زياد : «وجدت كتاب الله قبل كتاب أمير المؤمنين» ، ومبادرته الى تقسيم الغنائم بين أهلها غير مكترث لأمر معاوية ولا لأمر زياد ، فدعا الله أن يميته فما جمع حتى مات(٥٥) •

وفي رواية، أنه لما أتاه مقتل حجر بن عدي(٥٦) قال: «اللهم ان كان للربيع عندك خير ، فاقبضه» ، فلم يبرح من مجلسه حتى مات(٥٧) ، وكان قد ذكر حجر بن عدي فأسف عليه ، وقال : « والله لو ثارت العرب له لما قتل صبراً، ولكن أقرت العرب فذلت»(٥٨) ، وقال : «لاتزال العرب تقتل صبراً بعده ، ولو نفرت عند قتله لم يقتل رجل منهم صبراً ، ولكنها أقرت فذلت !»(٥٩)• ومهما يكن من أمر ، فان كل ذلك يدل على شدة ورعه واستنكاره لكل ظلم•

كان الربيع متواضعا خيراً(٦٠) ، وكان ورعاً تقيا نقيا خائفا الله ملتزما بحدود أوامره ونواهيه ، ويكفي ان نعلم ان الحسن البصري كان كاتبه بخراسان(٦١) • لم يشترك في الفتنة الكبرى بقلبه ولا بلسانه ولا بسيفه • وكان صريحا واضحا ، واداريا حازما ، يعمل للمصلحة العامة وحدها ولا نعرف أنه جمع الأموال والعقار طيلة حياته العامة ، فقد عاش فقيراً ومات فقيراً ، ولكنه أرضى ضميره فكان أغنى الأغنياء •

انه مثال رفيع للمؤمن الحق وللخلق الكريم •

القائد

كان الربيع أول من أمر الجند بالتناهد(٦٢) وذلك لتقوية المعنويات واذكاء روح التعاون فيما بينهم •

والظاهر من حروبه ، أنه كان قائداً يجيد فن الحصار ، وهذا الفن لايجيده الا القائد المدرب الذي يتحلى بالضبط المتين ، والذي يمتاز بالحذر واليقظة فلا يفسح المجال لعدوه للافادة من المصادر الخارجية لادامة قواته المحصورة بالمواد التموينية وبالأسلحة والعتاد حتى يقوى على اطالة الحصار • كما أن القائد الصبور هو الذي ينجح في مغالبة عدوه في الحصار ويجبره على الاستسلام •

وعبوره المفازة بجيوشه دليل آخر على شدة ضبطه وصبره ، كما أنه دليل على تحمله المشاق دون كلل ولا ملل ، كما أنه دليل على تشبعه بروح (المباغتة) أهم مبادىء الحرب ، فقد سلك طريقاً لايتوقع العدو سلوكه وبذلك باغته بالمكان والزمان •

لقد استطاع الربيع أن يتغلب على أعدائه الكثيرين بجيشه القليل نسبياً الى جانب عدد خصومه ، وهذا دليل على معرفته أساليب القتال وتطبيقه مبادىء الحرب بكفاءة •

وكان لاخلاقه الكريمة وماضيه المجيد موضع ثقة رجاله ورؤسائه على حد سواء ، فقد أوكل له رؤساؤه أصعب الجبهات في أصعب الظروف ، فاستطاع بحنكته التغلب على تلك الصعاب •

بل كان موضع ثقة حتى عند عدوه ، مما جعل الامور تستتب في سجستان وخراسان في أيامه وتنتقض من بعده ، مما يدل على أن حربه كانت انسانية وفقاً لتعاليم الاسلام في الحرب •

لقد كان الربيع قائداً ممتازاً •

الربيع في التاريخ

يذكر التاريخ للربيع فتحه مناطق واسعة من الأهواز واستعادته مناطق أوسع في سجستان وخراسان •

ويذكر له ايمانه العميق ونكرانه ذاته وخلقه القويم •

رضى الله عن القائد الفاتح ، الاداري الحازم ، القوي الأمين ، الفارس البطل ، الأمير الانسان ، الربيع بن زياد الحارثي •

---

(١) هو الربيع بن زياد بن أنس بن الديان بن قطن بن زياد بن الحارث بن مالك بن كعب بن عمرو بن علة بن جلد بن مالك بن أدد وهو مذحج • انظر جمهرة انساب العرب (٤١٦-٤١٧) والاصابة (٢/١٩٥) • وفي الاستيعاب (٢/٤٨٨) : الربيع بن زياد بن الربيع ، وفي اسد الغابة (٢/١٦٤) : الربيع بن زياد بن الربيع الحارثي ، وقال غيره : الربيع بن زياد بن أنس بن الديان •• انتهى ، ونسبه الاول هو الاصح ، لاجماع اكثر المصادر عليه • واسم الديان : يزيد • انظر جمهرة أنساب العرب (٤١٦) وأسد الغابة (٢/١٦٤) •

(٢) بيروذ : ناحية بين الاهواز ومدينة الطيب ، وهي كبيرة بها نخل كثير حتى انهم يسمونها : البصرة الصغرى ، ويقال انها كانت قصبة كورة قديما • انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/٣٢٠) • ومدينة الطيب : بلدة بين واسط وبين الاهواز • انظر تقويم البلدان (٣١٤) والمشترك وضعا (٢٩٨) •

(٣) مناذر : هما بلدتان بنواحي الاهواز ، مناذر الكبرى ومناذر الصغرى • انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/١٦٠) •

(٤) سجستان : ناحية كبيرة وولاية واسعة يحيطها من الشرق مفازة بين مكران وأرض السند وشيء من عمل الملتان ، ومما يلي الغرب خراسان وشيء من عمل الهند ، ومما يلي الشمال أرض الهند ، ومما يلي الجنوب المفازة التي بين سجستان وفارس وكرمان • انظر المسالك والممالك للاصطخري (١٣٩) ومعجم البلدان (٥/٣٧) •

(٥) أسد الغابة (٢/١٦٤) والاستيعاب (٢/٤٨٨) •

(٦) الإصابة (٢/١٩٤) و (٤/٢٣٥) و (١/٣٠٩) •

(٧) تيرى : بلدة من نواحي الاهواز • والنهر الذي باسم البلدة حفره اردشير الاصغر بن بابك • انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/٤٤٠) و (٨/٣٨٠) •

(٨) المهاجر بن زياد الحارثي : أخو الربيع بن زياد الحارثي ، في صحبته نظر • شهد مع أخيه معركة (بيروذ) تحت لواء أبي موسى الاشعري ، فاراد أن يشري نفسه وكان صائما• فقال الربيع لابي موسى : « ان المهاجر عزم على أن يشري نفسه وهو صائم » ، فقال أبو موسى : « عزمت على كل صائم أن يفطر أو لا يخرج الى القتال » ، فشرب المهاجر شربة ماء وقال : « قد أبررت عزمة أميري ، والله ما شربتها من عطش » ، ثم راح في السلاح فقاتل حتى استشهد ، فأخذ أهل مناذر رأسه ونصبوه على قصرهم بين شرفتين • وله يقول القائل :

وفي مناذر لما جاش جمعهم ... راح المهاجر في حل بأجمال

والبيت بيت بني الديان نعرفه ... في آل مذحج مثل الجوهر الغالي

وقد استشهد سنة سبع عشرة هجرية • انظر أسد الغابة (٤/٤٣٣) والاستيعاب (٤/١٤٥٤) وفيه : انه قتل سنة تسع عشرة هجرية • وانظر البلاذري (٣٧٠ ـ ٣٧١)

(٩) الطبري (٣/٢٥٨) وابن الاثير ٣/١٨) •

(١٠) السوس : بلدة بالاهواز • انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/١٧١) •

(١١) البلاذري (٣٧١) •

(١٢) الطبري (٣/٢١٨) وابن الاثير (٣/١٨) •

(١٣) البلاذري (٣٧١) •

(١٤) أسد الغابة (٣/١٦٤) •

(١٥) خراسان : بلاد واسعة تتاخم العراق العجمي من المغرب وافغانستان والهند من الشرق • انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣/٤٠٧) والمسالك والممالك (١٤٥ـ١٦٠) •

(١٦) ابن الاثير (٣/٤٩) وفي البلاذري (٣٨٥) : ان ذلك كان سنة ثلاثين •

(١٧) كرمان : ولاية كبيرة مشهورة بين فارس ومكران وسجستان • انظر التفاصيل في معجم البلدان (٧/٢٤١) •

(١٨) الفهرج : بلدة بين فارس وأصبهان معدودة من أعمال فارس ثم من أعمال كورة اصطخر • انظر التفاصيل في معجم البلدان (٦/٤٠٦) •

(١٩) المفازة : الصحراء المهلكة •

(٢٠) زالق : من نواحي سجستان ، وهو رستاق كبير فيه قصور وحصون •• انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤/٣٦٩) • وزالق حصن بينه وبين سجستان خمسة فراسخ • انظر البلاذري (٣٨٥) •

(٢١) مهرجان : عيد من أعياد الفرس

(٢٢) كركويه : مدينة من نواحي سجستان فيها بيت نار معظم عند المجوس • انظر معجم البلدان (٢٤١/٧) •

(٢٣) هيسون : لم أجد له ذكرا في معجم البلدان • والظاهر انه رستاق بين زالق وزرنج •

(٢٤) زرنج : مدينة هي قصبة سجستان - انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣٨٥/٤) والمسالك والممالك (١٣٩) والبلدان (٣١٥) •

(٢٥) هند مند : اسم نهر مدينة سجستان • انظر معجم البلدان (٤٨٢/٨)

(٢٦) نوق : في معجم البلدان (٣٢٧/٨) وردت : نوقات ، وهي محلة بسجستان ، وأهل سجستان يقولون : نوها ، فعربت كما ترى •

(٢٧) ذوشت : مدينة بينها وبين زرنج ثلثا ميل • انظر البلاذري (٣٨٥) •

(٢٨) ناشروز : ناحية بسجستان • انظر معجم البلدان (٢٣٧/٨)

(٢٩) شرواذ : ناحية بسجستان • انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢٥٧/٥)

(٣٠) سناروذ : اسم نهر سجستان ، ويجري على فرسخ من سجستان ، تتشعب منه أنهار كثيرة • انظر التفاصيل في معجم البلدان (١٤١/٥) •

(٣١) قرنين : قرية من رستاق نيسك من نواحي سجستان • انظر التفاصيل في معجم البلدان (٦٦/٧) • وقد وردت في البلاذري (٣٨٦) : القريتين ، وهذا تصحيف • •

(٣٢) البلاذري (٣٨٥ ــ ٣٨٦) وانظر ابن الاثير (٤٩/٣) وفيه : ان الربيع اقام بـ (زرنج) سنة واحدة ، فكانت ولاية الربيع سنة ونصف • والرواية الاولى أصح ، لان ابـن الاثير نقل هذه المعلومات عن البلاذري فلا يستبعد ان جرى في نقله تصحيف •

(٣٣) الاستيعاب (٤٨٨/٤) وأسد الغابة (١٦٤/٢) •

(٣٤) ابن الاثير (١٦١/٣) والطبري (١٢٦/٤) وشذرات الذهب (٥٢/١) والعبر (٤٧/١) •

(٣٥) الاستيعاب (٤٨٨/٢) •

(٣٦) قادة فتح العراق والجزيرة (٤٠٥) •

(٣٧) الاستيعاب (٤٨٨/٢) •

(٣٨) بلخ : مدينة مشهورة بخراسان • انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢٦٣/٢) والمسالك والممالك (١٥٤) وآثار البلاد واخبار العباد (٣٣١) وتقويم البلدان (٤٦٠) والمسالك والممالك لابن خرداذبة (٣٤) وأحسن التقاسيم (٢٩٥) ومختصر كتاب البلدان لابن الفقيه (٣٢٢)

(٣٩) قهستان : وردت كذلك في ابن الاثير (١٩٤/٣) وقد ورد اسمها في البلاذري (٣٩٤) : قوهستان وكذلك في معجم البلدان (١٨٧/٧) والمسالك والممالك (١٥٤) • تعريب : كوهستان ، ومعناه موضع الجبال ، لان كوه هو الجبل بالفارسية • وهي ولاية بين هراة ونيسابور ، أنظر آثار البلاد وأخبار العباد (٣٤١) •

(٤٠) ابن الاثير (١٩٤/٣) • وانظر البلاذري (٤٠٠) وأسد الغابة (١٦٤/٢) •

(٤١) آدم : أدم ، اشتدت سمرته ، فهو آدم وهي أدماء جمعها : أدم

(٤٢) أفوه : انفرجت شفتاه عن أسنانه •

(٤٣) طبقات ابن سعد (١٦٠/٢) •

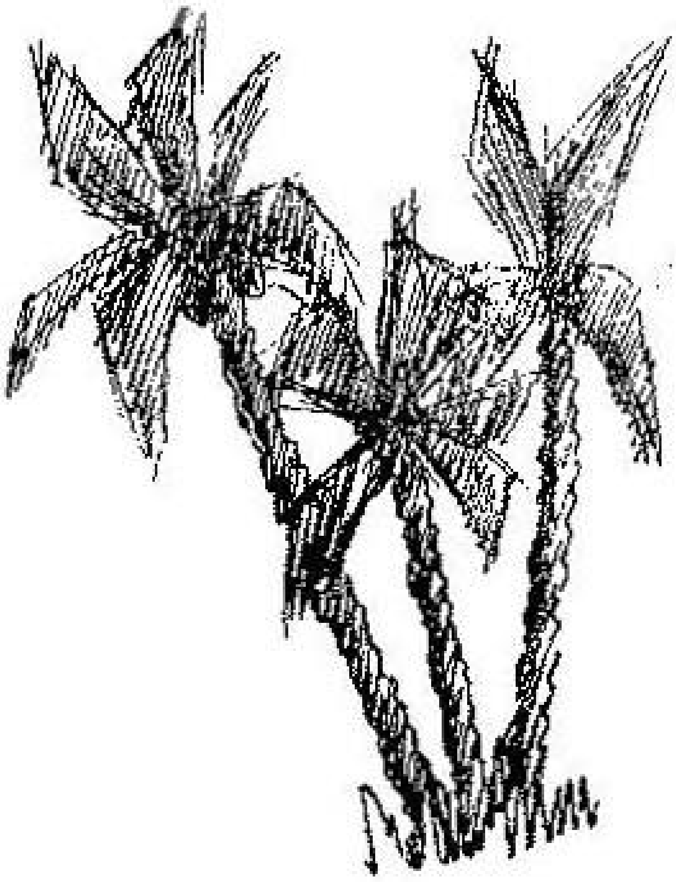
(٤٤) البلاذري (٣٨٦) •

(٤٥) الاصابة (١٩٥/٢) •

(٤٦) الاصابة (١٩٥/٢) •

(٤٧) الاصابة (١٩٥/٢) •

(٤٨) ابن الاثير (٢/٢٠٩) .
(٤٩) الاستيعاب (٣/٤٨٨) .
(٥٠) أسد الغابة (٢/١٦٤)
(٥١) الاصابة (٢/١٩٥) .
(٥٢) أسد الغابة (٢/١٦٤) . والاصابة (٢/١٩٥) .
(٥٣) البداية والنهاية (٨/٦١) والبلاذري (٤٠١) .
(٥٤) الاصابة (٢/١٩٥) .
(٥٥) الاصابة (٢/١٩٥) وأسد الغابة (٢/١٦٤) .
(٥٦) حجر بن عدى : هو حجر بن عدى الكندى ، يكنى : أبا عبدالرحمن . وفد الى النبى صلى الله عليه وسلم وأسلم وشهد القادسية والجمل وصفين مع علي . قتله معاوية صبرا سنة ثلاث وخمسين . انظر التفاصيل في المعارف (٣٣٤) والاصابة (١/٣٢٩) وأسد الغابة (١/٣٨٥) والاستيعاب (١/٣٢٩) وطبقات ابن سعد (٦/٢١٧ ـ ٢٢٠) .
(٥٧) أسد الغابة (٢/١٦٤) .
(٥٨) البداية والنهاية (٨/٦١) .
(٥٩) ابن الاثير (٣/١٩٥) .
(٦٠) طبقات ابن سعد (٦/١٥٩) وأسد الغابة (٢/١٦٤) .
(٦١) المعارف (٤٤١) .
(٦٢) التناهد : نهض بعضهم الى بعض للمحاربة . انظر ما جاء حول ذلك في البلاذري (٤٠٠) .



عبدالقادر شنون العبادي

عبدالله الجبوري

ما زالت الفترة التي أعقبت ما اصطلح على تسميته ب (الفترة المظلمة) يكتنفها شيء ليس بالقليل من الغموض والابهام ، حيث لم تصب حظا من الدرس والبحث والتنقيب بالرغم من احتجابها جملة طيبة من العلماء والادباء والشعراء ، كان منهم روادا كبارا للنهضة الفكرية الحديثة في العراق ، الا ان النسيان قد ضرب اطنابه في مضارب هؤلاء الجنود المنسيين ، وجعل بينهم وبين ابناء الجيل الحاضر حجابا مستورا . ومن هؤلاء الشعراء المنسيين ، الشاعر عبدالقادر شنون العبادي البغدادي الكرخي ، الذي لمع شهابه في أفق الشعر والفكاهة والظرافة في الربع الاخير من القرن التاسع عشر الميلادي ..!

ولد عبدالقادر بن عبدالله البزاز العبادي في سنة ١٨٦٥م في الكرخ من ابوين عربيين وكانت تسمى امه (عبيده) من آل مطرود العائلة المعروفة في الكرخ . وكان عبدالله يمتهن البزازة . نشأ شاعرنا في أروقة الجوامع وأفنية المساجد فدرس علوم (الجادة) وهي كما معروف، علوم اللغة العربية والفقه والتفسير والحديث .. على اساتيذ عصره المبرزين وكان في طليعتهم الامام المجدد السيد محمود شكري الالوسي المتوفي سنة ١٩٢٤م ولما أصاب حظا من المعرفة والادب أخذ يغشى مجالس الكرخ ومنتدياته العلمية مع رفيق صباه ولدته رائد الفكاهة والظرافة في عصره المرحوم عبدالله الخياط المتوفي سنة ١٨٨٩م وكانا يكثران من التردد على بيت سراوة وعلم من أظهر بيوتات الكرخ الا وهو بيت آل الشواف ، وكانا يفيضان من روحيهما المرحين جوا من البهجة والحبور على كل ندي يختلفان اليه .

ومن هنا لقب شاعرنا ب « شنون » لمرحه وخفة روحه ، ومن عجب ان (شنون) قد جمع بين النقيضين بين الهجاء والمرح ، فقد كان هجاءا باقعة ، يكاد يجري في حلبة الهجاء مع الحطيئة والفرزدق وجرير ، حتى ضرب المثل

بقذاعة هجوه ، فقد جاء في كتاب « الروض الازهر » للمرحوم مصطفى الواعظ المتوفي سنة ١٩١٣م ص٦١٧ ما نصه « وقلت مخاطبا احدهم وقد هجاني بأبيات :

ان كنت تهجو بأبيات منمقة فانني سوف أهجو هجو (شنون)

النكتة هنا في قول هجو (شنون) ، فشنون لقب لاحد أدباء العراق وكان يسمى « عبدالقادر شنون » ــ ولا أدري وجه التسمية ــ وقد كان يستخدم في الوظائف العلمية ، وأما هجوه فانه كان قد هجاه أحد الناس واجتمع به فقال له انك قد هجوتنا بأبيات ، أما أنا فسوف أهجوك بهذين البيتين وأشار الى نعليه • »

فذهبت قولته بين القوم مثلا ،

تزوج (شنون) من احدى بنات حيه ، فأنجبت له طفلا ، لم يكتب له ان يعيش ، فقد تخطفته شعوب وهو لم يبلغ ربيعه الرابع عشر ، وبموته انقطع حبل ذرية (شنون) ••

كان شاعرنا مغرما بالاسفار ، فقد طوف في أكثر رباع الوطن العربي الحبيب ، زار الكويت ومدح امراءها (آل صباح) ، والبحرين ، وقطر والحجاز ، ولعل هذه الزورات كانت انتجاعا للرزق ، •• وبعد استيفائه بعض مآربه ، قفل آيبا الى بغداد ، مارا بحلة ابن دبيس الاسدي ، فمدح اعيانها ، آل عبدالجليل ، ومن هنا حسبه علي الخاقاني من شعراء الحلة فترجم له في كتابه «شعراء الحلة » الجزء ٢٥٨/٤ ، وأورد له جملة صالحة من شعره •

وشاعرنا ممن ادركتهم حرفة الادب ، فعاش مرزءا منكودا ، لا يعرف من الرفه والنعيم الا لفظيهما ، وذاق صنوفا من العوز والحرمان ، وذهبت نفسه حسرات من الالم والفاقة ، وكأنما خلق الادقاع ملازما للادباء •

في الصحافة :

اشتغل (شنون) في ميدان الصحافة ، في بغداد ، والبصرة ، فقد رئس تحرير القسم العربي في جريدة « الارشاد » التي كانت تصدر باللغتين ، العربية والتركية • وكان يصدرها ، الضابط المتقاعد حسين أفندي فريد ، وصدر عددها الاول في ١٢ــ٢ــ١٩٠٩م في بغداد •

ورئس تحرير جريدة « اظهار الحق » التي كان يصدرها قاسم جلميران ، وصدر عددها الاول في أول حزيران ١٩٠٩م وكانت تصدر باللغتين العربية والتركية في البصرة •

وفاته :

وفي أواسط سنة ١٩٠٩م شد رحاله وقر قراره في سهوب الثغر الجميل ، وهناك اشتغل ــ بتشفع الشافعين ــ كاتبا في المحكمة الشرعية في البصرة ، وكان قاضيها يومئذ العلامة الجليل المرحوم عبدالملك بن الشيخ طه الشواف

المتوفي في ٣ شباط ١٩٥٣م ، براتب قدره عشر ليرات عثمانية ، الا ان جد (شنون) لم يحتمل هذه الهناءة المفاجئة ، وهذا النعيم الغامر ، فتنبأ بدنو أجله وقرب مزايلة هذا الاسعاد له ، فقد قال ـ رحمة الله ـ «ان حظي لا يحتمل مثل هذا الراتب وهو مؤذن بقرب أجلي واستيفاء رزقي » وكان كذلك ، فقد توفي بعد أربعة أشهر من مباشرته عمله ، وكان ذلك في ٢٩ شوال من عام ثمان وعشرين وثلثمائة وألف ، ١٣٢٨هـ ، الموافق ١٩١٠م ودفن في مقبرة الزبير ، بمرض الهيضة ، كان ربعة في الرجال ، يميل جسمه الى النحافة والهزال ، وكان يرتدي اللباس الديني ، ـ الجبة والعمة ـ

شعره :

تقاسمت شعره أغراض شتى ، كان أظهرها المدح ، ثم الهجاء فالوصف فالغزل ، وقد عبثت عوادي الزمن بهذه النفثات ، فعفت على أكثرها ، وبقي جزء منها حبيس الطوامير والطروس المهجورة في زوايا مدارج الخزائن ٠٠!

وكان الشاعر قد نشر جملة من شعره في كبريات الصحف والمجلات السيارة، مثل الزوراء ، والارشاد ، واظهار الحق ومجلة المقتبس ، التي كان يصدرها العلامة المرحوم محمد كرد علي المتوفى في ٢ـ٤ـ١٩٥٣م ، وقد تعقبت اشعار هذا الشاعر المنكود ، في المجاميع المخطوطة والمجلات القديمة وبعض المظان ، وتسقطت اخباره من بعض رفاقه ومعاصريه ، وقيدت جل اخباره وكل ما يتعلق به ٠ وكانت بينه وبين معروف الرصافي (١٩٤٥ م) والمرحوم الحاج عبدالرزاق الهاشمي المتوفى في ١٧ـ٨ـ١٩٦٤م ، مساجلات شعرية لطيفة ٠

فاستوى من كل ما جمعته من شعر (شنون) ديوان صغير ، يضم أكثر من ثلاثين قصيدة ومقطعة، وبعض هذه القصائد تحصلت عليها بخطه ، وعسى ان تنصف الايام « شنونا » فتدفع بديوانه الى النور ، ٠٠٠! ولعلها فاعلة ، ان شاء الله ٠٠!

وأرى من اللازم اللازب هنا ، ان أثبت نماذج من شعره ، حرصا مني على ايقاف القارىء العربي على آثار هذا الشاعر المنسي ،

فله من قصيدة وصف بها الكتاب ، قوله :

كتابي لا أروم سوى كتابي ... فكم خففت فيه هموم ما بي
أجيل الطرف فيه فيجتلي لي ... مخائل حكمة في كل باب
اذا غمزت قناة الدهر قلبي ... أداوي في مباحثه مصابي
لان أخطأت في فكري ببحث ... ففيه قد هديت الى صوابي
وان شاهدت من قومي جفاء ... يسليني بأقوال عذاب

ثم يقول :

تراه أخرسا وتراه يحكي ... بأبلغ ما تريد من الخطاب
كتوم أن بثثت اليه سرا ... وان حابيت غيرك لا يحابي
فكم نادمته بالليل وحدي ... فيغنيني عن الخود الكعاب

وكم فيه سكوت من المعـاني ... فعفت لطيبها طيـب الشراب
تكفل بالعلوم فكـل علـم ... حـواه لا يـؤول الى ذهـاب
فمـا حاسـبته الا تـراه ... خبيرا بالدقيق من الحساب
فمن والاه نال هـدى وفضلا ... ومن عـاداه راح الى عـذاب

وقال باكيا أطلال بني العباس في سامراء ، ـ وقد أرسلها الى العلامة السيد محمود شكري من سامراء[1] ـ وهي بخطه ٠

هذي مبانيهم فأين الباني ؟ ... فتكت بها وبـه يـد الحدثان
لله خير خلائف في أرضـه ... طالت مبانيهم على كيـوان
أقيال ما سمح الزمان بمثلهم ... فيما مضى من غابر الازمـان
عرب لقد غرسوا الكمال وأظهروا ... للناس ما استخفى من العمران

ثم يقـول :

اين الستور المرخيات وما حوت ... من زينة الاشكال والالوان ؟
خلت الديار ، فليس تلقى بينها ... غير الوحوش (ومجمع الغربان)[2]
غدرت بها أيدي الزمان ، كأنها ... لم تحو من حور ومن ولدان
شاهدتها ، فرأيت ماقد هالني ... فجرت دموع العين كالغدران
وظللت بين سطورها متحيرا ... قلق الفؤاد ولست بالحيران

وفي سنة ١٣٢٠هـ ـ ١٩٠٢م ، في زمن الوالي نامق باشا الصغير والي بغداد ، ينصب جسر خشبي يربط الكرخ بالرصافة ، فيؤرخه بقصيدة رائعـة :

هي الحضارة ما تعلو بـه الرتب ... وما سوى العدل في الدنيا هي السبب
واليوم أضحت بملك ساسه ملك ... من آل عثمان مضروبا لـه الطنب

ثم يخلص من مديحه (السلطان) الى وصف الجسر ، وجميل قوله ،

كل البدائع جاءت في صنائعـه ... مستبدع الصنع مأمونا به العطب
كأنـه كل فـلك من محاسنه ٠٠ ... خريدة وشيت أثوابها القشـب
تستوقف العابر العجلان صنعته ... فيقصر الخطو فيـه وهـو مرتقب
ان قال واصفه فاق الحديد فـلا ... تعجب فرب حديد فاقـه الخشب
تقلت اذ مد منصوبا أؤرخـه : ... جسرا لدجلة في الزوراء قد نصبوا
١٣٢٠هـ ـ ١٩٠٢م

وفي عام ١٩٠٨م يقع الانقلاب العثماني ، ويعلن الدستور ، فيستقبله شاعرنا شنون ، هاتفا للحرية ، مستبشرا بهذا اليوم السعيد ٠٠

تولى زمان كنـا فيـه نحتقـر ... وأقبل عصر صـرنا فيـه نوقر
ولاحت بأفق المجد شمس عدالـة ... بها قد غدا وجه البسيطة يزهـر
الا أن عصرا جاء بالحق مشـرقا ... هو العصر لا عصر من الظلم أغبـر
رعى الله عصرا فيه للحر راحـة ... يقول فـلا يخشى الانام ويظهـر
يبيت قرير العين غير مفكـر ... بما كان قبـل اليوم فيـه مفكـر

وله ، باكيا ، أول جامعة في العالم ، المستنصرية ،

يا دار ما بال ربع العلم ينعـــاك ... فمادها في الورى أعلا مزايـــاك
يا دار علم عفت منهـــا معالمهـــا ... يد الخمول فمـن أفتى فأغـــواك
يا دار مستنصر بالله مـــا دهمت ... تـــلك الدروس التي أغنت بمغناك
لهفي على ربعك المأنوس اذ خليت ... منـــه أفاضـــل حلوا في ثنـــاياك
لهفي على حلقـات العلـم ما صنعت ... أبحـاث علمهمو في ظل جـــدواك

ونختم كلمتنا هذه ـ المبتسرة الموجزة ـ بأبيات أبيات لمترجمنا ، من قصيدة قالها في تهنئة السيد محمود القشطيني المتوفى سنة ١٩١٤م رئيس بلدية بغداد ،

أدر كأس الهنـــا فالوقت طابـــا ... ونجـم النحس والادبـــار غابـــا
وناولهـــا معتقـــة شمـــولا ... تخـــال اذا انجلت تبرا مذابـــا
هي الراح التـــي ان حـــل هم ... وجـدت بهـــا الى الافراح بابـــا
فقم يا صاح فالواشـــون غابـــوا ... ووقت الانس ينتهـــب انتهابـــا
وخذها من يـــدي رشـــأ غرير ... ترى من وجنتيـــه بها التهابـــا
اذا يرنـــو فكالظبـــي التفاتـــا ... وان يبـــدو فكالرمـــح انتصابا
ويا خجـــل الغصون اذا تثنـــى ... ويا ألـم القـلوب اذا أصابـــا

ثم يخلص الى الاعتذار الى ممدوحه ، قائلا :

فما أنا في الثنـــاء عليـــك الا ... كمن أهـــدى الى الصبح الشهابا
وفز واسعـــد بعز كـــل عـــام ... تؤمـل بعـــد غيبتـــه ايابـــا
ولا انفـــكت ايـــاديكم غـــزارا ... ورمت الدهـــر مرجـــوا مهابـــا

مصادر المقـــال

١ ـ الروض الازهر ... نشره المرحوم الاستاذ ابراهيم الواعظ
٢ ـ البغداديون،اخبارهم ومجالسهم للمرحوم الاستاذ ابراهيم الدروبي
٣ ـ بغداد القديمة ... للاستاذ عبدالكريم العلاف
٤ ـ شعراء الحلة ، الجزء الرابع للاستاذ علي الخاقاني
٥ ـ نقـد وتعريف ... لكاتب السطور
٦ ـ مجموعتي الخطيـــة
٧ ـ مجموعة شعر عبدالقادر شنون • ـ مخطوطة •
٨ ـ تاريخ الصحافة العراقية ، ط٢ للاستاذ عبدالكريم العلاف
٩ ـ في غمرة النضال ... للمرحوم الاستاذ سليمان فيضي
١٠ ـ مجموعة الحاج عبدالرزاق الهاشمي ـ مخطوطة •
١١ ـ مجلة المقتبس ، المجلد الثاني ، الاستاذ محمد كرد علي
١٢ ـ الاداب العربية في القرن التاسع عشر ، ـ الملحق ، للاب لويس شيخو

---

(١) زودني بها استاذي الجليل السيد محمد بهجت الاثري •

(٢) فليس ، خطأ ، وصوابه ، فليست •

الدكتور وليد عرفات

الناقدون الأولون لشعر السيرة

ترجمة وتعليق : بشار عواد معروف

ليس هناك دراسة حتى وقت قريب(١) تأخذ على عاتقها فحص الشعر الذي تضمنته سيرة ابن اسحاق فحصا يستند الى اقامة الدليل الذاتي لاصالة مثل هذا الشعر وما قد يكون صحيحا منه وكشف النقاب عن طبيعة المصنوع منه • وقد اوضح عدد من الكتاب ، سواء أكانوا نقادا أم لم يكونوا كذلك ـ منذ عهد ابن اسحاق نفسه ـ شكوكهم حول صحة شعر السيرة عموما ، او عن قصائد معينة خصوصا • على ان هذا الدليل قد يختلف في اثبات طبيعة الافتعال او الوضع في المقطوعات الشعرية المختلفة اختلافا كبيرا كما يتضح جليا من الشعر الذي ينسب الى ملك حمير وهو ذو لغة عربية سهلة سلسلة(٢) ، أو كالشعر الذي ينسب الى أحد المشركين وقد هاجم فيه المسلمين والنبي (ص) وفي الوقت نفسه كان يتكلم باحترام وتقدير عليه وعلى اصحابه(٣) الذين لم يكونوا يصلون الى مرتبته• ان الغاية من هذا المقال انما هو استعراض وتعليق على بعض الآراء(٤) التي تصم شعر السيرة كله أو بعضه بانه موضوع بصورة مباشرة أو غير مباشرة •

وليس من المفروض في هذه المقالة أن نقدم ثبتا جامعا شاملا لجميع تلك الشكوك(٥) ولكننا سنعرض لاكثرها اهمية • كما أن الآراء المذكورة لا تشير الى جميع المصادر التي انحدرت منها الاشعار الموجودة في السيرة ، أو التي تؤلف ديوان حسان بن ثابت ، ومع ذلك فانها بمجموعها تقدم لنا « ادلة » على جانب من الاهمية •

ويشير ابن سلام(٦) الى انه عندما جاء الاسلام تشاغلت العرب بأمور أخرى ولهت عن الشعر وروايته ، وانهم عندما راجعوا رواية الشعر وجدوا القليل منه ، وذهب عليهم منه الكثير • ولذلك حاولوا أن يلحقوا بمن له الوقائع والاشعار ، فقالوا على ألسن شعرائهم • ان هذا القول على درجة كبيرة جدا من الصحة : ذلك ان المائة سنة ، أو مايقاربها ، التي تلت سيادة الاسلام على الشرك كانت تتميز بحوادثها الكثيرة ، وكان كثير من هذه

الحوادث يمس القبائل التي لعبت دورا في الصراع الاول ٠ ان الغالبيـة العظمى من شعر تلك الفترة الاولى اما ان يكون قد ضاع أو اختفى بـين الشعر الذي قيل فيما بعد بمناسبات مشابهة لتلك المناسبات او مختلفـة عنها ٠ كما ان المنازعات الشخصية انتجت شعرا ونسبته الى شعراء اقدم ، اما عن عمد للتمتع بالمكانة والمنزلة الرفيعة ، واما عرضا ودونما قصد ٠ومن ثم كان القصاصون يأتون بالاشعار مع الروايات والحوادث التي تـدور حول تاريخ صدر الاسلام ٠ وفيما يأتي قائمة تحوي امثلة لـكل ما ذكرنا في اعلاه ٠

فمن ذلك تعليقات العدوي[7] التي تتميز باهميتها الخاصة (انظـر ادناه الفقرة ١٣) ليس بسبب قدمها التاريخي ولكن لانه يشير الى مناسبات خاصة أدت الى نحل قصائد معينة أو نسبة قصائد اخرى الى مؤلف أقدم ٠ وهو بعمله هذا يزودنا بدليل نستطيع بموجبه تعيين الحقبة الزمنية لقصائد معلومة ، واصدار الاحكام على قصائد اخرى ، وهذا عدا تلك التي انكرهـا بصورة أخص ٠ فمثلا المقطوعة المنسوبة الى حسان بن ثابت في هجاء هند ، زوج أبي سفيان بن حرب (انظر أدناه الفقرة ١٣ (و)) ، وهي قصـة مقبولة الظاهر ، من الممكن ان تؤخذ مثلا مساويا للقصائد الموجودة في ديوانه والتي تتناول الموضوع نفسه[8] (هرشفيلد رقم ٢١٤/٢٢٥) وتدور حول المبحث نفسه وفي ذات الاتجاه ٠ وبذلك نجد ان ما ذكره العدوي يؤيـده الدليل المذكور الى حد بعيد ٠ ومن هذا القبيل ايضا ما يتعلـق باحـدى القصائد التي تهجو بني مخزوم (انظر ادناه الفقرة ١٣ (ز) و (ح) فانـه يجب ان تعد من ذلك العدد الكبير نسبيا من القصائد التي تتناول عشيرة بني مخزوم بالهجاء ٠

ان القصص التي يقدمها لتوضيح مصدر مثل هذه القصائد يجيب عن السؤال الذي غالبا ما يبرز بالنسبة لعدد ضخم من القصائد والمقطوعـات الواردة في ديوان حسان بن ثابت ، فمن حق الباحث ان يتساءل مثلا : لماذا يهجو حسان بني عدي بن كعب (ديوان رقم ٨٥) او بني العوام (رقـم ٢٠٥/٢٠٦) ؟ وعلى أي حال فان العدوي يجيب بالصواب بالنسـبة لبني العـوام ٠

ومن ثم فان هذه القصص نفسها توضح عبارة ابن سلام (انظر ادناه الفقرة ٩) عن نزاع القرشيين فيما بينهم وهجاء بعضهم بعضا ، فمـن الواضح ان النزاع ليس نزاعا سياسيا حسب ، لـكنه نزاع شخصي ايضا٠

وعلى الرغم مما هو مدون عن نسبة بعض القصائد او المقطوعات الى حسان بن ثابت او الى ابنه عبدالرحمن (مثلا : ديوان رقم ١٢١/٩ ؛ السيرة ص ٩٢٩) فمن المفيد ان نعرف شيئا مما رواه سعيد بن عبدالرحمن بـن حسان قال فيه ان عبدالرحمن كان يتعمد ان ينسب بعض القصـائد او المقطوعات الى والده ٠ وحتى اذا كـان الاستمرار في نسبة القصـائد أو

المقطوعات عمدا الى حسان يبتدىء من ابنه (قتل حوالى ٤٠ـ٤٥هـ) فان هذا قد يبدو في الواقع مبكرا جدا ، ولكنه من المحتمل جدا أن يكون قد بدأ قبل هذا الوقت ايضا .

وعلى قدر علمي فان تعليقات العدوي تنشر الآن لاول مرة . ولقد رتبت الافكار الواردة في هذا المقال بحسب التسلسل الزمني قدر المستطاع .

١ : ان ابن اسحاق نفسه يروي(٩) خبرا يعتبر اقدم شك مدون ، فهو يشير الى ثلاثة ابيات منسوبة الى حسان بن ثابت في هجاء عبدالله بن الزبعرى احد شعراء قريش الكبار الذي هرب الى نجران اثر فتح المسلمين لمكة ، ثم عاد منها ووضع ثقته في الرسول (ص) واسلم . يعيره حسان في البيتين الثاني والثالث بانحداره معتبرا ذلك دليلا قطعيا على انهيار قواه وانحطاطها . ويروي ابن اسحاق عن سعيد بن عبدالرحمن حفيد حسان بأن حسانا رمى ابن الزبعري وهو بنجران ببيت واحد [هو البيت الاول] ما زاد عليه .

ويبدو واضحا من كلمات سعيد بن عبدالرحمن بن حسان القطيعة المؤكدة انه كان يخشى ان تنسب المصنوعات الى جده حسان .

٢ ـ ويذكر ابن هشام ، مهذب سيرة ابن اسحاق ، في مقدمته(١٠) بانه حذف أشعارا ذكرها ابن اسحاق(١١) لانه لم ير أحدا من أهل العلم بالشعر يعرفها . ومن ثم فانه يتكر عددا من القصائد او المقطوعات التي لم يحذفها باعتبارها من الاشعار المصنوعة ، وكان ابن هشام في عمله هذا يعتمد بوجه عام على « اهل العلم بالشعر » : اما على « واحد » منهم في بعض الاحيان واما على « اغلبهم » في الاحيان الاخرى . ويبدو من عبارة ابن هشام انه كان يلاقي جهودا مضنية في بعض الحالات الخاصة اكثر من غيرها : وذلك من جراء استقصائه لآراء عدد كبير من اهل العلم في هذا الشأن ، اذ انه غالبا ما يكتب هذه العبارة « ولم أر احدا من اهل العلم بالشعر يعرفها » ، او يقول عن بعض الشعر انه « مصنوع »(١٢) .

ومن الممكن ان نأخذ مثلا على ذلك الاشعار المنسوبة الى حسان بن ثابت ، اذ توجد في السيرة ٧٨ قصيدة ومقطوعة منسوبة الى حسان اما من قبل ابن اسحق واما من قبل ابن هشام [وذلك في حالات قليلة] . والجدول الآتي يبين لنا عدد القصائد الموجودة في كل من نسخ ديوان حسان ، والسيرة . كذلك التي وردت في السيرة فقط(١٣) . كما يبين الجدول ايضا عدد القصائد والمقطوعات المشكوك فيها او التي يظن انها لغيره .

		الموجودة في الديوان	غير الموجودة في الديوان	المجموع
التي لا شك في نسبتها اليه	:	٣٩	٢٤	٦٣
المشكوك فيها .. الخ	:	١٠	٥	١٥
المجمـــوع	:	٤٩	٢٩	٧٨

يلاحظ ان هناك عشرة من القصائد والمقطوعات الواردة في الديوان يشك فيها أهل العلم بالشعر من معتمدي ابن هشام ، أو ينكرونها . [انظر أيضا ادناه الفقرة ٦] .

٣ ـ وتبدو أهمية خاصة لاحدى تعليقات ابن هشام(١٤) التي في نهاية مقدمة ابن اسحاق عن قصيدة لابي اسامة معاوية بن زهير اذ انه يقول : «وهذه أصح اشعار اهل بدر » . ان هذه العبارة تنم بجلاء عن وجود شك عام في مخيلة ابن هشام يشمل جميع الشعر الذي قيل في بدر ، بل يستطيع الباحث ان يفترض وجود هذا الشك بالنسبة لاشعار اخرى كذلك(١٥) .

٤ : في قصة قدوم وفد بني تميم على النبي (ص) عام ٩هـ ، والشعر الذي قيل في هذه المناسبة ، يورد ابن اسحاق مجموعة واحدة منه باعتبارها المجموعة التي أنشدت آنذاك . على ان ابن هشام يورد بعد ذلك مباشرة مجموعة تختلف تماما عن مجموعة ابن اسحاق ، كما ان رواتها هم غير رواة مجموعة ابن اسحاق . ويقدمها على انها الاشعار التي القيت بالمناسبة. ومن ثم يورد ابن عساكر مجموعة ثالثة تحتوي على قصيدة تختلف عن تلكما المجموعتين اختلافا تاما(١٦) .

٥ : يورد الواقدي ت٢٠٧هـ في «كتاب المغازي(١٧) » أشعارا قليلة جدا بالمقارنة الى ما اورده ابن اسحاق . ولهذا السبب فان ما يذكره الواقدي او يلمح به من الشكوك السائدة المتعلقة بها ، ذو أهمية خاصة ؛ فهو غالبا ما يقول بعد ان يورد الشعر : « ما رأيت من اصحابنا احدا يدفعه » او : « سمعت اصحابنا يثبتونها » .

٦ : لقد توفي ابن اسحاق قبل ابن حبيب الذي جمع ديوان حسان بن ثابت بما يقارب القرن ، اما ابن هشام فقد توفي قبل ابن حبيب بحوالي ٣٠ عاما . وربما يبدو من المعقول ان نفترض ان ابن حبيب كان قد اطلع على مصنف ابن اسحاق ، بل من المحتمل ايضا انه اطلع على تهذيب ابن هشام لكتاب ابن اسحاق ، فاذا كان ذلك كذلك فانه يجب ان يكون قد انكر لسبب او لآخر ٢٩ قصيدة ومقطوعة ، وهي تلك التي لم يضمنها الديوان . وانه في الوقت نفسه وافق على قصيدتين على الاقل من القصائد التي عزاهما ابن اسحاق الى شعراء أخرين دون ذكر لحسان . كما انه ضمن عشرة من القصائد والمقطوعات التي شك فيها معتمدو ابن هشام او انكروها ،واعتبرها من شعر حسان .

ومن الواضح انه لا يمكن الجزم باحكام قاطعة اعتمادا على هذين الكتابين وحدهما . على ان هذا لا يعني عدم احتمال وجود علاقة ، اعني ان ابن اسحاق كان مجرد أحد المصادر المتوفرة لابن حبيب والتي كان الكثير منها روايات متداولة يومئذ . ولا ريب في أن الشخص الذي ينسب الى شخص واحد مجموعة من القصائد والمقطوعات المتباينة في اساليبها والمختلفة في روحها الشعرية عن تلك التي تكون ديوان حسان ، لا يمكن ان يعتبر من النقاد ذوي

الملكة والحس المرهف ٠ أما بالنسبة لابن هشام فان المفروض في المجموعة انها جاءت عن طريق « راوية » ، مع العلم ان كلا الرجلين قد عاشا في عصر كثرت فيه الرواية الشفوية لكثرة التدوين ٠

٧ : ومن ثم ، واستنادا الى عبارة دونها السكري[١٨] الذي روى ديوان حسان عن ابن حبيب مباشرة ، يظهر ان اخر ٢٨ قصيدة ومقطوعة ، حسب ترتيب طبعة هرشفيلد والمخطوطات التي توجد فيها هذه العبارة ، لم يكتبها ابن حبيب ٠ لكن السكري كتبها من كتب ابن حبيب ٠ وتدلنا الاسباب التالية على ان الحذف كان متعمدا حتما :

(أ) نص العبارة « هذا آخر شعر حسان في الاملاء عن ابن حبيب ٠ وهذا الباقي كتبته من كتبه ، لم يمله ٠ »

(ب) ان الثمان والعشرين قصيدة ومقطوعة محذوفة من مخطوطة برلين وقد يكون هذا الحذف عن عمد نتيجة لعبارة السكري ٠

(حـ) « مجموع » القصائد والمقطوعات التي تشتمل على كل ما قيل في قدح اي واحد من الامويين او من بني أسد ، كذلك ست قصائد من اصل ثمان فيها هجاء لابي سفيان بن الحارث ، فان من الصعب ان يعتبر مثل هذا الحذف على انه كان مجرد امر عرضي ٠ (انظر ادناه الفقرة ١٣) ٠

وعلى الرغم من عدم توفر معلومات ثابتة تبين الظروف التي كتب فيها ديوان حسان الذي كان لابد ان احتاج الى فترة من الزمن ، وعلى الرغم من وجود معلومات قليلة جدا في الواقع عن ابن حبيب نفسه ؛ فان مما يثير الدهشة ان ياقوتا[١٩] ذكر قصتين في ترجمته القصيرة لابن حبيب ، وكلا القصتين تدوران حول كتابة ديوان حسان ٠ وراوية القصة الاولى هو ابو طاهر القاضي « فيما اسنده الى ثعلب[٢٠] قال : حضرت مجلس ابن حبيب فلم يمل فقلت ويحك امل ٠ مالك فلم يفعل حتى قمت » ٠ والقصة الثانية عن ثعلب قال : « اتيت ابن حبيب وقد بلغني انه يملي شعر حسان بن ثابت فلما عرف موضعي قطع الاملاء ٠ فانصرفت وعدت اليه وترفقت به فأملى ٠ وكان لا يقعد في المسجد الجامع فعذلته على ذلك » وتنتهي القصة بانقطاع ابن حبيب عن القعود بالجامع[٢١] ٠

ولعل توقف ابن حبيب عن الاملاء حينما علم بوجود اناس علماء في حضرته ، وانصرافه بعد ذلك عن القعود في الجامع ، متأت عن وجود خجل طبيعي عنده ، او ربما هو تعبير عن احترامه لمن يحضر عنده من العلماء المشاهير ٠ على ان الخجل الطبيعي قد يكون اكثر فعالية ، اما الاحترام فهو اقل في هذا المجال ٠ والواقع ان من حق الباحث ان يتساءل فيما اذا كان هذا الخجل أو التحفظ انما هو نتيجة للشكوك التي يشعر بها ابن حبيب لما يرويه ٠

٨ — يقول ابن سلام الجمحي (ت٢٣١) في كتابه « طبقات فحول الشعراء[٢٢] » عن ابن اسحاق والشعر الذي اورده في السيرة ما نصه : « وكان

ممن أفسد الشعر وهجنه وحمل كل غثاء منه ، محمد بن اسحاق بن يسار ... فقبل الناس عنه الاشعار ، وكان يعتذر منها ويقول : لا علم لي بالشعر، أتى به فأحمله . ولم يكن ذلك له عذرا . فكتب في السير أشعار الرجال الذين لم يقولوا شعرا قط ، واشعار النساء فضلا عن الرجال ، ثم جاوز ذلك الى عاد وثمود ، فكتب لهم أشعارا كثيرة ، وليس بشعر ، انما هو كلام مؤلف معقود بقواف . أفلا يرجع الى نفسه فيقول : من حمل هذا الشعر ؟ ومن أداه منذ آلاف من السنين ، والله تبارك وتعالى يقول .. « وانه أهلك عادا الاولى . وثمود فما ابقى[٢٣] » . ومن ثم يذكر ابن سلام بعد ذلك بقليل[٢٤] بيتا من السيرة[٢٥] ويذكر حكمه فيه . كما يقدم ادلة اخرى على خطأ نسبة الشعر الى عاد وثمود . وقد وصف ابن سلام الشعر المذكور بانه « الواهن الخبيث ... مع ضعف أسره وقلة طلاوته » .

ويورد ابن سلام قول أبي عمرو بن العلاء «ت١٥٤» : « ما لسان حمير وأقاصي اليمن اليوم بلساننا ولا عربيتهم بعربيتنا فكيف بما على عهد عاد وثمود ، مع تداعيه ووهيه ؟ فلو كان الشعر مثل ما وضع لابن اسحاق ، ومثل ما رواه الصحفيون[٢٦] ، ما كانت اليه حاجة ، ولا فيه دليل على علم » .

ونرى من الانصاف ان نذكر في هذا المجال ان ابن اسحاق نفسه كان في بعض الاحيان يذكر عند ايراده القصائد والمقطوعات عبارة « يزعمون » أو « فيما يذكرون » أو « يقولون »[٢٧] . ومن ثم فان ابن هشام لا يجد فرصة الا ويصرح فيها من أن الاشعار التي أوردها ابن اسحاق انما هي سجع وليس شعر[٢٨] . كما انه يشير في بعض الحالات الخاصة بان الرواية التي ذكرها ابن اسحاق لذلك الشعر مختلطة ليست بصحيحة البناء ، فكان ابن هشام في مثل هذه الحالة يأتي بالرواية الصحيحة بالاستناد الى معتمديه من اهل العلم بالشعر . ومع ذلك فقد طعن ابن اسحاق في دينه . (انظر ادناه الفقرة ١٣ «ز») .

٩ : ويقول ابن سلام عن حسان بن ثابت « وقد حمل عليه ما لم يحمل على أحد . لما تعاضهت[٢٩] قريش واستبت[٣٠] ، وضعوا عليه اشعارا كثيرة لا تنقى .»[٣١] .

١٠ : اما ابن النديم (ت ٣٧٨) فيقول عن ابن اسحاق[٣٢] : « يقال كان تعمل له الاشعار ويؤتي بها ويسأل أن يدخلها في كتابه في السيرة فيفعل فضمن كتابه من الاشعار ما صار به فضيحة عند رواة الشعر » .

١١ : وكتب ياقوت « ت ٦٢٦ هـ » في ترجمته لابن اسحاق[٣٣] « كانت تعمل له الاشعار فيضعها في كتب المغازي فصار بها فضيحة عند رواة الاخبار والاشعار »[٣٤] (وانظر في ادناه الفقرة ١٣ «ز») .

ان العديد من الكتاب لم يفتأوا عن انكار صحة قصائد او ابيات معينة ، او يوردون الاقول في انكارها وفيما يأتي امثلة على ذلك :

١٢ : (أ) يعلق ابن سلام[٣٥] على قصيدة[٣٦] منسوبة الى ابي طالب

عم النبي (ص) قائلا « وقد زيد فيها وطولت » • وحينما سأله الاصمعي عن القسم الاصيل منها لم يستطع الاجابة على ذلك •

ويعلق ابن هشام على هذه القصيدة التي اورد منها ٨١ بيتا بقوله : « هذا ما صح لي من هذه القصيدة ، وبعض اهـل العلـم بالشعر ينكـر اكثرها » • ان تعليقه هذا يتناسب مع ما جاء به ابن سلام • والقصيدة كما هي عليه واحدة من أطول قصائد السيرة • والنتيجة الواضحة لاقـوال ابن سلام وابن هشام ان القصيدة قد زيدت في اوقات مختلفة •

(ب) وينكر ابن سلام(٣٧) ايضا بيتا منسوبا الى العباس بن مرداس •

(ج) ويورد ايضا(٣٨) بيتين في الهجاء ويقول عنهمـا : انهما ينسبان عادة الى ابي سفيان بن الحارث(٣٩) يهجو بهما حسان بن ثابت • ثم يضيف قائلا : « واخبرني اهل العلم من اهل المدينة : أن قدامة بن موسى بن عمر بن قدامة بن مظعون الجمحي قالها ونحلها ابـا سـفيان • وقريش ترويـه في اشعارها ، تريد بذلك الانصار والرد على حسان » •

ان البيتين لا يتضمنان ما قد يشير الى صاحبهما او المهجو بهما • على ان من المهم ملاحظة كون قدامة بن موسى هو من أبناء الجيل الثالث بعد قدامة ابن مظعون صاحب رسول الله (ص) • (انظر أدناه الفقرة ١٣) •

١٣ : أشارت تنكر نسبة عدد من القصائد والمقطوعات الى حسان موجودة في مخطوطة ثمينة(٤٠) لديوان حسان بن ثابت نسخت عن مخطوطة مؤرخة في سنة ٢٥٥ هـ كانت قد قرئت على العدوي وهي تحتوي على ملاحظات ثمينة جدا دونها العدوي ، لا توجد في اي من المخطوطات المعروفة عندي ولا لمحققي ديوان حسان فيما يبدو • وفي ادناه الملاحظات التي لها علاقة بموضوعنا مرتبة بحسب ظهورها في المخطوطة :—

(أ) مرثاة قصيرة في عبدالله بن رواحة(٤١) ، تظهر في ص٣٥ • لم يروها ابن حبيب ، كما يشير الى ذلك ناسخ هذه المخطوطة • ولهذا فانها لا تظهر في المخطوطات الاخرى ، ولا في نسخ الديوان المطبوعة(٤٢) • ويعلق العدوي عليها بقوله : « قيل انه مصنوع »(٤٣) •

(ب) في أحد التعليقات على قصـــيدة في ص٤٩—٥٠ (هرشـــفيلد رقم ١٩) ينسبها العدوي الى انس بن صرمة الانصاري •

وتظهر ملاحظة مشابهة لهذه في مخطوطة اخرى من مخطوطات استانبول (احمد الثالث رقم ٢٦١٣) مسندة لابن الفرات(٤٤) ينسب فيهـا القصيدة الى صرمة بن أبي انس الانصاري ، في حين لا تظهر الملاحظـــة في كل من مخطوطتي لندن وباريس وهما مخطوطتان مشابهتان لهذه المخطوطة •

وينسب ابن اسحاق(٤٥) القصيدة الى أبي قيس صرمة بن أبي انس•

(ج) ملاحظة ، تسبق مقطوعة في هجاء ابى لهب ، (المخطوطة ص ٥٦ ، هرشفيلد رقم ٢١٨) مسندة الى خالد بن الياس بن صخر بن ابي جهم بن حذيفة(٤٦) تقول « هذه المقطوعة التي قيلت في أبي لهب ليست لحسان ••

أخبرني سعيد بن عبدالرحمن بن حسان ان هذه الابيات ليستلحسان لكنها كانت من بين المصنوعات التي نحلت عليه » .

(د) ان مقدمة المقطوعة التي جاءت في طبعة هرشفيلد (رقم ٥٦ ؛ المخطوطة ص ٨٠) والتي تشمل على بيتين في هجاء صفوان بن امية(٤٧) ، نسبت هذين البيتين الى أبي سفيان بن الحارث . وقد أكد العدوي في المخطوطة ان ابا سفان لم يهج صفوان ، وان الابيات كانت لعثمان بن الحويرث الذي مات على النصرانية(٤٨) .

ولم يوضح العدوي ، لسوء الحظ ، سبب نسبة الابيات الى عثمان أو المناسبة التي قيلت فيها .

(هـ) توجد قصيدتان في رثاء النبي (ص) في ص ٨٤ــ٨٥ من المخطوطة ، وكلتاهما لا توجدان في المخطوطات الاخرى للديوان او في النسخ المطبوعة . لكن الاولى منهما وردت في طبعة البرقوقي للديوان ص ١٦٤ ، وفي السيرة ص١٠٢٥ . ويذكر العدوي انه يظن ان القصيدتين موضوعتان .

وأرى من الواجب علي أن أذكر هنا ان ديوان حسان بن ثابت يحوي قصيدتين في رثاء النبي (ص) ، وان الانسان يجد ما لايقل عن ثماني قصائد في رثاء عثمان بن عفان . وتحوي السيرة قصيدتين اخريين في رثاء الرسول (ص) . كما ان فيطبعةالبرقوقيللديوان أربعمرات اخرى منضمنهاالمرثيتان الموجودتان في السيرة واللتان اخذتا منها دون شك .

(و) في ملاحظة على هامش الصفحة ١٠٩ من المخطوطة تتعلق بقطعة في هجاء هند ، زوج ابي سفيان بن حرب وام معاوية (هرشفيلد ٢٢٤) . ويقول العدوي بسنده الاخير عن خالد بن الياس (انظر الهامش ٤٦) ان خالدا سأل سعيد بن عبدالرحمن بن حسان عن صحة هذه الابيات ، فاجاب سعيد : « لم يقل حسان هذه الابيات لكن عبدالرحمن هو الذى قالها ونحلها حسانا ، وكان ذلك عندما امر يزيد بن معاوية الاخطل بهجاء الانصار » .

(ز) من بين المقطوعات الواردة في هذه المخطوطة ولم يرد ذكرها في المخطوطات الاخرى ، أو في نسخ الديوان المطبوعة ، والتي لا تشكل جزء من مجموعة ابن حبيب ، مقطوعة تتكون من ثلاثة أبيات في هجاء بني مخزوم في ص ١١٥ــ١١٦ . وينكر العدوي نسبة هذه الابيات لحسان ويناقش ذلك بقوله إن قبيلة مخزوم معروفةجيدا (يعني بخصوص تحدرنسبها، وهوالموضع الذي انصب الهجوم عليه) وانه لايمكن هجاؤهم من هذه الناحية ؛ فجدة النبي لامه هي احدى نساء مخزوم . ويضيف انه قد سمع من عدة أشخاص ان ابراهيم بن هشام المخزومي(٤٩) ارسل من وضع حبلا في رقبة ابن اسحاق وأخرجه من مسجد النبي (ص) وهو علىهذه الحال. وللذلك ادخلابناسحاق هذه الابيات ، وكانت أشعارا موضوعة ، في مغازيه . ومن ثم يعلق العدوى بان كثيرا من الشعر الذي ضمنه ابن اسحاق في مغازيه كان شعر موضوعا . وقال : ان الابيات لم ترد عن رواة اخرين بل اخذت من مغازي ابن اسحاق .

والابيات غير موجودة في السيرة ، وقد تكون من بين المقطوعات التي حذفها ابن هشام ٠

(ح) عبارة تتصدر القصيدة رقم ٨٦ (هرشفيلد) وفيها احتمال كون الشعر لسعد بن الحسين الخزرجي موجودة في نسخ الديوان المطبوعة ، والمخطوطات المتوفرة لهذه الدراسة (ص ١٤٤ من المخطوطة موضوعة البحث) بينما هي في الاغاني وابن عساكر(٥٠) منسوبة الى بشير بن سعيد(٥١) ٠

(ط) يعلق العدوي (المخطوطة ص ١٥٩) على مقطوعة وردت في الديوان (هرشفيلد رقم ١٢٩) ٠ على انها هجاء في الوليد بن المغيرة المخزومي ، فيقول : ان الشعر في الواقع منحول ، وضعه يحي بن عروة بن الزبير في اثناء مهاجاته مع ابراهيم بن هشام(٤٩) ٠

(ي) ومع ذلك يعتمد العدوي شخصا غير معروف من عائلة الزبير بمقطوعة اخرى (هرشفيلد رقم ٢٠٨) في هجاء آل عوف مدعيا انهم ليسوا قرشيين أقحاحا ولكنهم منحدرون من تغلب ٠ ويذكر العدوي في ملاحظة تتلو المقطوعة (المخطوطة ١٧٥-١٧٦) ان السبب في قولها هجاء وجهه آل عبدالرحمن بن عوف ، الذين كانوا من اهل العلم بالنسب ، لآل الزبير ٠

وحينما تلي الشعر على عبدالعزيز بن عمران بن عبدالعزيز بن عبد الرحمن بن عوف ، علق على ذلك بقوله : لقد رمونا بأشر ما عندهم ٠ ولكنهم على اي حال لم يستطيعوا ان يخرجونا من العرب ٠

ومن الجدير بالملاحظة ان عبدالعزيز صاحب التعليق الآنف الذكر من ابناء الجيل الرابع بعد عبدالرحمن بن عوف صاحب رسول الله (ص) كما هو واضح من النسب المذكور اعلاه ٠

(ك) يذكر العدوي (المخطوطة ص ١٨٧) عن احدى المقطوعات (هرشفيلد رقم ١٨٧) انها لعمرو بن شقيق بن سلامان من آل الحارث بن مرة ٠ بينما يورد صاحب الاغاني(٥٢) روايات تذهب الى احتمال كونها لأربعة شعراء من بينهم حسان بن ثابت وعمرو بن شقيق المذكور ٠

١٤ : يورد المبرد ((ت ٢٨٥)) البيت التالي(٥٣) :

سالت هذيل رسول الله فاحشة ضلت هذيل بما سالت ولم تصب

ويعلق المبرد على كلمة «سالت» بأنها ليست من لغة حسان ٠ وقد يكون من المعقول ان المبرد أراد بذلك انكار البيت كله لحسان ؛ فمثل هذا الرأي الصادر عن لغوي كالمبرد له أهميته البالغة ٠

١٥ : يذكر الحصري (ت ٤١٣) في « زهر الآداب »(٥٤) الشعر الذي عزاه ابن هشام(٥٥) الى قتيلة اخت النضر بن الحارث الذي امر النبي بقتله بعد معركة بدر ٠ ثم يورد قول الزبير بن بكار(٥٦) « وسمعت بعض اهل العلم يغمز في ابيات قتيلة بنت الحارث ويقول : انها مصنوعة ٠ »

تتضمن الابيات من جهة رثاء للنضر بن الحارث ، لكن مغزاها الرئيسي

كان معاتبة رقيقة للرسول (ص) لانه قتل النضر ولم يقبل الفدية عنه • وهذا أمر بحدذاته دليلا على عدم اصالة القصيدة • على ان مما تجدر ملاحظته ان الذي اورد القصيدة هو ابن هشام وليس ابن اسحاق • ومن الجدير بالذكر ايضا ان ابن اسحاق(٥٧) يقول : بان النضر اعدم في « الصفرا » (فيما يذكرون) في حين يعلق ابن هشام بعد ذلك مباشرة ويقول ان محل القتل كان بمكان يقال له « الأثيل » • وهذا هو الموضع الذي ورد ذكره في البيت الاول من القصيدة •

وقد ذكر ابن سلام هذه الحادثة لابن جعدبة (٥٨) فانكر الاخير ان يكون النضر قتل بعد معركة بدر ، وانما اصيب في يوم بدر بجراحة اخذ على اثرها اسيرا وامتنع عن الطعام والشراب ما دام في ايديهم ، فمات •

١٦ : يعلق ابن الاثير(٥٩) « ت ٦٣٠ » عندما يورد احدى مراثي حسان ابن ثابت في عثمان بن عفان ، على أحد أبياتها وهو(٦٠) :

بل ليت شعري وليت الطير تخبرني ما كان شأن علي وابن عفانا

بقوله : « وقال ابو عمرو بن عبدالبر وقد ذكر بعض هذه الابيات :وقد زاد فيها اهل الشام » • وتتضمن المقطوعة غمزا واضحا لدور علي بن ابي طالب في مقتل عثمان •

وغالبا ما تنسب قصائد ومقطوعات وردت في السيرة الى شعراء آخرين غير شعراء السيرة ، وقد ضربنا قبل قليل مثلين على ذلك • وفيما يأتي امثلة اخرى :—

١٧ : ليس هناك أقل من ثلاثين قصيدة ، أو مقطوعة ، أو بيت واحد تنسب الى حسان بن ثابت والى شعراء آخرين في آن واحد سواء أكان ذلك في الديوان أم في السيرة أم في الكتب الاخرى • ويكفي أن نورد هنا مثلا أو مثلين على ذلك • فالمقطوعة رقم ٣٨ في ديوان حسان تنسب في السيرة(٦١) الى صفية بنت عبدالمطلب • وتنسب المقطوعة رقم ١٩ الى أبي قيس صرمة(٦٢)، والمقطوعة رقم ١١٣ الى حنظلة بن الربيع يحرض بها معاوية بن ابي سفيان(٦٣) •

١٨ : وتجد في بعض الاحيان أخبارا عن الاشعار الموضوعة على ألسن الشعراء ؛ فهناك في الاغاني(٦٤) عن محاولة نسبة أبيات الى حسان بن ثابت او الى شاعر آخر عاصر النبي (ص) هيئت لهذا الغرض • وتدور القصة حول ابي بكر بن عبدالرحمن بن الحارث بن هشام ، حفيد الحارث بن هشام المخزومي الذي عرف بسمعته السيئة لما كان يضمره من عداوة وبغضاء للنبي (ص) ، وهو الذي فضح نفسه حينما هرب يوم بدر تاركا أخاه أبا جهل في أرض المعركة(٦٥) • لقد قدم ابو بكر هذا الى احد الاشخاص اربعة آلاف درهم ، وطلب منه ان يدعي ويقول انه سمع حسان بن ثابت ينشد الرسول (ص) اربعة ابيات من الشعر كانت عند ابي بكر نفسه • فرفض الرجل •

وقال : « أعوذ بالله أن افترى على الله ورسوله ، ولكن ان شئت أن أقول : سمعت عائشة تنشدها فعلت » • فرفض ابو بكر • وظل مصرا على رأيه ، وافترقا على هذه الحال • ثم ان ابا بكر ارسل اليه بعد ايام وطلب اليه أن يقول ابياتا يمدح بها والده هشاما • فلما نظم الابيات طلب منه ابو بكر ان ينسبها الى ابن الزبعري « فهي الى الان منسوبة فى كتب الناس الى ابن الزبعرى »(٦٦) •

ومما يشابه ذلك ما كانت عليه عادة مؤلف « كتاب صفين » في وضع عبارة « ومما قيل على لسان ...(٦٧) » عندما يقدم بها عددا من القصائد التي يوردها في كتابه •

---

* هذه ترجمة لمقالة بعنوان :

Early Critics of the authenticity of the Poetry of the Sira

منشورة في : BSOAS. Vol. XXI Part, 3 pp. 453-463

وللمقال اهمية في تاريخ الادب العربي والدراسات التاريخية على حد سواء ، فقد تناول موضوعا ذا اهمية بالغة لم يحض بعد بدراسات واسعة • وقد أهتم الكاتب بالدرجة الاولى فى الشعر المنسوب الى حسان بن ثابت ، فدار معظم البحث عنه ، وهذا متات ، ولا شك ، عن اطلاع الكاتب في حسان وشعره • ولعله مما يزيد في قيمة المقال اعتماد المؤلف على مخطوطة لديوان حسان بن ثابت محفوظة بمكتبة احمد الثالث باستانبول عليها تعليقات ، لم تنشر حتى الان ، لاحد العلماء الذين عاشوا في النصف الاول من القرن الثالث الهجري هو أحمد بن محمد بن حميد العدوي ، كما انها تتضمن دراسة لآراء العدوي هذه ، والآراء الاخرى ، ومقارنتها مع المخطوطات الاخرى لديوان حسان والنسخ المطبوعة منه • ولا يسعني الا ان اتقدم بالشكر الى استاذي الاستاذ ناجي معروف عميد كلية الاداب لتلطفه بقراءة مسودة الترجمة وابداء ملاحظاته القيمة عليها (المترجم) •

(١) هناك أطروحتان ، احدهما لصديقي الدكتور محمد عبده عزام الذي يعمل الان فى جامعة مانشستر تناول فيها شعر السيرة من حيث العموم ، والاخرى لكاتب المقال ، وقد تناولت بصورة رئيسة الشعر المنسوب الى حسان بن ثابت فى الديوان ، والسيرة ، وفى الكتب الاخرى والتي قدمت الى جامعة لندن سنة ١٩٥٣ • وانظر ايضا :

A. Guillaume, "the Biography of the Prophet in recent research, Islamic Quarterly, 1, I, 1954, 5-11.

كذلك ترجمة الاستاذ غيوم « سيرة رسول الله » لابن اسحاق (O.U.P. 1955) المقدمة ص ٢٥_٣٠ • وانظر بعض دراساته الشخصية المنشورة في :

BSOAS, XVII, 2, 1955, 197-205; XVII, 3, 1955, 416-25; XXI, I, 1958, 15-30.

(٢) انظر مثلا : السيرة (طبعة وستنفلد) ص ١٨_١٩ ؛ والفقرة (٨) ادناه •

(٣) انظر مثلا : نفس المصدر ص ٥٢٠/٥٢١/٥٢٦ فما بعد

(٤) المقصود هنا الكتاب القدماء ، الا اننا يجب أن نشير الى دراسة طه حسين الذائعة الصيت « فى الأدب الجاهلي » (القاهرة ١٩٤٧) وبخاصة ص ١٢٤ فما بعد •

(٥) يورد البرقوقي فى طبعته لديوان حسان بن ثابت (القاهرة ١٩٢٩) قولا ينسبه الى الاصمعي يقول فيه ان حسانا « تنسب اليه أشياء لا تصح عنه » (المقدمة ص ط) ، ولم يذكر مصدرا لهذا الخبر ، ولم استطع ان أجد رأى الاصمعي هذا فى جميع المصادر المتوفرة عندي • [قلت : يرد هذا القول في ترجمة حسان ابن ثابت في كتاب « الاستيعاب فى

معرفة الاصحاب » لابن عبدالبر . القسم الاول ص ٢٤٦ . (ط . علي محمد البجاوي) القاهرة (؟) (المترجم)] .

(٦) طبقات فحول الشعراء . تحقيق محمد محمود شاكر . القاهرة ، ١٩٥٧ . ص ٣٩/٢٢ ـ ٤٠ .

(٧) هناك عدد من العلماء يطلق عليهم لقب العدوي ذكروا في كتب التراجم او ورد ذكرهم في المصادر التاريخية . والعدوي الذي نحن بصدده هنا هو : احمد بن محمد بن حميد الذي لم يرد ذكره في كتب التراجم . وينقل العدوي بعض المعلومات المنسوبة اليه في المخطوطة المشار اليها عن ابن اسحاق عن طريق راويتين متعاقبين ، وعن هشام بن عروة عن طريق اثنين من الرواة متعاقبين أيضا . وعلى هذا فانه يجب أن يكون قد عاش في النصف الاول من القرن الثالث الهجري . انظر ادناه الفقرة (١٣) .

(٨) ديوان حسان بن ثابت . تحقيق هرشفيلد (سلسلة أوقاف جب رقم XIII) ليدن ولندن ١٩١٠ . وتشير الارقام الى تسلسل المقطوعات والقصائد في هذه الطبعة .

(٩) السيرة ص ٨٢٦ ؛ ديوان حسان رقم ١٤٢ .

(١٠) السيرة ص ٤ .

(١١) لا نعرف في الواقع مقدار ما حذفه ابن هشام مهذب السيرة من الشعر الذي اورده ابن اسحاق . ويذكر السيد العابد الفاسي في مقالته عن « خزانة القرويين ونوادرها » [مجلة معهد المخطوطات العربية المجلد الخامس ج١ص ١٤ـ١٥] نسخة من سيرة ابن اسحاق الاصلية تشتمل على الاجزاء ٢ـ٣ـ٤ـ٥ كتبت سنة ٥٠٦هـ ، عليها عدة سماعات نقلت من الاصل المنتسخ منه . ويكون من المفيد جدا لو قام احد الباحثين المعنيين بهذا الشأن بدراسة هذه المخطوطة ونشرها ومقارنتها مع نسخة ابن هشام الحالية . (المترجم) .

(١٢) مثلا : السيرة ص ١٤ .

(١٣) وفيما يتعلق بهذه القصائد والمقطوعات ، فان الموجود منها في طبعة البرقوقي لديوان حسان قد ادخلت باعتبارها اشعارا لا توجد في نسخ الديوان الاخرى . وهذا متأت من وجود سبب معقول يؤدي الى الاعتقاد بان ناسخ الديوان قد اقتبسها من السيرة .

(١٤) السيرة ص ٥٣٤ .

(١٥) هذا تحميل للنص اكثر مما يحتمل . (المترجم) .

(١٦) السيرة ص ٩٣٥ـ٩٣٨ ؛ ابن عساكر (طبعة بدران) م٤ ص ١٣٠ فما بعد ، ج٣ص ٢٥٥ـ٢٥٧ . وانظر عن الحادثة والاشعار المختلفة التي قيلت فيها مقالتي المنشورة في ، BSOAS, XVII, 3, 1955, pp. 416-25.

(١٧) تحقيق فون كريمر (كلكتا ١٨٥٦) . انظر ص ١٩٠/١٩١/٣٤٤/٣٤٦ .

(١٨) العبارة هي : « هذا آخر شعر حسان في الاملاء عن ابن حبيب . وهذا الباقي كتبته من كتبه ، لم يمله . » . وتظهر هذه العبارة في المخطوطات التالية التي رأيتها او التي عندي منها نسخة مصورة : مخطوطة المتحف البريطاني Ad. 19, 534 مخطوطة المكتبة الوطنية في باريس Suppl. 1932 مخطوطة استانبول ، احمد الثالث ١١٨ . وانظر : ديوان حسان طبعة هرشفيلد رقم ٢٠١ ص ١١٠ . وقد روى السكري « ت ٢٧٥ » الاشعار عن ابن حبيب « ت ٢٤٥ » الذي جمع الديوان .

(١٩) معجم الادباء (طبعة مرغليوث) ج٦ ص ٤٧٣ـ٤٧٦ .

(٢٠) توهم كاتب المقال في صاحب القصة فاسند القصة كلها الى ابي طاهر القاضي في حين انها وقعت لثعلب كما هو واضح من الاسناد . وقد اوردت (القصتين) بنصيهما مع المحافظة على الاسناد دفعا للالتباس . (المترجم) .

(٢١) يبدو من القصتين انهما واحدة اختلفت روايتها فالتبس الامر على كاتب المقال : فقد روى الاولى ابو طاهر القاضي عن ثعلب . وروى الثانية « ابو بكر محمد بن الحسن الزبيدي

الاشبيلي في كتابه « عن ثعلب ايضا . وابو بكر الاشبيلي هذا ، هو محمد بن الحسن بن عبيدالله بن مذحج بن محمد بن عبدالله الزبيدي ، العالم ، اللغوى ، النحوى ، الشاعر المتوفى سنة ٣٧٩هـ . وقد وردت القصة (الثانية) في كتابه « طبقات النحويين واللغويين » [طبعة ابو الفضل ابراهيم ، القاهرة ١٩٥٤] في ترجمة محمد بن حبيب ص ١٥٣ـ١٥٤ .

واذا صح قول الكاتب من انهما قصتان ، وهو غير صحيح على الارجح ، فان القصة الاولى لا يفهم منها ان ابن حبيب كان يملي ديوان حسان . ولا يمكن في هذه الحالة تحميل النص اكثر من طاقته . (المترجم) .

(٢٢) ص ٨ـ٩ .

(٢٣) القرآن الكريم سورة النجم ٥٠ـ٥١ . وذكر آيات اخر ايضا : الانعام ٤٥ ؛ الفرقان ٣٨ ؛ ابراهيم ٩ ؛ الحاقة ٨

(٢٤) ص ١١

(٢٥) السيرة ص ٦

(٢٦) الصحفي « من يخطىء في قراءة الصحيفة » القاموس المحيط . او هو « الذي يروي الخطأ عن قراءة الصحف باشباه الحروف » . لسان العرب . وقد ذمهم العلماء لانهم كانوا ينسخون من الكتب ، اي دون قراءتها على استاذ .

(٢٧) انظر مثلا السيرة ص ٤١٩/٤١٨/٨٩ .

(٢٨) السيرة ص ٥٣٣ حيث نجد سجعا يورده ابن هشام ايضا .

(٢٩) تعاضهت : تباهتت . والعضيهة : الافك والبهتان والنميمة . (المترجم) .

(٣٠) استبت : تشاتمت . (المترجم)

(٣١) طبقات الشعراء ص ١٧٩ . وانظر مثلا الفقرة ١٢ (ج) والفقرة ١٣ (ط) ، (ى) .

(٣٢) الفهرست (طبعة القاهرة ١٣٤٨هـ) ص ١٣٦

(٣٣) المصدر السابق ج٦ ص ٤٠١ .

(٣٤) توهم كاتب المقال ونسب هذا القول الى ياقوت الحموي . ويبدو انه لم يمعن النظر في النص والتبس عليه الامر لعدم وجود التنقيط الصحيح في طبعة مرغليوث . والواقع ان ياقوتا نقل قول ابن النديم الآنف الذكر . قال : « قال محمد بن اسحاق : كانت تعمل له .. الخ » قارن الفهرست لابن النديم . (المترجم) .

(٣٥) المصدر السابق ص ٢٠٤ .

(٣٦) السيرة ص ١٧٢ ـ ١٧٦ .

(٣٧) المصدر السابق ص ١١ . وانظر ايضا السيرة ص ٦ .

(٣٨) طبقات فحول الشعراء ص ٢٠٨ ـ ٢٠٩ .

(٣٩) ابن عم الرسول (ص) . قاوم الاسلام ، وقيل انه تزعم قسما من معركة الهجاء للمسلمين الى ان اعتنق الاسلام قبيل فتح مكة . السيرة ص ٦٠٧/٤٦١ .. الخ .

(٤٠) استانبول ، احمد الثالث رقم ٢٥٣٤ . وقد استطعت ان احصل على نسخة مصورة بالفوتوستات لهذه النسخة ، ولمخطوطة اخرى في استانبول ايضا (احمد الثالث رقم ٢٦٦٣) بالمساعدة الكريمة التي قدمها معهد المخطوطات العربية التابع لجامعة الدول العربية بالقاهرة .

(٤١) صحابي من اهل المدينة . اشتهر كشاعر قبل الاسلام ، قتل في موقعة مؤتة عام ٨ هـ .

(٤٢) هناك بيت واحد في طبعة البرقوقي ص ٧١ .

(٤٣) بالنظر لعدم تمكني من الحصول على هذه المخطوطة لذا ترجمت النصوص بشكل يقارب الاصل جهد الامكان . (المترجم) .

(٤٤) روى ابن الفرات وولده ديوان حسان بن ثابت عن السكرى الذي رواه بدوره عن ابن حبيب . وقد روى الصيرفي الديوان عن السكري ايضا .

(٤٥) السيرة ص ٣٥٠ ٠

(٤٦) خالد بن الياس أو اياس العدوي ،، راوية ومحدث من أهل المدينة ٠ كان الواقدي أحد الذين رووا عنه ٠ اما توثيقه كمحدث فقد اعتبر من الضعفاء عموما ٠ (ابن حجر : تهذيب التهذيب ج ٣ ص ٨٠ ـ ٨١) ٠

(٤٧) هو ابن امية بن خلف من عشيرة جمح ٠ قتل والده امية ببدر ، وظل هو مناهضا للرسول (ص) حتى بعيد فتح مكة ٠ انظر السيرة ص ٦٤٠/٤٧٢ ٠٠٠ الخ ٠

(٤٨) استنادا الى ابن اسحاق فانه كان احد القرشيين الاربعة الذين انكروا عبادة الاصنام قبيل الاسلام وتفرقوا في البلدان يلتمسون الحنيفة دين ابراهيم ، وقد قدم عثمان بن الحويرث على قيصر ملك الروم فتنصر وحسنت منزلته عنده ٠ (السيرة ص ١٤٣ ـ ١٤٤) ٠

(٤٩) ابراهيم بن هشام المخزومي كان صهر هشام بن عبدالملك وواليه على المدينة ٠ وقد أمر الوليد بن يزيد الذي تولى الخلافة بعد هشام ، بتعذيب ابراهيم وأخيه محمد بن هشام وقتلهما بتحريض من عدوهما يحى بن عروة بن الزبير ٠ ويوصف ابراهيم في الاغاني (ج١ ص ١٤٤ ؛ ج١٤ ص ١٥٩ (بولاق ١٨٦٨) بانه كان : « تياها شديد الذهاب بنفسه »٠

(٥٠) الاغاني (بولاق ١٨٦٨) ج١٤ ص ١٢٥ ؛ ابن عساكر : تاريخ ج ٣ ص ٢٦٢ ٠

(٥١) انصاري من قبيلة الخزرج وأحد المسلمين الاوائل ٠ حضر بيعة العقبة الثانية ، وكان بعد وفاة الرسول (ص) الانصاري الوحيد الذي ساعد القرشيين عند مطالبتهم بالخلافة في اللقاء التاريخي الذي جرى في سقيفة بني ساعدة ٠

(٥٢) الاغاني ج ١٤ ص ١٣٠ ٠

(٥٣) الكامل (طبعة رايت) ص ٢٨٨ ، وانظر ايضا : ديوان حسان بن ثابت (طبعة البرقوقي) ص ٦٧ ٠

(٥٤) على هامش العقد (القاهرة ١٢٩٣ هـ) ص ٢٨ ـ ٢٩ ٠

(٥٥) السيرة ص ٥٣٩ ٠

(٥٦) ينسب كاتب المقال هذا القول للحصري في حين انه للزبير بن بكار كما هو واضح من قول الحصري : « قال الزبير بن بكار : وسمعت ٠٠٠ الخ » ٠ وهو الزبير بن بكار بن عبدالله بن مصعب بن ثابت بن عبدالله بن العوام العالم ، النسابة ، الاخباري المشهور ، صاحب كتاب « نسب قريش » المتوفى سنة ٢٥٦ هـ - انظر : الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ج٨ ص ٤٦٧ ـ ٤٧١ ؛ ابن النديم : الفهرست ص ١١٠ ـ ١١١ (ط٠ القاهرة) ؛ ياقوت : معجم الادباء ج١١ ص ١٦١ ـ ١٦٥ (ط٠ القاهرة) ٠٠٠ الخ (المترجم) ٠

(٥٧) السيرة ص ٥٠٨ ٠

(٥٨) انظر ابن سلام : المصدر السابق ص ٢١٣ ـ ٢١٤ ٠ وابن جعدبة هو : يزيد بن أياد - كان تلميذا للزهري ، وعاصم بن عمر بن قتادة ، ويزيد بن علي بن الحسين وغيرهم ٠ اما آراء أهل الحديث التي أوردها ابن حجر فيه فكانت تتهمه ولا توثقه كمحدث ٠ انظر : ابن حجر : تهذيب ج١١ ص ٤٤ ـ ٤٦ ٠

(٦١) السيرة ص ٦٣٦ ٠

(٦٢) نفس المصدر ص ٣٥٠ - وانظر أعلاه الفقرة ١٣ ٠

(٦٣) كتاب صفين - طبعة هارون (القاهرة ١٩٤٦) ص ١١٠ ٠

(٦٤) الاغاني ج١ ص ٣١ ٠

(٦٥) السيرة ص ٤٥٠ فما بعد ٠

(٦٦) انظر مثلا : ابن سلام : المصدر السابق ص ٢٠٠ ـ ٢٠١ ٠

(٦٧) انظر مثلا : كتاب صفين ص ٢٧ ـ ٢٨ ٠٠٠ الخ ٠

رسوم دار الخلافة

تأليف أبي الحسين هلال ابن المحسن الصابي
عني بتحقيقه والتعليق عليه ونشره ميخائيل عواد ـ بغداد

الدكتور فؤاد افرام البستاني

كان للخلافة العباسية ، ولاسيما منذ عصرها الثاني ، سلسلة من النظم والترتيبات والأصول والآداب ، والعادات ، والتقاليد ، تتبع في الاستقبالات والحفلات ، سواء أكان ذلك في المواسم الحافلة أم في اجتماعات المسؤولين حتى الخاصة منها ، مما يقابل مايعرف في عصرنا بالفرنسية بكلمتي Etiquette و Protocole ، وقد استعمل العباسيون أولا للدلالة على مجموعة هذه القواعد السياسية والاجتماعية كلمة فارسية هي كلمة آيين الدالة على الدستور ، الطريقة ، النظام ، القانون ، النهج · وتجاوزت اللفظة الحياة الرسمية فجرت في الاستعمال العادي نثرا وشعرا · قال أبو نؤاس :

ولم نزل نسقي ، ونلهو به ، ونأخذ القصف بآيينه

ثم استبدل القوم بلفظة آيين الفارسية لفظة الرسم العربية التي لم تلبث أن وسعت هذه المعاني جميعها ، حتى تمكن المسعودي في النصف الاول من القرن العاشر أن ينشر كتاب «آيين نامه» بأنه «كتاب الرسوم» ·

وكان من الطبيعي أن يتحرى الكتاب ، ولا سيما المضطلعون منهم بشؤون الدولة ، هذه الرسوم فيدونوها ويبوبوها في تآليف خاصة ، جامعة بين لذة الوصف وفائدة الاشارة والتوجيه ، وكان من الطبيعي أن يكون فيها الخاص المنفرد بناحية أو بفن أو بمناسبة ، والعام الشامل كل مايعرض للحياة البلاطية · ولعل أقدم مآلف في ذلك ، مانسب لابن المقفع ، والجاحظ ، وابن قتيبة ، من رسائل وكتب في الآداب بهذا المعنى الأصولي ·

وليس من شك في ان من عيون هذه التآليف كتاب «رسوم دار الخلافة» : لابي الحسين هلال بن المحسن الصابي ، العائش من السنة ٣٥٩ الى السنة ٤٤٨هـ · (٩٧٠ ـ ١٠٥٦م) أي في منتصف عهد الدولة

العباسية . المتقلب في بلاطاتها ، المصطلح ، أبا عن جد ، بخدمة اداراتها ، الضابط كثيرا من أحداثها التاريخية ، حتى كان من أوعى الناس لحفظ هذه الرسوم ، ومن اخلقهم بفهمها على وجهها الصحيح ، ومن أجدرهم بتدوينها

وقد ظل هذا الكتاب محطوطا . على ذكر له ضئيل في آثار الصفدي والسيوطي خاصة ، حتى قيض له الله همة الاستاذ ميخائيل عواد ، البحاثة العراقي العميق ، والأديب الواعي ، فأقبل عليه منذ السنة ١٩٤٠ ، درسا وتحقيقا ، وضبطا ، حتى تم له اخراجه موخرا في هذه الطبعة النفيسة التي بين يدينا ، فكان له فضل الرائد الى حقل خاص من حقول التراث العربي المتشعب ، وفضل الشارع الى فصل جديد من تاريخ العلوم السياسية والديبلوماسية عند العرب .

بدأ الكتاب بذكر احوال الدار العزيزة ، اي دار الخلافة العباسية ببغداد ، فوصفها وصفا جغرافيا اجتماعيا ، مستطردا الى ماكانت عليه في العهد السابق لزمنه أي في العصر العباسي الثاني . ثم تناول آداب الخدمة ، فقوانين الحجابة ورسومها مشيرا الى لزوم خفض الصوت وتجنب اللغط . وذكر أدب مسايرة الخلفاء في المواكب ، واذا به يعرض لجلوس الخلفاء ، وما يلبسونه في المواكب ، ويلبسه الداخلون عليهم من الخواص وجميع الطوائف ، ويفصل رسوم خلع التقليد والولاية ، والتشريف ، والمنادمة ، وما يخدم به الخليفة عند التقليد والتشريف بالتكنية واللقب . ثم رسوم المكاتبات عن الخلفاء في صدورها ، وعنواناتها ، والأدعية فيها ، وما يعاد منها في أواخرها . وينتقل الى خطاب الخلفاء في الكتب والأدعية لهم . ورسوم الكتب عن الخلفاء . والدعاء للمكاتبين عن الخلفاء وما كان الرسم اولا جاريا به وانتهى اخيرا اليه . ويخصص فصلا بالانتساب الى مولى أمير المؤمنين ، فيقول «انما ينسب او ينتسب الى ذلك الأعاجم والموالي ، فاما العرب الصرحاء فلا يفعلونه» كأنه يشير الى ان العرب الصرحاء يمكنهم أن ينتسبوا الى أمير المؤمنين نفسه ، ثم يورد حادثة شخصية تنفي تعميم هذا الاستنتاج فيقول : «واذكر وقد كتب رافع بن محمد بن مقن على كتبه : من رافع بن محمد ابن عم أمير المؤمنين ... «فانكر امير المؤمنين القادر بالله ، صلوات الله عليه ، فعله ، وأمر بمنعه منه ، فتردد معه خوض طويل ، حضرت بعضه وترسلت فيه ، وقال :ألست عربيامن مضر ؟ فانا ابن عم أمير المؤمنين . فقيل له : ليس كل من كان من مضر ، وجبت له هذه النسبة . وهذا مالا يجوز ، ولا يجاز لك . فترك بعد مراجعات . قال : وكان محمد بن عبد الواحد بن المقتدر بالله رضي الله عنه ، يترجم رقاعه : محمد بن عبد الواحد عم أمير المؤمنين . وما علمت ذلك فعل في الصدر الاول» .

وينتقل بعد ذلك الى ما يذكر في أواخر الكتب من قولهم : « وكتب فلان بن فلان» ، ثم الى ذكر الطروس التي يكتب فيها الى الخلفاء ، وعنهم ،

والخرائط التي تحمل الكتب صادرة أو واردة فيها ، والختوم التي توقع عليها • بين ذلك فصل ممتع فيه «الألقاب» قديماً وحديثاً ، ففي الخطبة على المنابر ، ففي عادة ضرب الطبل في أوقات الصلوات ، خاتما بخطب النكاح ، ففصل يذكر فيه خدماته هو •

هذه هي المخطوطة القيمة التي اخرجها الاستاذ ميخائيل عواد في اطار خليق بها من حسن العناية ودقة الرعاية تتجلى في المقدمة ، والفهارس ، والتعاليق •

أما المقدمة فبلغت نصف متن الكتابة ، قسمها الناشر قسمين ، خص الاول منهما بالمؤلف هلال بن المحسن الصابى ، فشرح معنى الصابئة ، وصنفها الى الفئتين المشهورتين : الصابئة الحرانية او الحرانية المعروفون بعبادة الكواكب • ومنهم كان المؤلف • والصابئة المندائية المعروفون بالصابئة البطائحية أتباع يوحنا المعمدان ، ويسميهم العرب أيضاً «المغتسلة» ومنهم البقية الباقية الى اليوم والمعروفة بالصابئة والصبة في اقليم خوزستان من ايران وفي بعض انحاء العراق كالبصرة ، وسوق الشيوخ ، والناصرية ، والكوت ، والعمارة ، وقلعة صالح ، وبغداد ، وكركوك ، وخانقين • ثم تتبع مؤلف الكتاب في حياته وآثاره متولياً ديوان الانشاء ببغداد ، فكاتبا أسرار فخر الملك ، ومؤرخا ، وأديبا ، وشاعرا• وخص بكلمة ابنه غرس النعمة ، ثم حاول تحديد درجة قرابته من ثابت بن سنان بن قرة • مستطردا الى ذكر مؤلفاته ، غير رسوم دار الخلافة • خاتما بمراجع ترجمته واخباره ملحقا بذلك شجرتي نسب لآل الصابيء ولآل قرة •

أما القسم الثاني فموضوعه كتاب ((رسوم دار الخلافة)) في صفة مخطوطة وذكره لدى القدماء وطريقة ناسخه • منتقلا الى تفصيل المقصود ب ((الرسوم)) • فالى ثبت مستفيض شامل لما ألف قديما وحديثا في الرسوم والآداب والسياسة والادارة ونحوها. وهو فصل جدير بكل شكر وثناء•

وأما الفهارس فيكفي القول أنها تناولت كل ما يمكن أن يستغل في مطالعة الكتاب ويحتاج المطالع الى الرجوع اليه ، موزعة على تسعة أبواب من أسماء الاشخاص ، الى أسماء الامم والقبائل والجماعات والملل والنحل ، الى الامكنة والبقاع ، الى الفهرس العمراني العام وفيه : الالفاظ الدخيلة والمعربة ، والمصطلحات ، ولغة الحضارة ، والنبات ، والحيوان ، والاحجار ، والطيب ، والطعام ، واللباس ، والآلات ، والمسكن ، وغير ذلك من الموضوعات ، الى الكتب والمراجع ، الى فهرس الآيات القرآنية ، الى القوافي ، الى الحوادث التاريخية الوارد ذكرها في الكتاب •

وأما التعاليق فتكفي الاشارة الى انه لم تخل منها صفحة من صفحات المتن ، مع ايجازها ودقتها وشمولها واستيعابها • فلا نستغرب من ثم اقبال المؤرخين وعلماء السياسة وسائر الادباء على هذا الكتاب ، ولا نستغرب قرار «اللجنة الدولية لترجمة الروائع العالمية» في بيروت نقله الى لغة أجنبية•

الشعر العراقي الحديث

وأثر التيارات السياسية والاجتماعية فيه

للدكتور يوسف عزالدين

بقلم خليل الهنداوي

لا شك أن للشعر المقام الاول في الثورات العربية ، والتحميس لها ، والتأثير فيها ، كما كان له المقام الاول في العصور السابقة • فالشعر ـ وحده ـ قبل أن يشتد أمر النثر ، ويمتد نفوذه بواسطة الطباعة ، وانتشار اسبابها ـ كان يرافق هذه الثورات ، ويتغنى بها ، ويحمحم لها ، سواء في ذلك الثورة السورية ، والثورة العراقية ••• والثورة المصرية ••• والثورة الفلسطينية ، وكل ثورة •

ولا ننكر أن كتب الادب الحديثة ، والدراسات المتصلة بها قد اعتنت بدراسة هذا الشعر ، وقدمت منه مادة غزيرة للاجيال ، حتى يكون مثيرا للنخوة والبطولة • ولكني لاحظت أن اعتناءنا بالشعر العراقي وبخاصة شعر القرن التاسع عشر والقرن العشرين كان ضعيفا ، ضئيلا بالنسبة الى ما شحنت به بقية الدراسات عن غير هذا الشعر • وبتنا ـ بفضل هذه الدراسات ـ لا نعلم الا شعر الزهاوي والرصافي ، مع أن هناك شعراء آخرين ـ من شباب وشيوخ ـ قد اتصفوا بالزخم والقوة في معترك النضال الثوري ـ داخلا وخارجا •

والآن ، يطلع علينا الدكتور يوسف عز الدين بدراسة وافية ، عن الشعر العراقي الحديث الذي كان جنديا في الميدان ، تتناول :

١ ـ الشعر العراقي في العهد العثماني •

٢ ـ أثر الحرب العظمى الاولى •

٣ ـ الثورة العراقية •

٤ ـ مشكلات العراق السياسية •

٥ ـ أثر الحياة الاجتماعية في الشعر •

وقد جاء في المقدمة هذا البيان للمؤلف :

« كان موضوع البحث شائكا لامرين : الاول انه يبحث في أمور لم

تكن مقبولة رسميا ، وتجر كاتبها الى المتاعب ، فقد تطرقت الى الاقطاع والفقر والمرض والجهل ، وذكرت أثر الاستعمار ، وموقف الحاكمين منه .

والثاني أن البحث يقدم الى جامعة انكليزية وأنا عربي أبحث مشكلات وطني ، واكتبها للانكليز ... » .

والمؤلف يقف في مباحثاته عند سنة ١٩٣٩ لسببين :

الاول : ظهور اتجاهات جديدة على الشعر العربي لم تكن متبلورة وكانت في فترة التطور ، والحكم على أمر غير ناضج أو مستقر ، لا يقره البحث العلمي .

والثاني : أن العراق بعد هذه الفترة مر بأزمات سياسية دعت الى اعلان الاحكام العرفية ومنع كل شاعر لا يسير في ركاب الحاكمين والمستعمرين أن يعبر عن رأيه ...

ولابد أن نلاحظ ـ قبل العرض والتحليل ـ أن مشكلات الافكار العربية كانت متشابهة مترابطة ، لان الحالة السياسية التي كان يعانيها كل قطر ، والحالة الاجتماعية المنحطة التي كان يتخبط فيها كل قطر كانت واحدة .

والحالة السياسية مثلا في سورية ومصر والعراق واحدة ، تقع تحت اعباء الاحتلال والانتداب ، والتفكك ، وتسلط الحكام .

والحالة الاجتماعية ايضا تكاد تستقطب مشكلات الجهل والفقر والمرض والمرأة .

ومن هنا بدأ الشعر العربي انطلاقه من نقطة واحدة ، برغم اختلاف الاقطار . وهذا دليل ناصع على وحدة المشاعر والاحاسيس والآمال والافكار وبذلك سهل أن تتفجر طاقات النضال من نبعة واحدة ، الى غاية واحدة .

من ذلك مثلا اشتراك الشعراء في قضية المرأة ، فبينما كان شعراء مصر ـ كشوقي وحافظ ابراهيم ـ يولون هذه المشكلة اهتمامهم مع كتاب عصرهم كان شعراء العراق ـ كالزهاوي والرصافي ـ يعانون هذه المشكلة ذاتها ... وهكذا الامر في كل قضية سياسية واجتماعية .

ولكن الملحوظ أن لهجة شعراء العراق كانت أشد اندفاعا ، وتحمسا ، لان الشعر العراقي ـ بطبيعته الموروثة ـ يكاد يتفرد بهذه الصراحة والقوة منذ القديم .

أليس شعر الاحزاب ، والفرق ، والخوارج ـ وبعبارة أجمع ـ أليس الشعر السياسي في الادب العربي هو وليد البيئة العراقية ؟

فاذا ، ليست صراحة الشعر العراقي في الحديث الا امتدادا لتلك الصراحة التي يصح أن تكون الطابع المميز للشعر العراقي ...

يبدأ المؤلف بحصر المشاكل الرئيسية التي كان العراق يعاني منها في القرن التاسع عشر الى القرن العشرين ... ومنها الجهل الذي كان يغشى العراق ، والحالة الصحية المتردية ، واهمال المرأة السجينة ، وخنق اللغة العربية ..

وما كان لهذه المشاكل أن تثار الا بعد أن ارتفعت صيحات المطالبة بالاصلاح ، وتسللت الى الشعب الآراء الجديدة القائلة بالعدالة والحرية والمساواة ••• هذه الآراء التي دفعت الشعراء في أوائل القرن العشرين الى المطالبة بالتحرر والاصلاح ، متأثرين بالحركات التحررية التي هزت العالم • فبدأ الشعراء يخاطبون أبناء الضاد ، وان كانت البواعث الدينية لا تزال تغلب على هذه الصيحات :

فهذا « حبيب العبيدى » يهيب بالعرب على أثر اعتداء الطليان على طرابلس :

أنسام الهوان دون المنايا
انما الموت والهوان سواء
ليس دار الهوان للحر دارا
انما الحر ، داره الجوزاء
يا بني الضاد • ان للضاد حقا
ناطحت دون هضمه الآباء
ليت شعري • ما ينقم القوم منا ؟
رب قوم أرض ، ونحن سماء •••

وهذا « خيري الهنداوي » يقول بلسان حسناء ، اغتصبها الاعداء ، وهي تستغيث فلا تغاث :

يا هذه • كفي الدعاء ، فقومنا
لو تعلمين عن الدعاء نيام
ما القوم الا سحب صيف أرعدت
ثم انجلت بالريح ، وهي جهام
لا تستغيثي • ليس معتصم بنا
كلا ، ولا فينا ، يعد ، همام
ماتت عواطفنا بموت رجالنا
فجميعنا بمماتها أنيام •••

وتعلن الحرب العظمى الاولى ••• فاذا البلاد العربية تذوق من ويلاتها النصيب الاوفى ، وينال العراق منها ـ بصورة خاصة ـ السهم الاكبر ، لان ساحته الآمنة ، قد انقلبت الى ساحة حرب رهيبة بين الاتراك والانكليز ••• وقد استطاع الحلفاء أن يستدرجوا العرب الى خوض هذه الحرب معهم ، بعد أن منوهم الاماني ، وقطعوا لهم الوعود السخية بالحرية والاستقلال •

وبذلك يقول الشاعر الزهاوي :

قد انتهت المهالك والحروب
وفي العقبى تحررت الشعوب

هنيئاً للعراق ، فسوف يلقى
بذلك ما تطيب له القلوب

ولكن ... هل لقي العراق على أيدي الحلفاء المنتصرين ما بشر به الزهاوي وهو مخدوع ؟ انه لقي الاحتلال ، ونكبات الاحتلال . وما كان للاحتلال الا انه يمهد للثورة السياسية ... « والثورة السياسية تأتي بنتيجة اي ضغط على حريات الشعب ، فيهدد كيانه وشخصيته ، ومقوماته، فيفقد جزءا مهما من حياته ، فيثور ليتخلص من هذا الكابوس الذي حال دون حريته ، ولينطلق الى عالم رحب من السيادة والاستقلال ... » .

وهذا الزهاوي نفسه يصرخ محذرا القوم مما يحيق بهم ، وما سيصل اليه مستقبلهم :

أيا القوم . أيها القوم . انتم
أمة ساقطون في مهواة
أيها الظلم . هل زمانك ماض ؟
أيها العدل . هل زمانك آت ؟
وسأبكي قومي . وأبكي بلادي
وقبور الآباء والامهات ...

ولكن ... متى كان البكاء يجدي ؟ ومتى كان البكاء على الاطلال يحيي الاطلال ؟ والحرية الاصيلة غرسة تميتها ، وتحييها الدماء ...

لذلك بدأ الشعور بالثورة يستيقظ، ولا محيد للشعب يطلب حريته عن ان يثور ... فظهرت روح النقمة والثورة على الاستعمار الانكليزي واضحة في الشعر العراقي ، تطالب بالكرامة واحترام العراقيين الذين لا يقلون عن المستعمرين في المزايا . أليسوا بشرا لهم عواطفهم وأحاسيسهم ؟ فلماذا يمعن الانكليز في اذلالهم ؟ ان الشعب العراقي شعب يعتز كثيرا بشخصيته وانسانيته ، وقلما انصاع الى حاكم أو سلطان يريد أن يحتقره ، أو يفرض عليه رأيه ... شعب يحب الحرية ويتعشقها .

وروح النقمة كانت روحا ثائرة تريد الانتقام من الخصم العنيد الذي أذلها في كل مكان عاشت فيه ، في الشارع ، وفي البيت ، وفي السجن .

وهذه بوادر الدعوة الى الثورة لتخليص البلاد من الاحتلال ، لان الاحتلال عار لا يرضاه العراق ، ومن يغسل هذا العار الا سيل الدماء ، وتطهير الارض الكريمة من سيطرتهم . هذه البوادر ... تظهر في أبيات الشاعر « سعد صالح » :

الى كم نكابد مر الهوان
وتشقى البلاد بأغيارها ؟
أما آن أن تنتضي بيضها
وترمي الغداة بثوارها ؟

لعـــل الدمـاء اذا مـا جــرت

على الارض تغسـل من عارهـا ...

وقد نظم خلال الثورة شعراء كثيرون . وقد كانوا جميعا يتفقون في الهدف ، هو المطالبة بانهاء الحكم الاجنبي في العراق ، وانشاء حكم وطني أساسه الاستقلال والحرية .

ويشاء القدر للثورة العراقية أن تفشل ، كما فشل غيرها من الثورات في الاقطار العربية . لان المستعمرين تكالبوا في كل مكان على خنق أصوات الحرية بكل ما يملكون من قوى ... واستطاعوا ... ولكنهم لم يقدروا على خنق الروح المعنوية المتأججة في قلب كل عربي ، وفي كل بيت عربي ، وفي كل قطر عربي . ولئن كان الشعب فقيرا لا يملك القوى التي تذود عنه ، ولا الجيوش التى تناهض الخصم العنيد ، وتقاتل جنوده المدربة فقد كان للشعب قلوب تنبض بالايمان ، ونفوس لا تقدر عليها الجيوش الجرارة ولا الاسلحة الحديثة ..

وهكذا نرى أن الشعر العراقي عامة كما ذكر الدكتور البصير في مقدمة ديوانه « البركان » كان حطبا جزلا لالهاب نيران الثورة ، فبذل الشاعر كل قدرته في هذا النظم العجلان ليهز المشاعر ، ويثير الخواطر ضد المحتل الذى هيمن على مقدرات الوطن ، ويذكر الناس بالذل والهوان ...

ومهما انتهى اليه أمر الثورة فان من نتائجها تعجيل المحتل بالتفكير في انشاء دولة وطنية ، واستبعاد جعل العراق مستعمرة تابعة ... فجعل من العراق دولة ملكية وأقام من نفسه وصيا منتدبا عليها ، ثم أبدل الانتداب بمعاهدة كبلت العراق ببنود ظاهرها الصداقـة ، وباطنهـا استمرار الاحتلال ...

ولئن خدرت هذه الحلول بعض رجال السياسة فانها لم تخدر الشعراء الذين عادوا الى بث روح الحماسة في النفوس ، ودعوا الى النضال والكفاح ، وعدم مهادنة المحتل ، ومسامحته ، لان التسامح معناه الرضا بالذل الذي عاق بالبلاد ، وأورثها الاحزان والآلام . ومن يدفع المستعمر عن حمى الوطن غير لم الشمل ، والقوة والثبات ، لان ضعف الشعب أغرى المحتل . واذا أراد الشعب أن يتحرر فعليه أن يأخذ حريته بقوته ، لان المستعمر اذا ما أعطاك حريتك فسوف يمن بها عليك ، فعلى العراقيين ، اذا ، أن يأخذوا الحرية اقتسارا من المستعمرين :

وهذا الشاعر البصير يقول :

أنا يا رفاقي ، لا أريد سـلامتي

فتذكروني ، ان هلكت ، رفاقي !

ان لم تعش نفسي العزيزة حـرة

فلأسعين بهـا الى الازهـاق

هب أن رحمة آسري ستفكني
أو لست احمل منه الاطلاق ؟
فأشق من أسري علي بأن أرى
يد آسري يوما تحل وثاقي

كان الشعراء ينظرون الى الوضع العراقي العام ، والالم يعصر قلوبهم ونفوسهم ، فيظهر عليهم مرة طابع الالم ظاهرا ، ويبدو تارة بشكل سخرية لاذعة من الحكومة ووزرائها ونوابها ، وطورا يظهر مشوبا بالرثاء لهؤلاء الذين جعلوا من أنفسهم ممثلين على مسرح السياسة •

وقد كان الرصافي سباقا الى تسجيل مظاهر هذا النضال ، وهو الذي يقول ساخرا :

هذي حكومتنا • وكل شموخها
كذب ، وكل صنيعها متكلف
غشت مظاهرها ، وموه وجهها
فجميع ما فيها بهارج زيف
وجهان فيها : باطن متستر
للاجنبي ، وظاهر متكشف
علم ودستور ، ومجلس أمة
كل عن المعنى الصحيح محرف
أسماء ليس لنا سوى ألفاظها
أما معانيها فليست تعرف •••
من يقرأ الدستور يعلم أنه
وفقا لصك الانتداب مصنف
من ينظر العلم المرفرف يلقه
في عز غير بني البلاد يرفرف •••

ولعل هذه القصيدة تعد أصدق مسجل للعهد الذي نظمت فيه •

وهكذا أضفت المشاكل السياسية على الجو الشعبي العام جوا من الحزن واليأس والكآبة . وران على العراقي التشاؤم ، فطفح الشعر بالالم والنقمة والثورة • وكان الالم عميقا حارا ، والشعور دافقا فياضا ، بعد أن وجد الشاعر نفسه جزءا من المجموع تواجهه نفس المشاكل التي تواجه الشعب باجمعه ، فرأى في نفسه الشعب ، والشعب في نفسه ، فأخذ يصرخ متحديا قوى الانتداب ، وأذنابه من بني جلدته ، مطالبا بالاصلاح ، ثائرا على تدهور الحال ، محتجا على ما وصلت اليه بلاده • ومتى اتفقت مصالح الشاعر مع مصالح الشعب ، ومتى شعر الشاعر بشعور الشعب ، وعكس مصالحه فقد سار في طريقه الذي يريده الشعب ، وفاز بالمجد والشهرة والخلود •

أما ما عالجه الشعر العراقي في الحياة الاجتماعية فهو لا يقل قوة وصراحة عما عالجه في الناحية السياسية ... ومشاكل الحياة الاجتماعية في العراق لا تختلف عن مثيلاتها في كل قطر عربي ، فهنالك مشكلة الجهل التي هي أم المشاكل ، فحيثما حل الجهل نزلت معه الكوارث ، وهذا الرصافي يقول :

من أين يرجى للعراق تقدم ؟ وسبيل ممتلكيه غير سبيله
لا خير في وطن يكون السيف عند جبانه ، والمال عند بخيله
والرأي عند طريده ، والعلم عند غريبه ، والحكم عند دخيله ...

وهناك مشكلة المرأة ، وما قام من نضال بين أنصار الحجاب وأنصار السفور ، وقد وقف الشاعران : الزهاوي والرصافي منها موقف المؤيد لتحرير المرأة ... وكان التأييد قائما على تعليم المرأة وتهذيبها .

وهذا الرصافي نفسه يقول مشيرا الى عناية عائشة أم المؤمنين بالعلم :

وقالوا : شرعة الاسلام تقضي
بتفضيل الذين على اللواتي
لقد كذبوا على الاسلام كذبا
تزول الشم منه مزلزلات
أليس العلم في الاسلام فرضا
على أبنائه ، وعلى البنات
وكانت أمنا في العلم بحرا
تحل لسائليها المشكلات ؟

وهناك مشكلة الفلاح والاقطاع ، حيث كانت حالة الفلاح تدعو الى الالم والحسرة ، وليس له قانون يحميه من الاقطاعي الذي يطرده متى أراده ويلاحقه بالديون التي أخذها ليأكل بها ، وقد حكمت بعض القوانين عليه بالبقاء في خدمة الاقطاعي حتى يسدد ديونه ، ولا يجوز لمالك آخر أن يستخدمه ما دام مدينا بمبلغ لمالك غيره . ومن هجر القرية تخلصا من هذا الرق فالسلطات تلاحقه ، وتحجز أجرته اليومية لتسديد ديون الاقطاعي ...

هذه حالة الفلاح العراقي العامة انعكست في الشعر العربي في العراق ، وقد حاول الشعراء اسعاده لانه جزء من هذا الشعب الكبير ..

ومن ذلك هذه الصورة المؤلمة :

جل معي جولة تريك احتقار الشعب والجهل والشقاء جماعا
تجد الكوخ خاليا من حطام الدهر ، والبيت خاويا يتداعى
ان هذا الفلاح لم يبق الا العرض منه ، يجله أن يباعا

وصورة ثانية للشاعر علي الشرقي :

ما لهـــذا الفـلاح في الارض روح
أهـو مـن معشــر بـلا أرواح ؟
هـو في جنــة ينـــال عــذابا
وهو تحت الاشـجار أجرد ، ضـاح
وترى النمل ــ لهف نفسي ــ أثرى
مـن قـراه ، الا مـن الاتـــراح

ومشكلة الفقر هزت ضمير الشعر العراقي ٠٠ ولكن أكثر الشعراء الذين عالجوا مشكلة الفقر كانوا يحملون عواطف كريمة ٠٠٠ وهي عواطف ذاتية تمثل حالة مر الشاعر بها فشعر بشعور الآخرين ٠٠٠ فكان من ذلك أن شعر بالرحمة والحنان ، فجاء بشعره مطالبا الاغنياء بالاحسان الى الفقراء والرحمة بهم ٠ مع أن حق الحياة الكريمة حق طبيعي لكل انسان ٠ وكان الاولى ان يطالب الشعراء بتغيير نظام الشعب الاجتماعي ، ليشمل العدل الاجتماعي جميع الناس ٠

أ ــ والكتاب يميل الى العرض الذي يجمع بين صبغتي الادب والتاريخ ، ولعل صبغة الموضوع تفرض عليه ذلك ٠

ب ــ لم يتعرض الكاتب للناحية الشكلية للشعر ٠٠٠ مع أن ذلك من متممات الموضوع ما دام البحث يتصل بالشعر العراقي الحديث ٠٠٠ ولعل المؤلف يعود الى ذلك ٠٠٠ وبخاصة حين نرى أن الشكلية لها مظهر بارز في الشعر العراقي ٠

ج ــ قد يكون من الموضوع أن يربط بين خطوط الشعر العراقـي وخطوط الشعر في غير العراق باعتبار أن الكفاح في الاقطار العربية سواء أكان سياسيا أو اجتماعيا ينبع من واحد ٠

هذا عرض وجيز ، وتحليل أوجز لكتـاب غني بمسادته ، موضوعي بمنهجه ، نبيل بروحه ، يسجل لنا شعر فترة من أغنى الفترات بحوادثها في تطور العراق السياسي والاجتماعي ٠ والكتاب جدير بمطالعة كل قارىء عربي ، ليستطيع أن يربط بين أحداث العراق وأحداث الاقطار الاخرى ، ويصل بين مشاكله ومشاكلها التي تجمعها جامعة واحدة ، في فترة واحدة ٠



تعليق ورد

ورد المجلة التعليق التالي من السيد غازي سعيد السعد ننشره مع رد المجلة عليه

أني أكبر للمجلة جميل عنايتها بالافكار المعقولة المبنية على الموضوعية وحسن البحث الموصل الى نتائج مثمرة تفيد عامة الناس وتبحث عن مصالحهم . وقد رأيت ان أرسل اليها مجموع ما انتهيت اليه من التعقيب على ما سلكه الكتاب العصريون من ابتذال الالفاظ وسوء استعمالها حتى كان هذا المسلك الخاطيء صار عرفا أو عادة تعارفها(١) الادباء واعتادوها وأنزلوها منزل الحقيقة والواقع أو منزل القانون الذي لا يجوز خلافه .

لقد عني القدماء الكرماء من أهل اللغة وخزنة علومها وصنعة فنونها برسم الكلم والالفاظ واستعمالها في مواضع خاصة بحيث لا تنبو واحدة منهن عن محلها ، عنايتهم بدلالاتها ومعانيها الموضوعة لها وسائر شؤونها الاخرى . فقد جعلوا لكل لفظة أو كلمة رسما خاصا ومكانا لائقا من الخط والكتابة ، ووفوها(٢) حقها ومحلها المناسب من الاستعمال فضلا عن أنهم آتوها دلالتها الدقيقة على المعنى المراد، تيسيرا لمضلي السبيل(٣) الى معرفة أحكام اللغة الوافرة وتنويرا للذين يتخبطون في دجاها وظلماتها ... فكان الواحد منهم لا يجرؤ على أن يستعمل الكلمة أو يرسمها الا على حسب ما وضع لها من قواعد وأصول بعد أن يمحص ويفحص عن وثائقها ويدقق نظره فيها ويحقق ويقلب رأيه ويستوعب يجيل فكره اجالة بعد اجالة من خشية أن يستعملها في غير موضعها فيقع في وهم معيب ، فيخرج حينئذ من سنة الفصاحة التي سنها العرب الفصح الاقحاح ونهجوا منهجها ودرجوا مدرجها خلفا عن سلف متنبهين عليها غير آبهين بما يعترضهم من عقبات وصروف تكاد تقضي على سيرتهم الفصيحة .

(١) قول الدكتور مصطفى جواد في ص ١٣ من مجلة الاقلام : « ولعلي أن أهتبل فرصة ... » ولست أتبين لـ « أن » أي وجه يسوغ استعمالها في هذا المكان ، ولم أجد في كلام الله ولا رسوله ولا سائر فصحاء العرب ما يرجح وضع « أن » المصدرية بعد « لعل » وما اشبهها . ففي القرآن الكريم : (لعلي أبلغ الاسباب) ولم يقل : (لعلي أن أبلغ ...) لانه لا محل لها من هذا الاستعمال ولا معنى ، فالصحيح : « لعلي أهتبل فرصة ... » .

وأحسب أن هذا من سبق قلم الطابع أو الناسخ والا فالاستاذ الدكتور حجة في البحث اللغوي ٠

(٢) ويعطفون على المضاف قبل المضاف اليه فيقولون مثلا : « نقابة عمال ومستخدمي السمك » و « هذا الكتاب جمع وتحقيق فلان » ٠ وما علموا ان المضاف كالجزء من المضاف اليه أي انهما متلازمان متلاصقان فلا يجوز الفصل بينهما بشيء من الفواصل أبدا ، ولذلك وجب أن يقال : « نقابة عمال السمك ومستخدميها » و « هذا الكتاب من جمع فلان وتحقيقه » ٠

(٣) ويستعملون « المدلول » في موضع « المدلول عليه » كقولهم : « لهذه الكلمة مدلول واحد » ٠ مع انهما مختلفان معنى ودلالة ، وذلك لان « المدلول » هو ما دلته الكلمة ، وهو غير ما دلت عليه الكلمة فان هذا لا يسمى الا مدلولا عليه ، بتقريب قولنا : « دلتني الكلمة على الشيء فهي دالة وأنا مدلول والشيء مدلول عليه » وكان الاصل أن يستعمل المعنى الاخير أي المدلول عليه ٠ وقد كثر هذا الاستعمال عند علماء الميزان « المنطق » والفلاسفة المسلمين وتبعهم في ذلك علماء أصول الفقه ، وكنت نبهت على خلط هذا القول في مقالة رددت فيها على أحد الاصوليين المعاصرين ٠

(٤) ومما تعارفه الكتاب خطأ[1] قولهم : « يكاد أن يفعل فلان » وفيه نظر وغرابة ، فأما أن فيه نظرا فلانه استعمل « أن » المصدرية بعد « يكاد » مع أن الفصحاء يكادون يجمعون على أن « أن » لا يحسن وقوعها بعد هذا الفعل ، ويؤكد اجماعهم هذا الواقع اللغوي الذى هو كلام العرب ٠ قال تعالى : (كادوا يكونون عليه لبدا) و (يكاد البرق يخطف ابصارهم) ، وروى عن أحد الائمة أنه قال : « كاد الفقر يكون كفرا » ٠ ويؤيد دعوانا ما ذهب اليه أحمد بن فارس في مادة « كيد » من مقاييسه ٠ وأما الغرابة فلانه جعل كلمة « فلان » — على ما يظهر من كلامه — فاعلا للفعلين « يكاد » و « يفعل » وذلك غير جائز ، نعم لو ذكر الفاعل بعد أول الفعلين ثم أضمره في الفعل الثاني فقال : « يكاد فلان يفعل » لكان لقوله وجه مقبول معتبر ٠

(٥) ومما لا نستطيع معه صبرا قول الدكتور يوسف عز الدين في ص ٢٩ من مجلة الاقلام : « ولاجله كان العرب يتجاوزون عن الاساءة » ٠ وذلك انه استعمل « لاجله » فجمع بين مثلين : اللام ، و « أجل » ٠ والمعروف أن دلالة الكلمتين المذكورتين لما كانت واحدة كان حقا علينا استعمال احداهما لاغنائها عن الاخرى ، ولم يستعمل العرب مع « أجل » — كما في صريح كلامهم المأثور المنثور — الا حرف الجر « من » ٠ وأرجو من الاستاذ الفاضل أن يتحرى ويبحث عما ادعيناه في معاجم اللغة وسائر مصنفاتها قبل أن يقدم على تأليف مثل هذا الكلام الذى لا يستند الى شيء من نص مروي ليكون حجة علينا ٠

أما وصفه الانبراطورية العثمانية بالمسلمة وانها كانت رمز الاسلام

والمدافعة عنه ورمز الخلافة الاسلامية ووحدة الشعور ، وأن الدين كان الرابطة بين العرب والدولة ـ كما صرح في المقالة بعينها ـ فدعوى واهنة ضعيفة لم يقم عليها دليل قطعي يمكن الركون اليه والاطمئنان به وخصوصا أن فيما تواتر من الاخبار عن تلك الامبراطورية الظالمة المستبدة الكافرة بأنعم الله المستعبدة أدلة كافية وافية بالقطع بعدم الاعتماد على ما ذهب اليه فضلا عن انه لم يذكر مصدرا واحدا يشير الى اسلامية العثمانيين وكونهم يحكمون بما أنزل الله ليكونوا رمزا للاسلام .

(٥) وقد وجدت في مقالة الدكتور يوسف عز الدين من الاخطاء اللغوية ما لا أطيق حمله ولا احتماله نمما أخطأ فيه قوله : « ولكنه يستند في مهاجة أعدائها على التاريخ العربي » . والعرب الفصحاء لا يستعملون مع الفعل « استند يستند » الا حرف الجر « الى » ألا ترى أن النحويين وغيرهم من أهل اللغة يقولون « المسند اليه » ؟ فلو كانوا يرون « على » مع « استند » صحيحا لقالوا : « المسند عليه » لان الافصح أحق أن يتبع مما لا وجه له من الصحة فضلا عن الفصاحة . ومن خطئه أنه قال . « تكلمت عن السياسة » وكان الوجه عن المحققين أن يقال « تكلمت على السياسة » وذلك لان أكثر ما تدل عليه « عن » النيابة والبدل .

ومن غلطه قوله : « وأخذت ترد اليهم الانباء » والمعروف أن « ورد يرد » لا يحتاج بعد تعديه الى مفعوله بنفسه الى حرف جر . يقول ابن فارس[٢] : « وصدر عن البلاد ، اذا كان وردها ثم شخص عنها » . ومنه يعلم أن الصواب : « ووردتهم الانباء » .

ومن أغلاطه ـ وهي كثيرة ـ قوله : « وقال عنه » في موضع « وقال فيه » ، لان معنى القول الاول أنه قال بدلا منه أو نيابة عنه أي نقل عنه قوله ، بخلاف الثاني فتدبر وتأمل .

ومن أخطائه البالغة : « أمور وجهت الناس توجيها جديد (كذا) ونبهتهم الى ما كان ... » . والقاعدة اللغوية توجب أن يقول : « ... أمور وجهت الناس توجيها جديدا ونبهتهم على ما كان ... » وان شككت في ذلك فارجع الى كتب اللغة لتتطلع على الحقيقة واليقين .

ومنها : قوله « التأكيد على كلمة العرب ... » والحقيقة اللغوية تشير الى أن الفعل « أكد تأكيدا » يتعدى بنفسه الى مفعوله غير مفتقر الى منه حرف الجر عليه ، فالصواب « التأكيد لكلمة العرب أو تأكيد كلمة العرب » . لانا نقول : « أكدنا كلمة العرب نؤكدها تأكيدا ، فتأكيدها من قبلنا كان واضحا » .

ومنها : أنه استعمل كلمة « الفوضى » اسما مع أنها لا تستعمل الا صفة ، تقول : صار الناس فوضى ، وكان أمرهم فوضى أي صاروا مختلفين وكان أمرهم مختلفا . قال الأفوه الاودي :

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم
ولا سراة اذا جهالهم سادوا

وان لم يحصل لك اليقين فراجع صحاح الجوهري في مادة « فوضى ».

ومنها : تذكيره للدار بقرينة قوله : « فاختفى في دار من دور قريب له ... » وهذا غلط من القول مبين ، لان الدار مؤنثة — كما نص عليها الجوهري في « دور » من صحاحه — وتأنيثها حقيقة وانما ذكرت في بعض المواضع لضرب من المجاز ، واذا شك في الشيء فحمله على الحقيقة أولى من حمله على المجاز ، لبداهة أن حمله على المجاز لا يتم الا بقرينة تدل عليه ، وكان من قواعد علم اصول الفقه أن الشك في القرينة يرجع الى اصالة عدم القرينة .

ومنها غير ما ذكرت، ضربت عنه صفحا وطويت كشحا وأعرضت لان مع الاكثار تكون الاهذار .

(٧) أما قول السيدة نازك الملائكة في ص ٣٤ من مجلة الاقلام : « ... حرية بأن تكون بطاقتك » وقولها : « وها أنا أجيبك على رسالتك » . فلا أجد لهما مستندا لغويا نقطع به ، والظاهر أنها أرسلتها ارسالا من غير اسناد ، وأرى ان القول الراجح : « حرية أن تكون ... » ، و « وها أنا أجيبك عن رسالتك » . وذلك لان « أن » لا يكون معها حرف الجر الا مقدرا كقولهم : « أنت خليق أن تفعل كذا ، وجدير أن تقوم » والتقدير : « خليق بأن تفعل ، وجدير بأن تقوم » قال تعالى : (والله ورسوله أحق أن ترضوه) أي أحق بأن ترضوه ، وقال تعالى أيضا : (لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه ...) ، وقال عز من قائل : (الاعراب أشد كفرا ونفاقا وأجدر أن لا يعلموا) كل ذلك بتقدير حرف الجر « الباء » قبل « أن » المصدرية ، فان أولت بالمصدر رجعت حرف الجر المقدر المحذوف « الباء » وغيره ، وقلت في مثل « أحق أن ترضوه » : « أحق بارضائه » . وأما « أجيب عن السؤال ، والجواب عن المسألة » فطريقها واضح من كلام العرب وأن شئت فراجع .

(٨) وقول السيدة نازك الملائكة في مقالتها المذكورة في مجلة الاقلام : « الجمال المحسوس » غير صحيح ولا فصيح ، وذلك لان « المحسوس » اسم مفعول الفعل الثلاثي اللازم « حس فلان بالشيء يحس به حسا » فهو محسوس به لا محسوس .

(٩) وقالت هذه السيدة الشاعرة أيضا : « واستلمت رسالتك » . والاصل : « تسلمت » .

(١٠) ومن خطأ ما قالته السيدة نازك في مقالتها : « وتؤثر أن يجيء ذلك من سواك » ، والمعروف « ممن سواك » .

(١١) وأخطأت السيدة نازك في قولها : « لانك تخشى أن تنصرم السنين

وتنضج شاعريتك ٠٠٠ » ٠ فان الصواب « ٠٠٠ تنصرم السنون ٠٠٠ » فاعل مرفوع بالواو لانه ملحق تجميع المذكر السالم ٠

(١٢) وتجد ابتذال الالفاظ على أشده في قول السيدة نازك الملائكة المذكورة(٣) : « ٠٠٠ وانما أنه ينظر ٠٠٠ » ٠ فيا أيها العقلاء الاجلاء : دققوا النظر في هذا الكلام ، ثم بينوا ما موضع « أنه » من الاعراب ؟ وهل ترونها مزيدة الا ترجيحا من دون مرجح ؟ أليس الفصيح أن يقال : « وانما ينظر ٠٠٠ » ؟ فنحذف ما لا يفيد الكلام معنى ولا دلالة ولا يكون له من الاعراب محل ٠

(١٣) تقول الاستاذة الفاضلة : « فان الاديب الغربي المعاصر يجنح على العموم الى السخرية » والذى عليه فصحاء العرب وعلماؤها أن « جنح يجنح » يتعدى باللام لا ب « الى » وفي القرآن الكريم : (وان جنحوا للسلم فاجنح لها) ٠

وأجحفت الاستاذة بحق الفعل « تعارف » فقيدته بحرف الجر « على » اذ قالت : « ٠٠٠ التي تعارفت عليها المجتمعات » ٠ وفي الحق أن « تعارف » يتعدى بنفسه الى مفعوله ، فيقال فيه : « هذا الشيء تعارفه الناس فهو متعارف ٠ وأنا أحيلها على المصباح المنير للفيومي وغيره من الكتب اللغوية لتتنبه على غلطها ٠

وللحديث صلة

---

(١) الاقلام : يعيب السيد غازي السعد على الكتاب العصريين « ابتذال الالفاظ وسوء استعمالها » كما هو آت في تعقيبه ، وينتقد على بعضهم بقوله : « ولم أجد في كلام الله ولا رسوله ولا سائر ما تكلم به فصحاء العرب ما يرجح كذا وكذا » ٠ مع أنه يستعمل « المتعارف » والفعل « تعارفها » ثم يقول في تخطئة الاستاذة نازك الملائكة : « وأجحفت الاستاذة بحق الفعل تعارف فقيدته بحرف الجر (على) اذ قالت : التي تعارفت عليها المجتمعات ٠ وفي الحق أن تعارف يتعدى بنفسه الى مفعوله فيقال : هذا الشيء تعارفه الناس فهو متعارف ٠ وأنا أحيلها على المصباح المنير للفيومي وغيره من الكتب اللغوية لتتنبه على غلطها (؟) » ٠

فنحن نحاكمه الى القرآن وقد احتج به فقد جاء فيه لازما كما في سورة يونس « ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا الا ساعة من النهار يتعارفون بينهم » وكما في سورة الحجرات « يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، ان أكرمكم عند الله أتقاكم » ، وأحال المصباح المنير وغيره ولم يذكر المصباح في مادة ع ر ف « تعارف » البتة فكيف أحال عليه ناصا على التعدية ؟ وان لم يكن صادقا في احالته عليه فهل يجوز أن نصدقه في غيره ؟ ! ٠

نحن لا نقول ان « المتعارف » و « تعارفها » خطأ ٠ لانهما لم يردا في القرآن الكريم ولا في سائر ما تكلم به فصحاء العرب ، كما يقول غازي السعد ، فأصل « تعارفوه » هو « تعارفوا عليه » كما جاء في قول السيدة نازك ثم حذف حرف الجر اتساعا فقيل « تعارفوه » وكلا التعبيرين من التعابير المولدة التي لم ينطق بها فصحاء العرب فضلا عن القرآن الكريم ، وقد قالوا « اصطلحوا عليه » مجازا وهو غير « اصطلحوا » الذي للحقيقة ،

فالحاجة والتطور هما اللذان يحملان على استعمال المجاز والاخذ بالاشتقاق وغيره من طرائق تنمية اللغة وتوسيعها ٠

(٢) الاقلام : توفيها حقها معلومة مفهومة أما « توفيها محلها المناسب » فهذا هو من ابتذال الالفاظ الذي أشار اليه السيد غازي سعد ثم ارتكبه ، فالمحل « لا يوفى » بل « يبوأ » قال تعالى في سورة الحج : « واذ بوأنا لابراهيم مكان البيت لا تشرك بي شيئا » وقال في سورة الاعراف : « واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم في الارض » ، وقال في سورة آل عمران : « واذ غدوت من أهلك تبوىء المؤمنين مقاعد للقتال والله سميع عليم » وقال غير ذلك في المعنى نفسه ، هذا ومن فضول القول قوله « المناسب » بعد قوله « محلها » لان « محلها » مناسب لها بطبيعته ولولا ذلك لم يضف اليها ، قال تعالى : « ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن » وكان يستطيع أن يقول « وبوؤوها محلا مناسبا لها » ٠

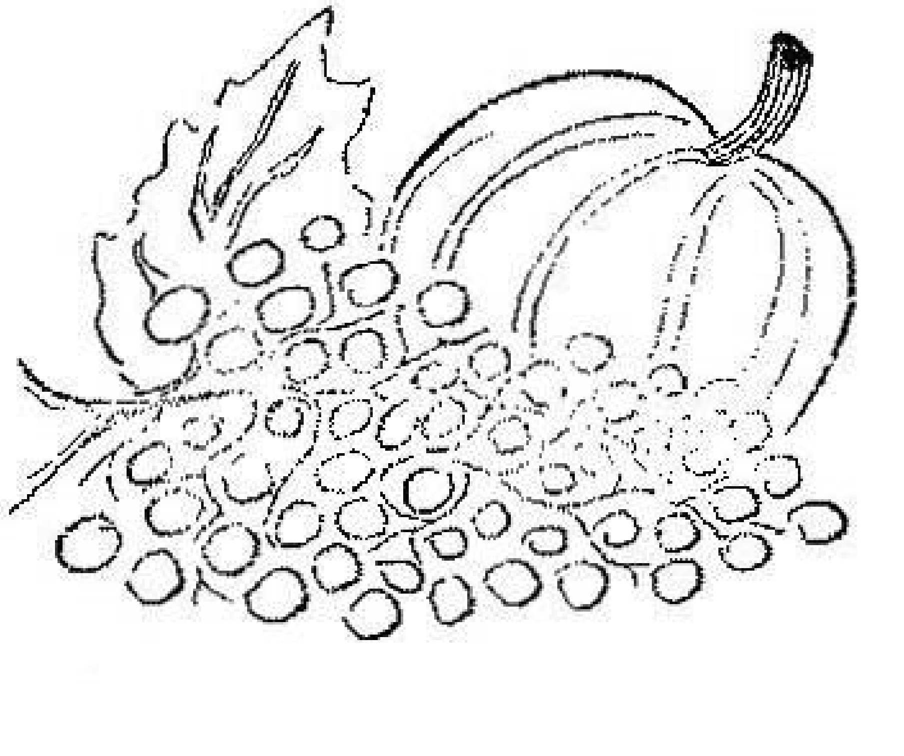
(٣) قوله « تيسيرا لمضلي السبيل الى معرفة أحكام اللغة » قول مرتبك ، أفهذا التيسير لاضلالهم وادامته أم لامر آخر ؟ أعني تيسيرهم لمعرفة أحكام اللغة ٠ وان كانوا مضلين فمن أضلهم ؟ فالفرق عظيم بين « الضالين والمضلين » والصحيح أنهم ضالو السبيل لا مضلوه قال تعالى في سورة الفرقان : « فيقول أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء أم هم ضلوا السبيل » ٠ فالمخطىء في التعبير ضال السبيل عن الصواب لا مضله ٠

ذكرنا هذا على سبيل التمثيل لا على سبيل التعقيب على أقوال السيد غازي ٠

(١) هكذا اصل رسمه ، كما اشرنا اليه في الجزء الاول من كتابنا (من اصول قواعد الاستملاء العربي) المطبوع في مطبعة العاني ببغداد سنة ١٩٦٣ م ٠

(٢) المقاييس : ج ٣ ص ٣٣٧ ٠

(٣) كما في ص ٣٨ من مجلة الاقلام ، وص ٤٤ ٠



رد الأقلام

١ ـ غلط السيد غازي سعد قول بعض هيئة التحرير « ولعلي أن أهتبل فرصة » قال : « ولست أتبين لان أي وجه يسوغ استعمالها في هذا المكان ولم أجد في كلام الله ولا رسوله ولا سائر ما تكلم به فصحاء العرب ما يرجح وضع « أن » المصدرية بعد لعل وما أشبهها ففي القرآن الكريم : لعلي أبلغ الاسباب » •

فنقول : ذكرنا في تعليقنا آنفا أن ما يذكر في القرآن الكريم لا ينفي ما لم يرد فيه « كتعارفوا » اللازم وتعارفوه المتعدي ظاهرا ، فالاول ورد مضارعه في القرآن الكريم ، والثاني لم يرد فيه قط ولكنه مستعمل في واقع اللغة والمعترض نفسه قد استعمله •

أما قول المعترض : انه لم يجد في سائر ما تكلم به فصحاء العرب ما يرجح وضع أن المصدرية بعد لعل ، فلا يحق لمثله ، وليس صحيحا ، وقوله معللا : « لانه لا محل لها من هذا الاستعمال ولا معنى » دعوى باطلة وقوله : « فالصحيح لعلي أهتبل فرصة » غير صحيح ، وحسبانه أن ذلك من سبق قلم الطابع أو الناسخ خطأ مبين ، فقد نطق به أعيان الكوفة من الصحابة والتابعين وأقرهم عليه الحسين بن علي ـ ع ـ ونص ذلك في كتابه اليهم « ومقالة جلكم : انه ليس علينا امام فاقبل لعل الله أن يجمعنا بك على الهدى والحق »(١) ، وجاء في قول الحي لابي ليلى صاحبة المجنون « فلعل الله أن يخلصه من هذا البلاء »(٢) • وجاء في كتاب الامام علي ـ ع ـ الى الاشعث بن قيس « ولعلي أن لا أكون شر ولاتك لك والسلام »(٣) وقال في ذكر التحكيم : « ولعل الله أن يصلح في هذه الهدنة أمر هذه الامة »(٤) وقال أبو حيان التوحيدي : « ولعله أن يخرج معه شيء آخر »(٥) • وزعمه أنه لم يرد في كلام الرسول ـ ص ـ فيدحض قوله ـ ص ـ : « لعل أحدكم يكون الحق بحجة من الاخر » « آمالي القالي ج ١ ص ٥ » •

هذا في النثر وأما في الشعر فحسبك قول الفرزدق :

لعلك يوما أن تريني كأنما   بني حوالي الليوث الحوارد

وقال أعشى همدان :

لعلهم أن يحدثوا العام توبة   وتعرف نصحا منهم وتوددا

وقال أحد الشعراء في عصر بني أمية :

لعل زمانا قد مضى أن يعود لي   فتغفر أروى عند ذاك ذنوبي(٦)

وقال عروة بن الورد وهو جاهلي :

لعلك يوما أن أن تسري ندامة ... علي بما جشمتني يوم غضورا

وقال زهير بن أبي سلمى :

لعلك يوما أن تراعي بفاجع ... كما راعني يوم النتاءة سالم

وقال ابو عيينة :

فقالت بعيشك قولي له ... تمنع لعلك أن تنفقا(٧)

وقال متمم بن نويرة :

لعلك يوما أن تلم ملمة ... عليك من اللائي يدعنك أجدعا

ومما نسب الى مجنون ليلى :

لعلك ان طالت حياتك أن ترى ... بلادا بها مبدى لليلي ومحضر

ولولا وروده في نهج البلاغة ونثر فصحاء الكوفة والحديث النبوي لذهبنا مذهب من يحمل « لعل » ها هنا على « عسى » في لغة الشعراء حسب ، ولكن الامر على ما رأيت ، وقد قال حكيم العرب قديما :

لا تهين الفقير علك أن ... تركع يوما والدهر قد رفعه

٢ ـ وعاب السيد غازي السعد عطفهم على المضاف قبل ايراد المضاف اليه كما في قولهم « نقابة عمال ومستخدمي السكك » و « هذا الكتاب جمع وتحقيق فلان » وانتهى الى قوله : « ولذلك وجب أن يقال « نقابة عمال السكك ومستخدميها » و « هذا الكتاب من جمع فلان وتحقيقه » . وليس في الامر وجوب كما قال بل ذكر الافصح والاملح ، فقد قال السيد غازي السعد : « وقد رأيت أن أرسل اليها مجموع ما انتهيت اليه ... » . والفصيح المليح « أن أرسل اليها بمجموع » بادخال الباء ، لان المجموع لا ينبعث بنفسه فيكون مفعولا به ، أو لا ترى الى قوله تعالى : « واني مرسلة اليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون ؟ » والتقدير « واني مرسلة اليهم رسلا بهدية ... » ولكنه ترك الفصيح المليح لانه لا يعرفه ، وكذلك القول فيما عابه من عبارات المجلة ، ومع هذا فالمسألة فيها جدال قديم وهي المعروفة بكتب النحو بقولهم « قطع الله يد ورجل من قالها » عطفوا رجلا قبل ذكر المضاف اليه ، وقديما قالت العرب في أمثالها : « عطر وريح عمرو(٨) » بعطف ريح على عطر ، قبل مباشرته المضاف اليه ، ولم يقل فصيح ان في المثل غلطا . وقال الاعشى :

الا علالة أو بداهة سابح نهد الجزاره

وقال الفرزدق :

يا من رأى عارضا أسر به ... بين ذراعي وجبهة الاسد(٩)

٣ ـ واعترض السيد غازي السعد على قولهم : « لهذه الكلمة مدلول واحد » ورأى من الصواب « مدلول عليه » لانه يقال « دل على الشيء فالشيء

مدلول عليه » . والفرق واضح بين « المدلول » الذي هو اسم و « المدلول عليه » الذي هو صفة ، ومن عادة الاسماء أن تحذف صلاتها الحرفية كالمشترك في علم اللغة ، فانه لا يقال « المشترك فيه في اللغة » قال السيوطي : « النوع الخامس والعشرون معرفة المشترك »[١٠] ، وقال الزمخشري في المفصل - ص ٥ - : « في المشترك من أحوالها » . ثم ان « المشترك » نفسه يستعمل صفة بغير صلة تقول : « هذا المال مشترك بينهم » أي مشترك فيه بينهم ، وجاء في المصباح المنير « حجر عليه حجرا من باب قتل : منعه التصرف فهو محجور عليه والفقهاء يحذفون الصفة تخفيفا لكثرة الاستعمال ويقولون محجور ، وهو سائغ » ، فهذا السائغ مألوف في التسمية والوصف ، فقد قالوا : « مفوض أي مفوض اليه ومأذون أي مأذون له وملحون اي ملحون فيه ومغلوط أي مغلوط فيه ، ومأنوس أي مأنوس به ، ومحسوس أي محسوس به ، والباب مفتوح والحكم فيه للاستعمال . ومع سواغ المدلول في قياس كلام العرب ورد في كتب النحو كالمغنى لابن هشام والشعر العربي قال ابن أبي حصينة يمدح الامير أبا العلوان ثمال بن أبي علي صالح بن مرداس السلمي :

تسري بغير دليل في مكارمه كأنه في طريق المجد مدلول[١١]

يعني « مدلول عليه » . فلم يخطىء علماء الميزان والفلاسفة في استعمال المدلول ولا علماء أصول الفقه .

٤ - وقال السيد غازي السعد : « ومما تعارفه الكتاب خطأ قولهم : يكاد أن يفعل . وفيه نظر وغرابة ... » وذكر أن الفصحاء مجمعون على خلو خبر « كاد » من « أن » على اللغة الفصيحة ، وهذا صحيح ولكن ادخال أن في خبر « كاد » لا يسمى خطأ بل يسمى غير فصيح ، وهذا معنى قول السيد غازي : « مع أن الفصحاء ... لا يحسن وقوعها ... » فغير الحسن لا يسمى غلطا . ثم قال : « وأما الغرابة فلأنه جعل كلمة فلان - على ما يظهر من كلامه فاعلا للفعلين يكاد ويفعل » . وهذا القول مستغرب عندنا ، لان الفاعل الاصلي بل الاسم الاصلي ليكاد هو « فلان » و « يفعل » جملة خبرية ليكاد ، فلما أقحمت « أن » صار الخبر مصدرا مؤولا مقدما والتقدير « يكاد فلان فعلا » . وما ندري ماذا يقول السيد غازي اذا قرأ قوله تعالى في سورة التوبة : « من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم » ؟ .

٥ - ثم قال السيد غازي « ومما لا نستطيع معه[١٢] صبرا قول الدكتور يوسف عز الدين ... » ولاجله كان العرب يتجاوزون عن الاساءة . وذلك انه استعمل (لاجله) فجمع بين مثلين : اللام وأجل .. وذكر أن العرب لم تستعمل مع « أجل » الا حرف الجر « من » . ثم قال « وأرجو من الاستاذ الفاضل أن يتحرى ويبحث عما أدعيناه في معاجم[١٣] اللغة وسائر مصنفاتها قبل ان يقدم على تأليف مثل هذا الكلام ... » .

دعوى السيد غازي أن « العرب » على الاطلاق لم تستعمل « لاجل »

فيها مجازفة ، فلو قال « فصحاء العرب القدامى » لجاز ان يصدق في قوله والا فان « لاجل » من التعابير العربية الشائعة ، وابن المقفع وهو من أفصح الكتاب بالعربية يستعمل « لاجل » كثيرا كما في كتابه كليلة ودمنة ، فمن ذلك « من كره القتال لاجل النفقة ... » . وانما قالوا لك ما قالوا لاجل الحقد الذي بينك وبينهم » « يريد أن يرضيه بغير الحق لاجل اتباع هواه »(١٤) . وان نصدق بالرسالة التي وضعها أبو حيان التوحيدي على لسان أبي بكر – رضي الله عنه – الى علي – عليه السلام – يكن « لاجل » من فصيح كلام العرب فقد ورد فيها قول أبي بكر على زعم أبي حيان : « وأفرده بحالة لو أصفقت الامة عليه لاجلها لكان عنده ايالتها وكفالتها »(١٥). ويؤيد فصاحة « لاجله » قول أبي سفيان يوم الفتح : « نعم هم أهل شؤم ، هؤلاء الذين غزانا محمد لاجلهم »(١٦) يعني بني بكر . فقول الدكتور يوسف عز الدين « يستند الى شيء من نص مروي » لا كما ادعى السيد غازي .

٦ – وغلط السيد غازي الدكتور المذكور آنفا في قوله : « يستند ... على التاريخ » وذكر ان الفصحاء يقولون « يستند الى ... » واستند عليه ، ليس بخطأ وانما هو غير فصيح بالنسبة الى كثرة ورود « استند اليه » ومع ذلك فللدكتور عز الدين أن يقول انه فصيح حقا ، الا ترى أن المعتضد بالله العباسي قال لابي الحسن ثابت بن قرة : « يا أبا الحسن سهوت ووضعت يدي على يدك واستندت عليها ... »(١٧) وقال مؤرخ الاندلس أبو مروان بن حيان : « على استرسال في طباعه وبذل بأسراره واستناد على العهد الذي أخذه الله على العلماء من عباده »(١٨) . فالقائل « استند عليه » قد ضمن استند معنى « اعتمد » واستعار له حرفه « على » ولا ضير في ذلك .

وغلطه في قوله « وأخذت ترد اليهم الانباء » وقال : « المعروف أن ورد يرد لا يحتاج بعد تعديه الى مفعوله بنفسه الى حرف جر ، يقول ابن فارس : وصدر عن البلاد اذا كان وردها ثم شخص عنها » ومنه يعلم أن الصواب : ووردتهم الانباء » . والذي عده السيد غازي صوابا غير صواب ، لان « ورد » خاص بالمورد حقيقة وبما يشبهه مجازا ، والانسان ليس بمورد أي ليس بنوع من أنواع المكان ، فلا يقال « وردت فلانا الانباء » لانها ترد مكانه أو دكانه أو داره أو محلته أو بيته أو بلدته ، فاصلاح السيد غازي السعد خطأ ، والصواب « ووردت عليهم الانباء » ودونه فصاحة « وردت اليهم الانباء » بتضمين الفعل ورد معنى « جاء » .

٧ – وغلط السيد نازك الملائكة في قولها « حرية بأن تكون بطاقتك » ورأى أن القول الراجح هو « حرية أن تكون ... » بحذف حرف الجر ، قال : « لان (أن) لا يكون معها حرف الجر الا مقدرا كقولهم خليق أن تفعل كذا وجدير أن تقول » . واستدل بقوله تعالى : « والله ورسوله أحق أن ترضوه » ، والصحيح أن حذف حرف الجر هو من باب البلاغة بالايجاز، فليس الحذف واجبا كما ذهب اليه السيد غازي السعد ، قال الله تعالى في سورة

البقرة : « وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها » وقال في سورة التوبة : « رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وطبع الله على قلوبهم » . فقول السيد غازي : « لا يكون حرف الجر مع أن مقدرا » مخالف للواقع اللغوي .

٨ ــ وانتقد عليها قولها : « يجنح على العموم الى السخرية » ، قال : « والذي عليه فصحاء العرب وعلماؤها أن جنح يجنح يتعدى باللام لا بالى وفي القرآن الكريم : وان جنحوا للسلم فاجنح لها » . قال ذلك مع أن « الى » هي الاصل في تعدية « جنح » واللام وضعت موضعها للتخفيف ، وهذه قاعدة مطردة في العربية أعني وضع اللام موضع « الى » للتخفيف ، جاء في لسان العرب « جنح اليه يجنح ويجنح جنوحا واجتنح : مال » ، وفي المصباح المنير « جنح الى الشيء يجنح بفتحتين وجنح جنوحا من باب قعد : مال » .

فالقرآن الكريم يستعمل الوجه المخفف أحيانا كما في « جنح » والوجهين كما في « دعا يدعو » في ابقاء ان وحذفها ، فاذا استعمل المخفف فلا يعني ذلك أن الاصل غير جائز ولا فصيح ، قال الزمخشري في أساس البلاغة « جنحوا للسلم وجنحوا اليه » فأبان أن الوجهين فصيحان .

ونختم تعليقنا بقولنا : ان استدراك السيد غازي السعد لم يخل من فائدة ولكنه بالغ وأفرط في التعقيب فصار خطؤه أكثر من صوابه ، ولم نستوف التعقيب على أقواله ولا في انشائه ففيها أوهام أكثر من أوهام غيره في انشائه ، فننصح له بالتأني والتأتي حتى يكمل استعداده ويتم سداده .

---

(١) تاريخ الامم والملوك « للطبري » ٦ : ١٩٨ طبعة المطبعة الحسينية بمصر » .

(٢) الاغاني « طبعة دار الكتب المصرية ٢ : ٢٦ » .

(٣) شرح نهج البلاغة لعز الدين بن أبي الحديد ٣ : ٢٩٩ طبعة البابي .

(٤) شرح نهج البلاغة المذكور « ٢ : ٣٠٣ » .

(٥) الامتاع والمؤانسة « ٢ : ٣٥ » .

(٦) الاغاني « ٤ : ٢٨٧ طبعة دار الكتب » .

(٧) الكامل في الادب للمبرد « ٢ : ٢٨ طبعة الدلجموني الازهري » .

(٨) جمهرة الامثال لابي هلال العسكري « ص ١٤٦ » .

(٩) المفصل للزمخشري « ص ١٠١ » .

(١٠) المزهر « ج ١ ص ٢١٧ بمطبعة السعادة بمصر » .

(١١) ديوان ابن أبي حصينة « ١ : ٣١٤ » .

(١٢) الصواب « عليه صبرا » يقال : « صبر على الاذى وعلى الشيء المكروه » لا « صبر معهما » ولو كان انسانا لصح قوله .

(١٣) ومجلة الاقلام ترجو من السيد غازي أن يتحرى ويبحث عن جمع المعجم على معاجم في كتب اللغة وسائر مصنفاتها ففي أيها ورد ؟ .

(١٤) كليلة ودمنة « ص ٣٠٤ ، ٣٧٨ ، ٣٨٨ طبعة المرصفي » .

(١٥) شرح نهج البلاغة « ٢ : ٥٩٤ طبعة البابي » .

(١٦) المرجع المذكور « ٤ : ٢٠٩ » .

(١٧) عيون الانباء « ١ : ٢١٦ طبعة المطبعة الوهبية »

(١٨) معجم الادباء « ٥ : ٩٢ طبعة مرغليوث » .

أضواء على السياسة العالمية

تميز شهر تشرين الثاني (أكتوبر) بأحداث لم تشهدها شهور السنة الاخرى سواء أكان ذلك في ميدان السياسة العربية أو السياسة الخارجية .

في السياسة العربية

صدر البيان المشترك بين الجمهورية العراقية والجمهورية العربية المتحدة بتوحيد القيادة السياسية بينهما تمهيدا لقيام الوحدة الدستورية التي نص البيان على انها أمر حتمي لابد من تحقيقه في أقصر وقت ممكن ، وتتلخص مواد الاتفاقية بالاضافة الى انشاء القيادة السياسية الموحدة في ان هذه المواد وضحت شكل هذه القيادة التي اعتبرت أعلى سلطة سياسية في البلدين فمن واجباتها ، اتخاذ الخطوات العملية لتحقيق الوحدة السياسية والاشراف على السياسة الخارجية وشئون الدفاع والشئون الاقتصادية وشئون الثقافة والارشاد والتعليم وكذلك الامن القومي وايجاد الحلول المناسبة للشئون الداخلية وحدد هيكل القيادة السياسية بأنها تتكون من رئيسي الجمهوريتين وستة أعضاء على الاقل من كل من البلدين وخولت القيادة في انشاء الاجهزة الكفيلة بسير العمل .

وذكر في الاتفاقية ان القيادة الموحدة تجتمع مرة في كل شهرين عدا الاجتماعات الاستثنائية عند الضرورة .

واعتبرت قرارات القيادة الموحدة نافذة المفعول بمجرد صدورها .

لقد قابل الشعب العربي في الجمهورية العراقية اتفاقية الوحدة باطمئنان بالغ وشعور عميق ، وتذكر الناس في الجمهورية العراقية انقيام الوحدة لا يكفي وحده دليلا للتوحيد ، بل انالاتعاظ بالحوادث السابقة يؤكد على الشعب العربي أن يدرس بعمق ويتفهم معاني الوحدة فليس من الوحدة في شيء أن يعلن جانبان رغبتهما في الوحدة ويتخذا الخطوات الدستورية اليها . ولكن الوحدة الحقيقية هي تلك التي تقوم بالفعل بين أبناء الشعب العربي في تفهم كامل للهدف المشترك والمصير المشترك والآمال المشتركة ،

والحياة الواحدة التي يحياها أبناء الامة في كل جزء من أجزائهـا ، وهي خلاصة للشعور بالمرارة من التجزئة التي فرضت على الوطن الواحد والامة الواحدة • ان هذا الشعور العام المشترك هو الوحدة القائمة بالفعل فاذا اتخذت طريقها الى الشكل الدستوري بهـذا الشعور كان سندها متينا وأساسها ثابتاً راسخاً وهو ما أشارت اليه اتفاقية الوحدة وحددت له مدة أقصاها سنتان كفيلة باتخاذ الخطوات العملية لتحقيق وحـدة دستورية لا تؤثر فيها عوامل الانحراف ولا تنال منها مؤامرات الاعداء •

مؤتمر عدم الانحياز

في بداية شهر اكتوبر (تشرين الاول) انعقد في القاهرة المؤتمر الثاني لدول عدم الانحياز وقد شارك فيه عـدد ضخم من دول آسيا وافريقيا وأمريكا اللاتينية وأوربا • والمؤتمر بحد ذاته نصر كبير لدعوة السلام في العالم اذ أثبت المؤتمر على انه قوة ايجابية لها أثرها الكبير في تسيير دفة السياسة العالمية وطرد من الاذهان الفكرة السلبية التي كانت تقترن باسم دول عدم الانحياز ، فقد كان بعض الناس يفهم ان دول عدم الانحيـاز هي مجموعة الدول التي لا تسير مع الغرب ولا تسير مع الشرق •

أما المؤتمر وما ظهر فيه فقد أثبت على ان عمله ليس الجلوس على التل – كما يقولون – بل العمل المباشر في أن يكون قوة مؤثرة في سياسة العالم يحسب حسابها من قبل الكتلتين الشرقية والغربية على حد سواء •

ولقد أظهرت نتائج المؤتمر نصرا كبيرا للعرب ليس من ناحية عقـده في بلد عربي هو الجمهورية العربية المتحدة ولكن من حيث القرار الصريح الذي اتخـذه المؤتمر في حقوق العرب في فلسـطين واقراره لتلك الحقوق وتفهمه لمبدأ العدالة الذي تقوم عليه مطالبة العرب بالعودة الى وطنهم الذي احتلته عصابات الصهيونية بموازرة الاستعمار •

ولذلك فان مؤتمر عدم الانحياز هذا قوبل في الأوساط الاستعمارية بتعليقات اريد منها صرف الناس عن مقرراته المهمة ، وقد حاول الاستعمار أن يشغل المؤتمر بموضوع ثانوي هو فرضـه (لتشومبي) رئيس وزراء الكونغو (ليوبولدفيل) لحضور المؤتمر ووصول هذا الاخير المفاجيء الى القاهرة من دون دعوة ومحاولاته المتكررة للحضور• لقد كانت مناورات اريد منها أن يظهر المؤتمر على غير حقيقته ولكن المؤتمرين كانوا أدرى بهذه المناورات ففوتوا على مدبريها فرصة الوصول الى غاياتهم ونجح المؤتمر نجاحا منقطع

النظير وخرجت الامة العربية فيه قوة هائلة لها شأن كبير في رسم السياسة العالمية ، كان ذلك بشهادة الاصدقاء والاعداء •

السياسة العالمية

خروشوف

ان أبرز الاحداث التي شغلت الرأي العام العالمي موضوع السيد نكيتا خروشوف رئيس الوزراء والسكرتير الاول للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفيتي فقد استقال خروشوف من مناصبه كما ذكرت بعض وكالات الانباء أو اقيل منها على حد تعبير الوكالات الاخرى •

ولكن الامر يوصل الى نتيجة واحدة ، هي تغيير في سياسة الاتحاد السوفيتي • وعلى الرغم مما ورد من أنباء تؤكد ان سياسة الاتحاد السوفيتي الخارجية ستبقى كما كانت على عهد خروشوف ، الا أن الاوساط السياسية في العالم تتنبأ بتغييرات كبيرة ستطرأ على السياسة العالمية ، اذ ترى تلك المصادر ان السياسة السوفيتية الخارجية اذا لم يكن في نية الحزب الحاكم في الاتحاد السوفيتي تغييرها فما الذي يدعو الى تغيير السيد خروشوف اكبر راسمي هذه السياسة •

ومهما قيـــل في خلاف الصين مع الاتحاد السوفيتي ودور السيد خروشوف في هذا الخلاف ومهما قيل عنه في استغلال نفوذه ورعايته لأقاربه وأنصاره ومهما ذكر عن مسئوليته في قلة الانتاج الزراعي لهذا العام • فان السيد خروشوف قد ترك أصدقاء كثيرين يذكرون له دوره في تخفيف حدة التوتر في العالم ويذكره العالم العربي صديقاً للعرب خفف كثيرا من الصور السيئة المظلمة التي خلفتها الشيوعية المحلية في السنوات الاخيرة ونقصد بها سنوات المد التي استحوذت على ثورة ١٤ تموز العظيمة في العراق •

الصين وتفجير القنبلة الذرية

منذ زمن ليس بالقصير تتحدث الأوساط العالمية عن الصين الشعبية وتذكر أنها تسعى بدأب زائد لتكون دولة نووية • وفي هذا الشهر وفي اليوم الذي ترك فيه السيد خروشوف مناصبه السياسية في الاتحاد السوفيتي بالذات فجرت الصين أول تفجير نووي لها وبذلك دخلت في عداد الدول النووية في العالم وهي الدولة الخامسة من دول العالم في هذا المجال •

ان الصين وقد أصبحت دولة نووية يمكن أن تساهم في خدمة السلام ،

اذ سيمكن ذلك الصين من دخول هيئة الامم المتحدة ويخفف من غلواء الولايات المتحدة الامريكية في معارضتها دخولها الهيئة المذكورة ٠

ان العـالم قابل هذا التفجير بردود فعل مختلفة فالولايات المتحدة قللت من أهمية الحدث وذكرت ان الصين بحاجة الى (١٥ سنة) لتطوير الاسلحة الذرية ٠٠٠

والدول الاخرى رأت ان هذا بداية للتفـاهم الذي يجب أن يسود العلاقات الدولية ، دون حاجة الى تجاهل القوة الصينية الكبيرة في تلك العلاقات ٠٠٠

الانتخابات في بريطانيا

لم يكن فوز حزب العمال في الانتخابات البريطانية مفاجأة كبيرة ، اذ كان كثير من الناس يشعرون ان التحول في بريطانيا بدأ واضحاً الى جانب العمال منذ وقت ليس بالقصير ٠

وحزب العمال فيبريطانيا يهيء دائما لنفسه بمناوءة حزب المحافظين ، حتى اذا ما فاز بالحكم سرعان ما يخسر الثقة على الاستمرار فتضيع منه الفرصة الى أمد ليس بالقصير ومعروف ان حزب العمال فاز في الانتخابات في أعقاب الحرب العالمية الثانية الا انه سرعان ما فقد المقـاعد الانتخابية وعادت الامور الى حزب المحافظين ٠

والمراقبون السياسيون يرون ان فوز حزب العمال هذه المرة فوز على الحافة وهم يتوقعون ألا يستمروا في الحكم أكثر من سنة واحدة ٠

المهم في هذا ان حزب العمال صدر له منشور عن احـدى منظماته العمالية وجهه الى اتحاد العمال العرب وقد نشر ذلك المنشور في جريدة الثورة العربية التي تصدر في بغداد في العـدد ٨٢ الصادر يوم ١٨ من تشرين الاول ٠

وقد حمل المنشور بشدة على سياسة حزب المحافظين تجاه البـلاد العربية وذكر موقفه المشين في حرب السويس وحمله مسئولية الغـارات الجوية في منطقة حريب بالجنوب اليمني وكذلك مواقفه الاخرى في عمان وغيرها ٠

ان انتصار حزب العمال يعني انتصارا لهذه القضايا كما يفهم أبنـاء الوطن العربي ، فهل لازال حزب العمال عند رأيه هذا ؟!

نرجو أن تكون سياسته كذلك ٠